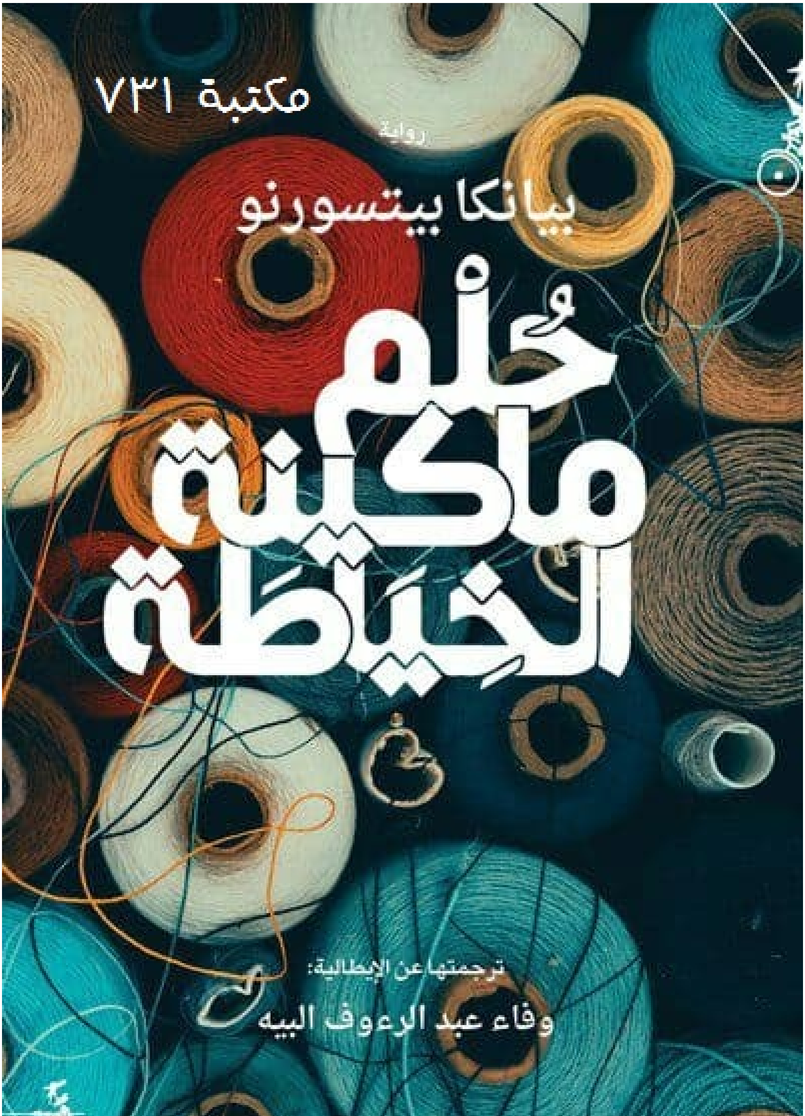
مكتبة ٧٣١
رواية
بيانكا بيتسورنو
حُلم ماكينة الخياطة
ترجمتها عن الإيطالية:
وفاء عبد الرءوف البيه
المتوسط

بيانكا بيتسورنو

حلم ماكينة الخياطة

منشورات المتوسط

مكتبة ٧٣١

telegram @t_pdf

كلمة الغلاف

بيانكا بيتسورنو واحدة من أعظم الكتاب الإيطاليين، ورواية "حلم ماكينة الخياطة" رواية استثنائية، فلا يمكن سوى ليَدٍ حكيمةٍ خبيرةٍ أن تقارنَ بين الخياطة والكتابة دون ابتذال أيٍّ منهما، بحسب الناقدة ناديا تيرانوفا.

في رواية "حُلْم ماكينة الخياطة"، تتذكَّر الكاتبةُ شخصية الخَيَّاطَة المُتواضِعَة في القرن التاسع عشر، والتي تستضيفها منازلُ الطبقات العليا لخياطة الفساتين في المناسبات المميزة. تراقبُ بطلة الرواية الجريئة والشابة من هذا الموضع المُتميّز حيوات الطبقة الأرستقراطية البليدة والمنافِقة في مقاطعة سردينيا.

وما تلبث أن تتقاطع قصّتُها مع قصص العائلات التي تعمل لديها: إستر، الماركيزة المثقّفة والمستقلّة التي تُعلّمها القراءة؛ البارون الطاغية، التي يتعيّن عليها الدفاع عن نفسها أمام محاولاته، وبنات كاتب العدل اللواتي يشترين الحرير من ورشةٍ في باريس.

تكتشف الخيّاطة الصغيرة على الفور أن بإمكانها الاطلاع على جميع الأسرار الخفية لتلك العائلات، ولكن هذه الفتاة البسيطة سيأتيها في النهاية يومٌ تعيش فيه دورَ البطولة أيضًا.

"أنا، أيضاً، خَيّاطَة مُتواضِعَة، أَحِيْكُ الثياب منذُ صباي ..." هكذا أجابتْ بيانكا بيتسورنو، مُؤلِّفة هذه الرواية، مرّاتٍ عدّةً عندما سُئِلَتْ عن شخصيّة بَطَلتِها الحقيقيّة، لتستدعيَ إلى الذِّهن عبارة مونيشا باسباتي، أُستاذة علْم النّفس التّنْمَوِيّ في جامعة يوتا: "أعتقدُ أن جميع البالغينَ الطَّبيعِيّيْن السِّلْمِيّيْن يشتركون في قُدرتهم على تكوين قصّة حياة. يمكنهم جميعاً جَمْعَ الأجزاءِ، وتكوينها كي نحظى بعلاقاتٍ، علينا جميعاً أن نحكيَ أجزاءَ من قصّتنا.من الصعب أن تكونَ إنساناً، وتنخرط في علاقاتٍ دون أن يكون لكَ نسخة من قصّةٍ حياتيّة، تطفو حولكَ». وقد أَبَتْ بيتسورنو، منذُ البداية، أن تترِكَنا نتساءلُ حولَ مدى حقيقيّة الأحداث والأشخاص، فاستهلّتْ روايتَهَا بمُفْتَتَحٍ، يبدو تقليديّاً، لكنه يُحدِّد، بوُضُوحٍ، الخطَّ الفاصل بين واقعيّة الأحداث وخياليّتها: " القصص والشّخصيّات الواردة في هذا الكتاب خيالية. لكنّ كلّ حكاية تنطلق من حَدَث وَقَعَ بالفعل، وقد عرفتُهُ من قصص جَدّتي، وهي إحدى أتراب البطلة، ومن صُحُف ذلك الزمن، ومن

الخطابات والبطاقات البريدية التي احتفظتْ هي بها في حقيبة سَفَر، ومن ذكريات ونوادر " قاموس عائلتنا". أعدتُ أنا إحكام الأحداث، وملأتُ الفراغات، واخترعتُ بعض التفاصيل، وأضفتُ شخصيّات ثانويّة، وغيّرتُ النهايات، في بعض الأحيان. لكنّ أحداثاً من النوع الذي ستقرؤونه كانت تحدث بالفعل في وقت مضى، حتّى في أفضل العائلات، كما يقول المَثَلُ القديم.".

القصّة التي تُروَى هنا تجمع، إذنْ، بين المُؤلِّفة وراويتها التي لا تحمل اسماً، لكنها تحمل حُلْماً في الخلاص والاكتفاء والسعادة، حُلْماً يُولَد في ظُرُوف بالغة التواضع، في إحدى مُدُن جنوب مملكة إيطاليا، بين الحربَيْن العالميّتَيْن، ويتشبّث بإمكانية تحقيقه الوحيدة، وهي ماكينة الخِيَاطَة. كُلُّ القصص التي تحكيها تلك الخَيّاطَة الراوية تدور خلف أبواب مُغلَقة، لا سبيل لاجتيازها سوى برفقة ماكينة الخِيَاطَة، تلك البطلة الأخرى التي لا تكفُّ عن الدوران مُصدِرةً تَرْتَرَتَها الخاصّة، لتشاركَ أهل تلك المدينة تَرْتَرَتَهُم التي لا تنتهي، حاملةً حُلْمَها وماكينتها تدخل الراوية الطفلة، ثمّ الشّابّة، منزل السيد أرتونيزي، الرجل الثّرِيّ المستنير، وابنته الشّابّة

استر، لتحكيَ لنا قصّة غرام عنيف، ينتهي نهاية مأساوية، ولتخرجَ هي منها بعِظَة حياتيّة، لا تُنسى، وصداقة، قُدِّر لها أن تدومَ عُمُراً طويلاً. ثمّ تصحبنا معها، بعد ذلك، إلى منزل عائلة أخرى، تتمتّع بذاتِ ثراءِ العائلة الأولى، لكنها تفتقدُ إلى كرمها وروحها المبادِرَة، عائلة بروفيرا، وينتقل بنا الحَكْي هنا بين أسرار العائلة البرجوازية العتيدة، وعالم سرّيٍّ غير مشروع، تدورُ أعمالُهُ وأحداثُهُ في أشدِّ مناطق المدينة فَقْرَاً وخَطَرَاً، لتنتهيَ هذه الحكاية، أيضاً، بشكلٍ لا يقلُّ مأساويّة عن سابقتها، وبفضيحةٍ مُدوِّية. ومن البرجوازيّيْن الإيطاليّيْن ننتقلُ إلى الصّحَفِيّة الأمريكيّة، ميس ليلي روز بريسكوي، السّيّدة الكريمة التي وَقَعَتْ في غرام تلك المدينة، وأحد أهلها القُساة، فنالت الموت في النهاية، ولم ينلْ قاتلُها ومَنْ تواطأ معه العقابَ، وَتَرَكَتْ حادثةُ قَتْلها غُصّة في قلب راويتنا. ثمّ تعود بنا الراوية إلى أُسَر النُّبلاء، منزل آل ديلسوربو، الذي يبدو وكأنه لا يزال يعيش بين أطلال الماضي وقِيَمه المنقضية. هنا تجد الخَيّاطَة المُتواضعة حُلْم الحُبِّ والاستقرار، لكنه حُلْم كالسراب، يتبدّد في نهاية الأمر. طَوَالَ تلك الرحلة التي تلجُ فيها الراوية منازلَ عائلات المدينة الإيطالية، التي ربّما تكون ساساري، وربّما

أيّ مدينة جنوبية أخرى، لم تكفّ حكاياتها عن التّماسِّ مع عالم البسطاء المُهمّشين الذين لا يتوقّفون عن الثّرْثَرَة حول شُؤُونهم وشُؤُون سادة المدينة، وهم يقفون موقفَ المُتفرِّج المتابع والشّغُوف لِمَا يجري في مدينتهم من أحداث.

لم تُبرِز بيتسورنو البُعْدَ الطَّبَقِيّ للمجتمع الإيطالي في النصف الأوّل من القرن العشرين فقط، لكنها تجاوَزَتْهُ إلى سلطة الرجال على النساء، ووَضْع المرأة بين طبقة عاملة كادحة، تُمثِّلها الراوية نفسها، وسيّدات برجوازيات مُتفتِّحات وواثقات من أنفسهنّ كالماركيزة الشّابّة استر، أو خاضعات خانعات كسيّدات آل بروفيرا، وأُخريات فقيرات مُغرّر بهنّ، انتهى بهنّ الأمر في دُوْر البِغَاء. وفي ذلك المشهد العامِّ للمرأة الإيطالية، بَرَزَتِ الصّحَفِيّة الأمريكية بقِيَمِها المختلفة، واعتزازِها وتقديرِها لنفسِها ولغيرها من النساء، وبنهاياتها الدّمويّة، التي ربّما حَمَلَتْ بُذُورها في رؤيتها المُتفتِّحة والواثقة للحياة.

خصّت بيتسورنو هذه الشّخصيّة بالحديث مع الصّحَفِيّة ميلاني عام □□□□، مُؤكِّدة أصلها التّاريخيّ: " في عام□□□□، في سردينيا، كانت توجد عالمة أنثربولوجيا، تدرسُ السُكَّان المحلِّيّين، وقُطَّاع الطُّرُق أيضاً، وتكتب عنهم لإحدى صُحُف فيلادلفيا. وذات يوم وُجِدَت ميتة، وهي ترتدي مِشَدّاً، يمتلئ بالمال. ولم يكن يوجد على ثيابها أثر لطَلَقَات ناريّة. فكَّروا فوراً في انتحارها لوُجُود مُسدّس معها، لكنه لا مفرّ، في الحقيقة، من أن تكون ثيابها قد نُزِعَتْ، ثمّ قُتِلَتْ، وأُعيد إلباسُها إيّاها".

صاغت بيتسورنو حكاياتها بسلاسة، وهي تنتقل بين الحَكْي والحوار بأنواعه ومُستوياته، فرافقتْنا، ليس فقط بين منازل السادة، ومجالسهم، بل بين أساليب حديثهم، وما تدلُّ عليه من رُقِيٍّ، ونَصَاعَة، في بعض الأحيان، أو لُؤم، ومُراوَغَة، في أحيان أخرى؛ وهكذا فَعَلَتْ مع فقراءِ المدينة ومُهمّشيها، كاشفةً بجُرأة عن مناطق ضَعْف مجتمع، لا يزال يرزحُ أسيراً لقِيَم زمنٍ وَلَّى.

إلى الذكرى الغالية لكلٍّ من:

السّيِّدة أنجلينا فالّي فاليّبيلّا، مضيفتنا خلال الصيف، والخيّاطَة الوحيدة في ستينتينو، والتي كانت تمتلك ماكينة بالمِدْوَس جميلة للغاية، وتخيط والباب مفتوح، لتراقب الميدان، أو بالأحرى "تقاطع" كالا دي أوليفا، وتثقب أذان صغيرات البلدة بإبرة حامية وسدّادة من الفلّين. كانت تمشِّط لي شَعْري كلّ صباح عاقدة لي الضفائر في فنائها النضر العامر بشجيرات الكوبية المزهرة.

السّيِّدة أرمينجيلدا جارچوني، المرأة الأكثر ذكاءً وإبداعاً بين مَنْ عرفتُ، التي غابت عن حياتنا منذُ عامَيْن، والتي ظلّت، حتّى بعد أن صارت عمياء، وإلى عامها السابع والتسعين، تخيط بماكينتها ذات المِدْوَس.

جوزبينا "بيشيفريتّو"، التي لا أذكر لقبها، والتي كانت تأتي، بعد الحرب مباشرة، لتخيط بأجر يوميٍّ لدينا، والتي قلبت(□) لنا معاطف عدّة، وصنعت لي مآزر عدّة بأحزمة وثَنْيَات طوليّة رفيعة من

الأمام، ولأشقَّائي عدّة مَشامِل ذات حمّالات من قماش البيكيه، وعلَّمتْني، وأنا في الخامسة، الغُرَز الأولى، وشرحتْ لي بصبر أُسُس الخِيَاطَة، بما في ذلك استخدام ماكينة الخِيَاطَة ذات المقبض.

جَدّتي بيبّينا سيستو، التي علَّمتْني التّوْشِيَة بالخيط الأبيض والألوان، والتي كانت عندما تراني أستخدم الإبرة دون ارتداء الكشتبان (كما فعلتُ دوماً، ولا أزال) تشكوني لأُمِّي متنبِّئة بأنني سأصبح امرأة صعبة المراس.

وكلُّ الخَيّاطَات المتواضعات الحاليّات في العالم الثالث، اللّاتي يخطنَ لنا الثياب العصرية عديمة القيمة، والتي ندفع لقاءها عملات قليلة في متاجر الثياب الضخمة زهيدة الأسعار – لكلٍّ منهن دائماً ذات الجزء منفصلاً عن بقية الأجزاء، كما في خطِّ التجميع –، لمدّة أربع عشرة ساعة، وهنّ يرتدين الحفّاضات، كي لا يضعنَ وقتاً في الذهاب إلى الحمّام، واللّاتي بعد أن يتلقَّينَ أجراً زهيداً للغاية، يَمُتنَ محترقاتٍ في مصانعهنّ الضخمة الأشبه بالسجن.

الخِيَاطَة عمل إبداعيٌ وبهيٌ، وهي كمهنة ليست كذلك، ليست كذلك.

القصص والشّخصيّات الواردة في هذا الكتاب خيالية.

لكنّ كلّ حكاية تنطلق من حَدَث وَقَعَ بالفعل، وقد عرفتُهُ من قصص جَدّتي، وهي إحدى أتراب البطلة، ومن صُحُف ذلك الزمن، ومن الخطابات والبطاقات البريدية التي احتفظتْ هي بها في حقيبة سَفَر، ومن ذكريات ونوادر "قاموس عائلتنا". أعدتُ أنا إحكام الأحداث، وملأتُ الفراغات، واخترعتُ بعض التفاصيل، وأضفتُ شخصيّات ثانويّة، وغيّرتُ النهايات، في بعض الأحيان. لكنّ أحداثاً من النوع الذي ستقرؤونه كانت تحدث بالفعل في وقت مضى، حتّى في أفضل العائلات، كما يقول المَثَلُ القديم.

كانت شخصية "الخَيّاطَة المتواضعة بأجر يوميٍّ" شائعة وحاضرة في كلِّ المنازل البرجوازية حتّى وقت صباي الأوّل، وخاصّة في زمن ما بعد الحرب مباشرة، عندما كانت إعادة "تأهيل" واستخدام

الثياب والمنسوجات الموجودة بالفعل في هيئة أخرى أمراً إجباريّاً للجميع. لم تظهر الثياب الدّاخليّة والأثواب المصنّعة التي يمكن شراؤها جاهزة بالفعل من محالِّ الثياب، والبريتا بورتيه(□)، والعلامات التِّجاريّة الشهيرة إلَّا فيما بعد. وعندما ظهرت الثياب الجاهزة بأسعار زهيدة في المتاجر الكبيرة، استمرّ الأثرياء الذين كانوا يحرصون على الأناقة، أو على الاختلاف فقط، في طَلَبِ خِيَاطَة الثياب " بالمقاس"، لكنْ، من خَيّاطَات معروفات، وفي مشاغل خِيَاطَة حقيقية.

كان زمن الخَيّاطَات المتواضعات قد ولَّى.

هدف هذا الكتاب هو ألَّا يُنسَى ذلك الزمن إلى الأبد.

(□) عمليّة كان الخَيّاط يقلب فيها الثياب التي حال لونها بسبب التّعرُض للشّمس أو كثرة الارتداء على وجهها الدّاخليِّ فتبدو كالجديدة.

(□) Prêt-à-Porter هو إنتاج من خامات ممتازة مشابه لأزياء الخِيَاطَة الراقية «الهوت كوتور» ولكنْ، بتكلفة أقلّ، وكمِّيّات أكبر.

كنتُ في السابعة عندما بدأت جَدّتي تعهد لي بأبسط لمسات التشطيب على قِطَع الثياب التي تخيطها في المنزل لزبوناتها في الفترات التي لم تتلقّ فيها طَلَبَاً للعمل في منازلهنّ. لم يتبقّ غيرنا نحن فقط من العائلة بأكملها بعد وباء الكوليرا الذي أطاح في طريقه، دون تمييز للجنس، بوالدي وأشقّائي وشقيقاتي، وكلِّ أبناء جَدّتي الآخرين وأحفادها، أعمامي وأبناء عمومتي. أمّا كيف نجحْنا نحن الاثنَتَيْن في الفِكَاك منه، فهذا ما لا أعلمه حتّى الآن.

كنّا فقيرَتَيْن، لكننا كنّا كذلك أيضاً قبل الوباء. لم تمتلك عائلتنا شيئاً قطُّ سوى قوّة سواعد رجالها، ومهارة أنامل نسائها. كان صيت جَدّتي وبناتها وكَنّاتها ذائعاً في المدينة لمهارتهنّ ودقَّتهنّ في الخِيَاطَة والتّوْشِيَة، ولأمانتهنّ ونظافتهنّ وجدارتهنّ بالثقة في الأعمال المنزلية عندما كنّ يذهبنَ لتقديم خدماتهنّ في منازل السادة، حيثُ كان بمقدورهنّ أيضاً العمل كخادمات بلياقة ما، والاهتمام بغرفة المفروشات والثياب. وكنّ جميعاً تقريباً طاهيات

جيّدات. كان الرجال يعملون بأجر يوميٍّ كبنّاءين وحمّالين وبستانيّيْن. فلم يكن في مدينتنا بعدُ كثير من الصناعات التي توظِّف عُمّالاً، لكنّ مصنع البيرة ومعصرة الزيتون والمطحنة وأعمال الحفر التي لا تهدأ في مصرف المياه كانت تتطلّب أيدٍ عاملة غير متخصِّصة. بحسب ما أذكر، لم نُقاسِ الجوع يوماً، حتّى وإن اضطُررنا غالباً لتغيير منزلنا، والتّكدُّس لبعض الوقت في أقبية قلب المدينة التّاريخيِّ أو مبانيه الأرضية، عندما لم يكن بمقدورنا دَفْع إيجار الشُّقق شديدة التواضع التي يقطنها مَنْ ينتمي إلى طبقتنا.

عندما لم يتبقّ سوانا، كنتُ في الخامسة من عُمُري وجَدّتي في الثانية والخمسين. كانت لا تزال قوية، وبإمكانها كسب قُوْتها بالعودة إلى العمل في دوام كامل لدى إحدى العائلات اللّاتي عملتْ لديهنّ في أثناء شبابها، وتركت ذكرى جيّدة. لكنْ، لم تكن أيٌّ منهنّ لتسمح لها بالاحتفاظ بي معها، ولم تردْ هي أن تضعَني في إحدى دُور الرعاية أو ملاجئ الأيتام التابعة للراهبات، والتي كانت توجد كذلك في المدينة، لكنها تتمتّع بسُمعة سيّئة للغاية. كما أنها لو خَرَجَتْ للعمل لنصف دوام، لم تكن لتعرف أين ستتركني خلال

اليوم. هكذا راهنت نفسها أنها ستنجح في إعالتنا معاً معتمدة على عملها في الخِيَاطَة فحسب، ونجحت في ذلك حتّى إنني لا أذكر أيّ نَقْص في تلك الأعوام. كنّا نقطن غرفَتَيْن صغيرَتَيْن في الطابق السُّفليّ لعقار راقٍ في أحد شوارع قلب المدينة التّاريخيّ الضّيّقة والمصفوفة بالحصى، وندفع إيجاراً عينياً: نظافة المدخل ودرجات السُّلَّم حتّى الطابق الرابع يومياً. كانت جَدّتي تستغرق فيها ساعَتَيْن ونصف الساعة كلّ صباح، تاركةً الفراش قبل بزوغ الضوء، ولم تكن تبدأ بأعمال الخِيَاطَة إلّا بعد أن تُعيد الدِّلاء والخيش والمكنسة إلى أمكنتها.

كانت قد جهّزت بلياقة وتناسق واضحَيْن إحدى الغرفَتَيْن لتتمكَّن من استقبال زبوناتها اللّاتي يأتينَ إليها لإعطائها الطَّلَبَات أو لقياس قِطَع الثياب في أثناء الخِيَاطَة في بعض الأحيان، وإن كانت هي مَنْ تذهب إليهنّ في الأغلب، حاملة على ذراعها الملابس المسرّجة، ملفوفة في مُلَاءَة للحفاظ عليها، ووسادة الدبابيس الصغيرة والمِقَصُّ معلّقان في شريط، يتدلّى على صدرها. كانت تصطحبني معها في تلك المناسبات بعد توصيات لا تنتهي بأن

أبقى هادئة في أحد الأركان. كانت تفعل ذلك، لأنها لم تكن تعرف مع مَنْ تتركني، ولأجل أن أبدأ التّعلُّم من خلال المراقبة أيضاً.

كان تخصُص جَدّتي هو المفروشات والثياب المنزلية، لوازم المنزل كاملة: مُلَاءَات ومفارش وستائر، قمصان رجالية ونسائية أيضاً، ثياب داخلية، ولوازم المواليد الجدد. في ذلك الوقت كانت قلَّة من المتاجر الغالية تبيع تلك القِطَع جاهزة بالفعل. كانت منافستانا الكبيرتان في هذا المجال هما الأُختان كارميلو، الماهرتان للغاية في التّوْشِيَة. لكن جَدّتي كانت تستطيع تفصيل ثياب نهارية ومسائية، وسترات، ومعاطف أيضاً. كلُّها للنساء، وبالطبع للأطفال أيضاً بتصغير المقاسات. كنتُ دائماً أخرج بثياب أنيقة، نظيفة ومهندمة، على النقيض من الفتيات الصغيرات الأخريات مُهَلْهَلَات الثياب في الزُّقَاق. لكنها، على الرغم من عُمُرها، كانت تُعَدُّ "خَيّاطَة متواضعة"، يتوجّه الناس إليها لأجل الأشياء الأكثر بساطة ويومية. كانت توجد خَيّاطَتَان حقيقيّتان ومهمّتان في المدينة، تتنافسان فيما بينهما، وتقدِّمان خدماتهما للسّيِّدات الأكثر

ثراءً وعصرية، ولكلٍّ منهما أتيليه وعُمّال متنوِّعون. كانتا تتلقَّيان من العاصمة الكتالوجات، وبها التصميمات، والأقمشة أيضاً في بعض الأحيان. كان تفصيل ثوب واحد عندهما يكلِّف ثروة. بهذا المبلغ كان يمكننا أنا وجَدّتي أن نعيش في يُسْر عامَيْن، وربّما أكثر .

وكانت هناك عائلة المحامي بروفيرا، التي تأمر بإحضار ثياب الحفلات الراقصة والاحتفالات للزوجة والابنَتَيْن من باريس مباشرة. شذوذ حقيقي، لأنه كان معروفاً في المدينة أن المحامي بروفيرا، فيما عدا ذلك، وحتّى فيما يخصُّ خزانة ملابسه الشّخصيّة، شديد البخل، وإن كان يملك إحدى الثروات الأكثر عَظَمَة في المدينة. "كلَّما امتلكوا نقوداً أكثر، زاد جنونهم"، كانت جَدّتي تتنهّد، هي التي عملت في شبابها لدى والدَي الزوجة، اللّذَيْن كانا هما أيضاً من أرباب الأملاك واسعي الثراء، وقد جهّزا ابنتهما الوحيدة تيريزا في عرسها بجهاز استثنائي – تمّ إحضاره أيضاً من باريس– جدير بوريثة أمريكية، ومنحاها مهر الأميرات. لكن صهرهما كان مستعداً كما هو واضح للإنفاق على أناقة نسائه فحسب، وليس على أناقته الشّخصيّة. كان المحامي، كجميع

السادة، يحصل على ثيابه من خَيّاط رجّالي، لكنّ مهنة الخَيّاط كانت تختلف تماماً عن مهنتنا: الأقمشة المستخدَمة مختلفة، والقَصُّ مختلف، وفنِّيّات الخِيَاطَة مختلفة، وكذا قواعد التدريب على أصول المهنة، لم يكن يُسمَح لأيِّ امرأة بالعمل في ذلك المجال، ربّما لأن اشتراطات الحياء كانت تمنعهنّ من لَمْسِ أجساد الرجال، لأَخْذ المقاسات. لا أعلم، لكنْ، كانت تلك هي التقاليد القديمة. عالمان منفصلان تماماً.

جَدّتي كانت أُمِّيّة. لم يكن بإمكانها قطُّ أن تُتيح لنفسها رفاهية الذهاب إلى المدرسة. والآن، وبالرغم من أنها كانت ترغب في ذلك، لم تستطع أن تمنَحَني أنا أيضاً ذات الرفاهية. كان ينبغي أن أتعلَّم مساعدتها مبكِّراً، وأن أُكرِّس كلّ وقتي للعمل. كان البديل – كما كانت تُذكِّرني دوماً – هو ملجأ الأيتام، حيثُ كانوا سيُعلِّمونني القراءة والكتابة، أجل، لكنني سأحيا كما لو أنني في سجن، وسأقاسي البرد، وأتناول طعاماً قليلاً وسيِّئاً، ثمّ في الرابعة عشرة عندما سيصرفونني، لن أكون قادرة على العمل سوى كخادمة: أأعيش في منزل آخرين، ويداي دائماً في المياه الباردة

أو محترقتان بسبب أواني الطهي أو المكواة، وأطيع، أطيع في كلِّ ساعة من ساعات النهار والليل، دون أيِّ احتمال أو أمل في التّحسُّن؟ أمّا إذا تعلَّمتُ مهنة، فسأنال دائماً استقلاليّتي. لكن أكثر ما كانت تخشاه، وهو ما اعترفت لي جَدّتي به بعد ذلك بأعوام طويلة، وقبل وفاتها بقليل، أنه إذا ذَهَبْتُ للعمل بدوام كامل، ونمتُ تحت سقف العائلة ذاته، فقد أتعرّض لمضايقة ربِّ المنزل أو أحد أبنائه.

"سأعرف كيف أدافع عن نفسي جيّداً" قلتُ لها منفعلة. عندئذ فقط رَوَتْ لي جَدّتي قصة ابنة عمِّها أوفيليا الحزينة للغاية، والتي عندما حاول ربُّ المنزل إغواءَها، صدّتْهُ وصَفَعَتْهُ وهدّدتْهُ بأن تشكوَهُ لزوجته. فقام هو، انتقاماً لنفسه ودرءاً للتُّهمة، بإخفاء علبة سيجار ذهبية من قاعة الاستقبال، ودسّها في الغرفة الصغيرة حيثُ تنام أوفيليا. ثمّ حمل زوجته على اصطحابه لتفتيش حاجيات الخادمة المتواضعة، والتي فُصِلَت من عملها فوراً فور اكتشاف علبة السيجار، دون أن تحصل على شهادة كفاءة. قصّت السّيّدةُ خبر السرقة لكلِّ معارفها. ذاع النبأ، ولم ترغب أيُّ عائلة فاضلة بإعطاء

عمل إلى "اللِّصّة". كان العمل الوحيد الذي وجدتْهُ أوفيليا هو غَسلُ الأواني في إحدى الحانات. لكنْ، هناك أيضاً كان الزبائن المخمورون يجعلون حياتها لا تُطاق، ويطلبون منها طَلَبَات غير لائقة، ويتعاركون فيما بينهم، ويُورِّطونها في مشاجراتهم. وذات ليلة، أُلقي القبض عليها، وكانت تلك بداية النهاية. كان نظام الشرطة، بعد قوانين كافور ونيكوتيرا بشأن البِغَاء، صارماً للغاية. وضعوها تحت المراقبة، وفي المشاجرة الثالثة التي لم يكن لها ذَنْب فيها، أُجبِرَت على تسجيل نفسها كعاهرة، والدخول إلى أحد المواخير، حيثُ مرضت، وماتت بعد أعوام قليلة بمرض الزُّهْرِيِّ في المستشفى.

كان تَذكُّر تلك القصّة بالنسبة إلى جَدّتي كمعايشة أحد الكوابيس مجدّداً. كانت تعرف مدى وَهْن الخيط الفاصل بين حياة كريمة وجحيم من المعاناة والعار. عندما كنتُ طفلة، لم تتحدّث لي عن ذلك مطلقاً، بل كانت تفعل كلّ ما في وسعها لتحافظ على جهلي التّامِّ بكلِّ ما يخصُّ الجنس، بما في ذلك مخاطره.

لكنها بدأت مبكّراً للغاية في وَضْع الإبرة والخيط في يدي، وقُصَاصَات صغيرة من النسيج المتبقّي من عملها. وكمعلِّمة ماهرة، كانت تقدِّم لي ذلك كلعبة. كنتُ أمتلك دُمية قديمة من عجينة الورق محطَّمة تماماً، ورثتُها من إحدى بنات عمومتي المتوفِّيات، والتي أهدتْها لها منذُ أعوام طَوَالَ ربّة المنزل الصغيرة التي كانت والدتها تعمل لديها لنصف دوام. كنتُ أحبُها كثيراً، ويؤلمني أن أراها عارية هكذا، وكلُ نَدَبَاتِها ظاهرة للعيان (كانت جَدّتي قد خَلَعَتْ عنها ثيابها ليلاً، وأخفتْها).

كنتُ نافدة الصبر على التّعلُّم وخِيَاطَة قميص واحد لها على الأقلِّ، ومنديل، ثمّ مُلَاءَة، وبعد ذلك مِئْزَر، أمّا الهدف الأسمى، فكان بالتأكيد ثوباً أنيقاً ذا طَيّات وحافّة مؤطّرة بالدانتيل. لم يكن الأمر سهلاً.

في النهاية، كانت جَدّتي هي مَنْ أتمّت العمل، لكنّني كنتُ قد تعلَّمتُ كيف أصنع حوافّاً ممتازة، بغُرَز صغيرة للغاية، متساوية فيما بينها، دون أن أثقب أصابعي أو أُلوِّث قماش الباتيستا الأبيض

والخفيف، الذي تصنع منه جَدّتي قمصان المواليد الجدد أو المناديل، بالدماء. وفي عُمُر السابعة، صارت خِيَاطَة الحوافِّ واجبي اليومي. كنتُ سعيدة وأنا أسمعها تقول لي: "أنتِ خير مساعد لي". في الواقع، كان عدد القِطَع التي تستطيع جَدّتي إنهاءها في أسبوع يزيد من شهر لآخر، وكذلك يزيد الربح، ولو بدرجة طفيفة.

تعلَّمتُ صناعة الحافَّة ذات المربّعات الصغيرة المفرّغة للمُلَاءَات، عمل رتيب، كان يسمح لي بإطلاق خيالي، وكذلك غُرْزَة الخطوط المتقاطعة، والتي تتطلَّب انتباهاً أكبر. الآن وقد كبرتُ، كانت جَدّتي تسمح لي بالخروج وحدي من المنزل، لأشتريَ الخيط من محلِّ الخردوات، ولأُسلِّمَ القِطَع الجاهزة، وإذا توقَّفتُ في طريق العودة لألعبَ نصف ساعة على الرصيف مع فتيات الحَيِّ الأخريات، لم تكن تتذمّر. لكنْ، لم يكن يروق لها أن تتركَني في المنزل وحدي طويلاً، وعندما كان يحدث أن تضطرّ للذهاب إلى منزل إحدى زبوناتها للخِيَاطَة طَوَالَ اليوم، كانت تأخذني معها بداعي مساعدتي لها. كانت تلك المرّات مليئة بالفوائد، لأنه كان

يمكننا استهلاك كلِّ الشموع أو الجاز اللَّازم للمصباح في الأيّام التي تغيب فيها الشمس، دون أن نضطرّ لاستخدام ما يخصُّنا، ولأنه كان يمكننا في تلك الأيّام توفير طعامنا أيضاً، فالغداء كان يُقدّم لنا منتصف النهار، غداء جيّد، أفضل بكثير من وجبتنا المعتادة، فيه معكرونة ولحم وفاكهة. كنّا في بعض المنازل نضطرُّ للذهاب لتناوُله في المطبخ برفقة الخادمات، وفي البعض الآخر، كان يُقدّم لنا، نحن الاثْنَتَيْن فقط، في غرفة الخِيَاطَة، ولم نُدعَ قطُّ للجلوس على طاولة أرباب المنزل.

عادة في تلك المنازل الثّريّة والأنيقة كانت توجد، كما قلتُ، غرفة خاصّة بالخِيَاطَة، مضاءة جيّداً، وفيها طاولة كبيرة للكَيِّ، حيثُ يُبسَط القماش ليُقصّ، وغالباً ما كانت توجد أيضاً، وهذه عجيبة العجائب، ماكينة خِيَاطَة. كانت جَدّتي تعرف كيف تستخدمها، ولا أدري أين تعلَّمت ذلك، وكنتُ أراقبها مسحورة، بينما تدفع هي المِدْوَسَ جيئةً وذهاباً، وبإيقاع ثابت، ويجري القماش مسرِعاً للغاية أسفل الإبرة. "لو استطعْنا أن نحصل على واحدة في المنزل"، كانت تتنهّد، "كم من العمل أكثر يمكنني قبوله!". لكنْ، كلتانا

تعرف أنه لن يكون لنا أبداً مثلها، إضافة إلى أنه لا يوجد مكان نضعها فيه.

في إحدى تلك الليالي، بينما كنّا نأخذ أشياءنا بعد انتهاء العمل، لنعود إلى المنزل، دخلتْ فتاة صغيرة لها نفس عُمُري – كنتُ آنذاك في الحادية عشرة –، متشجِّعة بوالدتها، ربّة المنزل الصغيرة التي كنّا نحيك لها ثوب احتفال الميرون الأبيض. بخجل مدّت الفتاة لي حزمة أسطوانية ملفوفة جيّداً في ورق عطارة سميك، ومربوطة بخيط. "إنها صُحُف الرسوم المتحرِّكة للعام الماضي"، أوضحت الأُمُّ. "قرأتْها أرمينيا بالفعل، وأعادتْ قراءتها، وكلٌّ أسبوع تصلنا واحدة جديدة. فكَّرتُ أنها قد تروقكِ".

قبل أن تمنعَني نظرة جَدّتي الحادّة، أفلتت مِنّي عبارة: "لا أعرف القراءة". خفضت الآنسة أرمينيا بصرَها نحو حذائها محرَجة، وقد رسمت على وجهها تعبيراً حزيناً، وكأنها على وشك البكاء. استدركت الأُمُّ، بعد تردُّد وجيز للغاية، وابتسمت بثقة: "لا توجد

مشكلة. يمكنكِ أن تنظري إلى الرسوم، إنها جميلة للغاية". ووضعت الحزمة في يدي.

كانت مُحقَّة. عندما فتحتُ الحزمة في المنزل، ونثرتُ محتوياتها على الفراش، تقطَّعتْ أنفاسي. لم أكن قد رأيتُ أبداً شيئاً بهذا الجمال في حياتي. كانت بعض الرسوم ملوّنة، وبعضها باللونَيْن الأبيض والأسود، لكنها جميعها كانت تسحرني. كم كنتُ لأضحّيَ في سبيل أن أتمكّن من قراءة ما هو مكتوب في الأسفل! في الليل، ومُلَاءَة الفراش تغطِّي رأسي، بكيتُ قليلاً وأنا أحاول ألَّا أجعل جَدّتي تسمعني. لكنها سمعتْني. وفي الأسبوع التالي، بعد أن انتهى العمل في منزل الآنسة أرمينيا، قالت لي: "عقدتُ اتِّفاقاً مع لوتشيا، ابنة صاحبة محلِّ الخردوات. تعرفين أنها خُطِبَت وستتزوّج خلال عامَيْن. وعدتُها أننا سنُطرِّز لها اثنَتَي عشرة مُلَاءَة بالحروف الأولى بغُرْزَة الظِّلِّ، وهي، في المقابل، ستعطي لكِ درساً لمدّة ساعة مرّتَيْن في الأسبوع . لقد دَرَسَتْ كي تصير معلِّمة، حتّى وإن لم تنلِ الدبلوم. أنا واثقة أنكِ ستتعلّمين سريعاً".

لكنني استغرقتُ ثلاثة أعوام تقريباً، لأن لوتشيا لم يكن لديها خبرة كبيرة، وأنا لم يكن لديّ وقت طويل لأتدرّب. في الواقع، كنتُ أستمرُّ في مساعدة جَدّتي في أعمال تزداد صعوبتها دائماً، وعندما كنّا نذهب للخِيَاطَة في المنازل، كنت أضطرُّ للتّخلِّي عن الدروس. في البداية، ولأنني لم أكن أملك كتاباً لمبادئ القراءة، ولم أرد إرغام جَدّتي على إنفاق المال، طَلَبْتُ من لوتشيا أن تعلِّمني باستخدام أوراق صُحُف الرسوم المتحرِّكة، وقبلتْ. "هذا أفضل. سيكون الأمر أقلّ رتابةً". كانت قد أتمَّت العشرين من عُمُرها بالفعل، لكنها كانت تستمتع كطفلة بالأُحجيّات وأخبار الحيوانات الغريبة ولعبة نُطق الكلمات الصعبة. كان السّجْعُ غريباً، يحملُنا على الضحك، إلَّا أنها لم تكن كلمات اعتدْنا على استخدامها يومياً. بعد بضعة أشهر، اضطرُرْنا إلى طَلَبِ استعارة أحد الكُتُب المدرسية. كنتُ سعيدة بالتّعلُّم على أيّة حال، وكنتُ ممتنّة لمعلِّمتي المؤقّتة. قلتُ لجَدّتي أن تنسى أمر المُلَاءَات المطرّزة بغُرْزَة الظِّلِّ، كنتُ أريد أن أُطرِّزها أنا كلّها. أنهيتُها ليلة عرس لوتشيا بالضبط، ثمّ حِكْتُ لها، مقابل الدروس التي أعطتْها لي في العام التالي، اثنَي عشر قميصاً صغيراً، متنوِّعي المقاسات، لأجل الطفل الذي كانت

تنتظره. صنعتُ له أيضاً ثوباً صغيراً مطرّزاً، استوحيتُهُ من ثوبَي ابنَتَي الملك، الأميرَتَيْن الصّغيرَتَيْن يولاندا ومافالدا، اللَّتَيْن رأيتُهما محمولَتَيْن على ذراع الملكة، في صورة كبيرة معروضة في الواجهة الزُجاجيّة لأحد المحالِّ. عندما وُلد ابن لوتشيا، صبياً جميلاً، بعد عيد مولدي الرابع عشر بقليل، قالت لي: "كفى دروساً. ليس لديّ وقت الآن. ثمّ إنكِ قد تقدّمت بالفعل بما يمكنكِ من الاستمرار وحدكِ".

ولكي أتدرّب، أهدتني ما لديها من "صُحُف رسوم متحرِّكة" لم يعد لديها وقت لقراءتها. صفحات كثيرة كانت تتهشّم بينما أنا أتصفَّحها، وقد تأذّت من كثرة الاستخدام. في الحقيقة، لم تكن صُحُف رسوم متحرِّكة، بل كتيّبات أوبرا. لم أكن قد ذَهَبْتُ من قبل إلى المسرح قطُّ، لكنني كنتُ أعرف أن إحدى فِرَق الغناء تأتي إلى المدينة كلّ عام، لتقدِّم المسرحيات الغنائية الحديثة. لم يكن يتردّد عليها السادة فقط، بل أصحاب المتاجر أيضاً وبعض الحِرَفِيّيْن القادرين على توفير مكان في إحدى المقصورات

العلوية. كنتُ أعرف كثيراً من المقطوعات، لأن زبوناتنا الشّابّات كنّ يُغنّينَها في قاعات الاستقبال لديهنّ، بمصاحبة البيانو.

قرأتُ تلك الكتيّبات كما لو كانت روايات، واكتشفتُ بدهشة أن كلّ قصصها تتحدّث عن الحُبِّ. قصص حُبٍّ مليئة بالشّغَف، وقصص حُبٍّ قَدَرِيّة. كان موضوعاً لم آخذه في الاعتبار باهتمام كافٍ من قبل، لكنْ، منذُ تلك اللحظة بدأتُ في الإنصات بفضول لأحاديث البالغين.

في تلك الأيّام، كان الحديث في غرف استقبال العائلات المهمّة والمقاهي التي يتردّد عليها السادة، وفي زُقاقنا أيضاً والشوارع المجاورة وصولاً إلى طاولات السوق، يدور بكثرة حول قصّة تشبه كثيراً قصص مسرحيات لوتشيا الغنائية. لقد أُغرمت ابنةُ السّيّد أرتونيزي ذات السبعة عشر عاما بالماركيز ريتسالدو، وتريد أن تتزوّجه رغم معارضة والدها. كنّا، جَدّتي وأنا، نعرف عائلة أرتونيزي التي تقطن على بُعد بضعة شوارع منّا، في شُقّة كبيرة في الطابق الأوّل من إحدى البنايات الراقية والأنيقة، التي تكثر مثيلاتها في

المدينة القديمة، مختلطة بالمساكن الأرضية التي كانت حظائر في الماضي، وأصبحت الآن - بسبب قلَّة استخدام الخيل والعربات التي تجرُّها - مأوى للبشر الأكثر بؤساً وتعاسة. وحَدَثَ لنا مرّات عدّة أن ذهبْنا للخِيَاطَة في منزل أرتونيزي تلبية لدعوة مديرة المنزل. كانت هي مَنْ تدير المنزل منذُ توفِّيت السَّيِّدة، زوجة ربِّ العائلة، في الوباء العظيم تاركةً ابنة وحيدة هي بالضبط بطلة قصّة الحُبِّ الحديثة التي يكثر اللَّغَط حولها بشدّة.

كانت الآنسة، التي رأيناها تكبر، وحِكْنا لها عبر أعوام مآزرَ منزل مختلفة، وبعض الأثواب الصَّيفيّة من الموسلين الموشّى، تُدعى استر، وهي قُرّة عين والدها، الذي لم يكن بمقدوره أن يرفض لها أيّ طَلَبٍ، حتّى أكثر الأشياء غرابة. فلم يشترِ لها مؤخّراً بيانو حديثاً وكبيراً أتى به من إنجلترا فقط، بل كان يسمح لها بمتابعة دروس الفروسية، التي كانت مقتصرة فقط على الشباب أو بعض الشّابّات بصحبة أزواجهنّ. في المدينة، كان الهَمْس يدور حول أن استر أرتونيزي لا تمتطي الخيل واضعة كلتا ساقَيْها في جانب واحد، بل تمتطيها كالذُكُور، لذا كانت ترتدي السروال أسفل

التّنُورة. وعلى الرغم من تذمُّر مديرة المنزل والقريبات، كان الأب يغفر لها لامبالاتها التّامّة بالخِيَاطَة والتطريز والمطبخ والأمور الأخرى كافَّة التي تتعلَّق بإدارة المنزل. وعندما تملَّكتْها نزوة تعلُّم اللغات الأجنبية واللغات القديمة، استدعى لها عانساً كهلة ذات أصول تُونُسيّة كي تُدرِّسها الفرنسية مرّتَيْن في الأسبوع، والصّحَفِيّة الأمريكية التي تعيش في مدينتنا منذُ أعوام طَوَالَ لدروس الإنجليزية، وراهب من مدرسة اللّاهوت لدروس اللّاتينيّة واليونانية. كما أن استر قد حظيت منذُ طفولتها بمدرِّس للعلوم، كان يعلِّمها الأحياء والكيمياء والجغرافيا، ويُبيّن لها كيفية عمل الماكينات المخترَعة حديثاً. كانت تلك الدروس تُبهِجُها، ولم تتملَّص منها قطُّ. (كنتُ أعشقها، لأنها ذات مرّة، وبينما نحن نعمل في منزلها، دخلتْ إلى غرفة الخِيَاطَة، وسمحتْ لي ولجَدّتي بحضور شرح آلية عمل ماكينة الخِيَاطَة الألمانية الجديدة. قام المدرِّس بفَكِّها تماماً، وأخبرنا باسم ووظيفة كلِّ قطعة، ثمّ أعاد تركيبها ببطء وهو يُرينا التروس واحداً تلو الآخر، ويشرح لجَدّتي كيف تقوم بتزييتها. بدا لي، وقد كنتُ حينها في الحادية عشرة من عُمُري، أنني أشاهد معجزة).

"يريد تنشئتها كذَكَر ..." كانت القريبات يهمسنَ مستاءات. كانت نسيبته السِّيّد أرتونيزي قد أخبرتْهُ بجفاف: "انتبهْ إلى أنه عندما ستتزوّج استر لن يفيدها كلُّ هذا في شيء. أنتَ تُفسِدها". لكنه هزّ كتفَيْه، ودعاها للاهتمام بتربية بناتها اللَّاتي كنّ يكبرنَ كمُدلَّلات فاسدات حقيقيات.

كان لدى السِّيّد أرتونيزي ما يؤهِّله للتّمتُّع بتفرُّد كبير واحتقار للأعراف، إضافة إلى تحمُّل كلّ تلك النفقات، لأنه كان ثرياً للغاية. كان يمتلك قِطَعَاً من الأراضي تُزرَع بالقمح والشعير والجُنْجُل، لكنه، على خلاف كثير من ملاك الأراضي المحلِّيّيْن، كان صاحب مبادرة، ولم يكن يكتفي بتحصيل دخول المحصولات من المؤجِّرين. كان يدير بنفسه عدّة طواحين يمتلكها، تطحن لصالح مزارعين آخرين أيضاً، ومصنعاً كبيراً للبيرة، هو الوحيد في منطقتنا. كان عادة ما يصطحب ابنته في جولات التفتيش.

"سيكون لزاماً عليكِ أنتِ الاهتمام بها ذات يوم" كان يقول لها.

"سيكون لزاماً على زوجها" كانت نسيبته، إحدى خالات الفتاة، تُصحِّح له. "إلَّا إذا نجحتَ أنتَ، بكلِّ تلك الأمور الشّاذّة، أن تبقيها عانساً".

كان من الصعب لهذا أن يحدث، كنتُ أفكِّر، لأن الآنسة استر لم تكن فقط وريثة ثرية، ولكنها فتاة باهرة الجمال أيضاً. كان لديها قوام رشيق، وأناقة ورقَّة غير مألوفَتَيْن في حركاتها، ووجه عذب ومعبِّر قادر على جَعْل أكثر الرجال صلافة ولامبالاة يُغرَم به. كان يحوم حولها مغازلون كُثرٌ للغاية، لكنها كانت قادرة على إبعادهم. كانت تُفهِمُهم بتهذيب، ودون أن توجِّه أيّ إهانة أبداً، وبكلمات قليلة، أنه من الأفضل أن يبقوا بعيداً. كنتُ أُعجب بها لأجل هذا أيضاً. كان الرجال جميعاً يبدون لي آنذاك سخفاء، وشديد السخافة كان تصنُّعهم. فقط في عالم المسرحيات الغنائية يمكن لبعض الأشياء أن تحدث، ولبعض العبارات العَبَثِيّة شديدة العذوبة أن تُقال.

عندما سمعتُ أن الآنسة استر مغرمَة بالماركيز ريتسالدو، الذي تعرّفتْ عليه في مدرسة الفروسية، لم أستطع أن أُصدِّق. كان الماركيز بأعوامه الثلاثين، وبخلاف كلِّ شيء يبدو لي عجوزاً. لكن جَدّتي لم تكن ترى في ذلك أيّ غرابة، فقد كان الماركيز – كما علّقتْ مع صاحبة محلِّ الخردوات الذي كنّا نشتري منه الإبر والخيط – يمتلك ثروة جيّدة خاصّة به، وإن لم يكن ثرياً للغاية كآل أرتونيزي، لذا لا يمكن أن يكون أحد صائدي المهور. وكان يمتلك أيضاً لقباً نبيلاً عريقاً ومحترماً، ظلّ هو الوريث الوحيد له بسبب الوباء العظيم. كان من الطَّبيعيِّ أن يتعجّل الزواج، كي يُنجب وريثاً، وربّما ليُكوِّن أسرة كبيرة العدد، طالما كان شابّاً نوعاً ما. لم يكن عُمُر العروس المنتقاة يمثِّل مشكلة لجَدّتي ومعارفها. هنّ أنفسهنّ تزوّجنَ في السادسة عشرة تقريباً.

وعلى خلاف عادته، لم يكن السّيّد أرتونيزي، الذي أذعن أمام كثير من نزوات الابنة، على استعداد لمساندتها في هذا الاختيار. لم يكن الماركيز يروقه بشكل عامٍّ، لكنه لم يستطع قول شيء محدّد ضدّه، لكن استر كانت تبدو له صغيرة للغاية، كي تقوم بدور

الأُمِّ وربّة المنزل. "ليس لديكِ خبرة بعد" كان يقول لها، "لديكِ الكثير لتتعلَّميه".

"سيُعلِّمني جويلفو" كانت الفتاة تجيب بعناد.

"أطلب منكِ فقط أن تنتظري حتّى سنّ الرشد" كان الوالد يصرُّ. "إذا لم تُغيّري رأيكِ حتّى ذلك الوقت، سأمنحكِ موافقتي".

"أربعة أعوام! هل تريد أن تراني ميتة؟ سأصير عجوزاً خلال أربعة أعوام. وسيبحث جويلفو في تلك الأثناء عن أخرى. أنتَ لا تعرف كم من الفتيات يحمنَ حوله. ثمّ، معذرة، عندما أكون راشدة، لن أحتاج إلى إذن منكَ".

كنّا نعرف تلك العبارات، لأن مديرة المنزل أخبرتْنا بها. كانت تُخبرنا أيضاً عن خطابات الوَلَه التي تصل كلّ يوم إلى منزل أرتونيزي مع باقات الزهور، وعن الأيّام التي كانت الآنسة استر تقضيها باكية داخل غرفتها، لأن والدها لم يعد يسمح لها بالخروج

من المنزل وحدها، وكان لدى مرافقيها أمرٌ بمَنْع أيِّ اتِّصال لها بالماركيز.

ذات يوم دخلتِ الفتاة شاحبة الوجه تماماً إلى مكتب الوالد، وناولتْهُ بصمت خطاباً كانت قد تلقَّتْهُ لتوِّها. "إذا لم أستطع الفوز بكِ، سأقتل نفسي"، كان مكتوباً به. " ليس لحياتي أيٌّ معنى بدونكِ".

"إذا قَتَلَ جويلفو نفسه، سأقتل نفسي أنا أيضاً"، قالت استر بسكينة أفزعت السِّيّد أرتونيزي، الذي وافق على استقبال المتقدِّم لزواج ابنته، وأجرى معه حديثاً طويلاً. كانت النتيجة أنه بمقدور الشّابّيْن اعتبار نفسَيْهما خطيبَيْن رَسميّاً، لكنْ، يجب عليهما ألّا يلتقيا بمفردهما أبداً. كان يمكن للماركيز أن يزورَ منزل استر، وأن يأتيَ للغداء كلّ أيّام الأحد، وأن يرافقها مع والدها في جولاتهما إلى المطحنة ومصنع البيرة، ومع الخالة وبناتها في حفلات كرنفال المدينة الراقصة، أو لتناوُل مشروب الشوكولاتة في المقهى الأكثر أناقة في المدينة، ذلك المطلّ على الطريق الرئيس، والذي

يُسمّى لتكوينه الزُجاجيِّ الخارجي "كريستال بالاس"، ويتردّد عليه السادة وحدهم. لكنْ، يجب على الاثنَيْن ألَّا يحاولا أبداً البقاء بمفردهما، بل ينبغي أن يكون معها شاهد يسمع ويرى، وكان باستطاعتهما، على النقيض، أن يكتب كلٌ منهما للآخر دون رقابة. وفيما يخصُ المهر، التزم السِّيِّد أرتونيزي بتوفير دَخْل سنوي باذخ لابنته، دون أن يتخلَّى لها عن مِلْكِيّة أيٍّ من أملاكه الثابتة. "سترث كلّ شيء عند وفاتي. إنه كما لو كان كلٌ شيء ملكاً لها" قال ذلك، وخجل الماركيز من الاعتراض. كانت الخطبة ستستمرُ عامَيْن، لتضع مشاعرهما المتبادلة محلّ الاختبار. بالتأكيد كان فَسْخها بعد إعلانها رَسميّاً، وبعد أن علمتْ بأمرها المدينة كلّها، سيصبح فضيحة، لكنْ، ما كان يهم السِّيِّد أرتونيزي هو سعادة الابنة أكثر من سُمعتها، ولم يكن يخشى رأي الناس.

بدأت الآنسة استر في إعداد جهازها. كان الخطيب يريد أن يطلب كلّ شيء جاهزاً بالفعل من باريس، كما تفعل آنسات عائلة بروفيرا، لكنها لم تكن تثق بالكتالوجات. ذَهَبَتْ لأجل الأثواب الأكثر أناقة إلى كلا مَشغلَي الخِياطَة في المدينة، كي لا تثير غَيْرة

أحدهما من الآخر. " نأمل أن تنتبه تانك الخَيّاطَتَان الكبيرتان المغرورتان إلى أن الفتاة لا تزال تنمو، وألَّا يصنعا الأثواب على مقاسها تماماً"، لاحظت جَدّتي مرتابة. لكنها كانت فخورة لأن الخطيبة توجّهت إلينا نحن بشأن المفروشات والثياب المنزلية.

خلال عامَي الانتظار تركْنا كلّ زبائننا الآخرين - وإن اتّضح فيما بعد أن هذا كان تهوُّراً كبيراً - وعملنا لأجل آل أرتونيزي فقط: في شُقَّتنا الصغيرة لأجل المناديل، والمُلَاءَات، والمفارش، والستائر، وفي غرفة الخِيَاطَة لديهم الكلّ ما عدا ذلك. أعدّت جَدّتي للعروس المستقبلية قمصان نوم، وصديريات، وقمصاناً داخلية، وثياباً نهارية، وأرديةً للكتف، كانت تبدو رائعة عليها، مؤطَّرة بجوبير سانت غالين الذي جاء خصِّيصاً من سويسرا. وأنا أيضاً، كنتُ أتعلَّم يوماً بعد يوم، كيف أُنفِّذ الطَّيّات الأكثر دقَّة، والعُرى الأكثر صِغراً، وكَشْكَشَة أنواع الكورنيش. وكالآنسة استر، كنتُ أكبر أنا أيضاً. في الواقع، كان بيننا أقلّ من ثلاثة أعوام فقط.

كانوا يدفعون لنا بانتظام وسخاء، كما كانوا يعاملوننا باحترام، وكنّا نوفِّر في معيشتنا: ليت عملاً كهذا دام عشرة أعوام أو أكثر! بعد بضعة أشهر، استجمعتُ شجاعتي، وسألتُ الآنسة استر إذا كان باستطاعتها أن تُعيرني بعضاً من رواياتها. لم تقبل بذلك فقط، بل شرعت تُخيّرني بكلِّ حماس بين القراءات. كان لديها اشتراك في مجلّة تُدعى كورديليا، وكانت كلّ أسبوع تعطيني العدد الذي انتهت من قراءته. من جانبها، كانت تتابع دروس الموسيقى واللغات والعلوم، ولكنْ، بحماس ومثابرة أقل ممّا مضى، لأن خطيبها نبّهها، بتسامح، أجل، إلى أنه يعتبرها أموراً غريبة، إن لم تكن نزوات طفولية.

لو أنني لم أكن أشعر بعينَي مُرهقَتَيْن تماماً عند عودتي إلى المنزل مساءً خلال ذينك العامَيْن، لكنتُ تعلّمت أشياءَ مفيدة أخرى كثيرة، بخلاف تلك التي كانت تظنُّها جَدّتي ضارّة. "ليس جيّداً أن تصمِّمي على رأيكِ، وأن ترغبي في أشياء لن يمكنكِ أبداً الحصول عليها" كانت تُكرِّر لي عندما تراني أتنهّد أمام إحدى الروايات. لكنني بالتأكيد تعلّمتُ شيئاً: أن الحُبّ شيء

جميل للغاية، وأنه لأجل الحُبِّ تهون أيّة تضحية، وأن الرجال العاطفيّيْن ليسوا سخفاء، كما كنتُ أعتقد، وأن الماركيز جويلفو ريتسالدو هو نموذج العاشقين، المستعدّ لبذل حياته لأجل حبيبته استر كما تفعل هي معه. كنتُ أحلم بأن أقابل أنا أيضاً رجلاً يحبُّني بعمق هكذا، شابّاً جميلاً ولطيفاً، وكانت الإطراءات الفظَّة التي أتلقّاها في الطريق من صِبْيَةِ المحالِّ تُشعرني بالإهانة، وتُكدِّرني. كنتُ أعرف أنه عاجلاً أو آجلاً سأضطرُّ للتواؤم مع اختيار واحد منهم، فلم أكن واهمة حَدَّ انتظار أمير الأحلام. لكنْ، على أيّة حال لم يكن الحُلْم يُكلِّفني شيئاً.

كان الوقت يمرُّ، وقامة الآنسة استر تكبر، فتهديني الثياب التي صارت قصيرة للغاية بالنسبة إليها، ولا تزال في حالة ممتازة. كانت جَدّتي تُسرِع في تجهيزها بضبط مقاساتها عليّ، ونزع كلّ الزخارف والحِلَى المُدلّاة والأزرار والجوبير وشرائط تثبيت الأزرار والسِّجَاف المزركشة على الحوافِّ. "لا يمكنكِ الخروج وأنتِ ترتدين كبنات السادة، ستضعين مَنْ أهداكِ الثياب في حرج، كما ستفعلين معي أنا أيضاً التي أسمح لكِ بهذا". ويظلُّ الواقع أنها كانت من أقمشة

جيّدة للغاية، تختلف تماماً عن تلك التي اعتدْنا نحن وأفراد طبقتنا ارتداءها. أمّا الأحذية، فلم يكن باستطاعة الآنسة استر للأسف أن تعطيها لي، لأنها كانت تتمتّع بقَدَمَيْن صغيرَتَيْن ورقيقَتين، أصغر من قَدَمَيّ. كنّا نضطرُ لتجديدها كلّ عام، لأن قَدَمَيّ أيضاً كانتا تنموان، وحتّى إذا اشترينا حذاءً من الزُقاق المجاور، كنّا سنتكبّد نفقات ليست بالقليلة. أمّا القُبّعات ومظلّات الشمس، فكانت الآنسة، بمجرّد أن تستخدمها بما يكفي، تهديها إلى بنات خالتها اللّاتي كنّ يكلِّفنَ صانعة القُبّعات بتحديثها. لم يَطُفْ بذهنها أن تعطيَها لي، فنساء طبقتي الاجتماعية لم يكن يرتدين القُبّعات، ولم تجرؤ على ذلك أكثرهنّ رفاهية وتباهياً. أمّا استخدام مظلّة الشمس، فكان سيبدو كإيماءة جرأة وتكبُّر، لا يمكن تصوُّرها. وحدهنّ السّيّدات كنّ يستخدمْنَها.

توقّفت الآنسة استر عن النُمُوِّ قبل أن تتمّ التاسعة عشرة بقليل، عندما كان وقت الخطبة يوشك على الانتهاء ويوم الزواج يقترب. لم تتوقّف هي والماركيز عن حُبِّ بعضهما قطُّ، لم يطالهما الفتور قطُّ، ولا في أَخَفِّ صوره، بل كان يبدو أن مشاعرهما تزداد قوّة

وعمقاً كلّ يوم. كانت رؤيتهما معاً وحدها توحي لي بأنني أحيا في إحدى الروايات. كان يبدو أن السّيّد أرتونيزي أيضاً قد اقتنع بأنه وَجَدَ الصهر الجدير بابنته، الذي سيعرف كيف يجعلها سعيدة، ويحميها عندما لن يكون هو موجوداً على قيد الحياة.

جرى الاحتفال بالزواج في أُبّهة عظيمة، كان العروسان مشرقَيْن، هي تبدو كأميرة إحدى قصص الجنِّيّات، وهو كممثِّل مسرحي. لم تجد خالات العروس، رغماً عن مشيئاتهنّ الحسنة، شيئاً ينتقدنَهُ. كنّ فقط حاقدات قليلاً، لأنهن لن يتمكَّنّ من الاحتفال بزفاف بناتهنّ بفخامة مماثلة.

ولأنها لم تكن قد أتمَّت عامها العشرين بعد، ومع ذلك يؤول إليها الآن لقب الماركيزة، بدأت العروس الجديدة تُنادى من الجميع بـ "الماركيزة الشّابّة ". كان من الصعب بالنسبة إليّ أن أدعوها بلقبها الأرستقراطي الجديد، فقد اعتدتُ التفكير فيها كـ" آنستي" المحبوبة. وسيغفر لي القارئ، إذا لم أستطع دائماً، في أثناء قَصِّ هذه الحكاية، تسمية بطلتها باللقب الذي يحقُّ لها، وسيفلت منِّي

بين الحين والآخر اسم " استر" مجرّداً، كما لو أن الأمر يتعلّق بصديقة لي. لكن هذا لا يعني أنني لم أكن، ولا أزال، واعية بالمسافة الاجتماعية الشاسعة التي تفصل بيننا، وماهية موقعي.

كانت جَدّتي قلقة قليلاً، لأنه بانتهاء جهاز آل أرتونيزي في الأسبوع الأخير قبل الزفاف تماماً، سيكون علينا البحث عن عمل جديد وزبائن جدد. لكننا كنّا قد وفّرنا بعضاً من المال. كنتُ أحلم أن باستطاعتي دَفْع مقدّم لشراء ماكينة خِياطَة لنا، لكن جَدّتي كانت تُصرُّ على الحفاظ على كلِّ مليم للأوقات العجاف. في الحقيقة، لم نكن قد وجدنا زبائن جدداً بعد.

لكن المسكينة لم يكن عليها القلق طويلاً. فلم تكن الماركيزة الشّابّة قد عادت من رحلة زفافها بعد، حين أحنت جَدّتي رأسها على صدرها ذات عصر، بينما كانت تطيل لي أحد أثوابي الشّتَوِيّة، وسَحَبَتْ نَفَساً طويلاً، وماتت. "أزمة مفاجِئة" هكذا شَخّص الطبيب الذي كان من المقرّر أن يعطيني تصريح الدّفْن.

"القلبُ مُنهَكٌ تماماً".

ذهب جزء كبير من ذخيرتنا القليلة في الجنازة والمدفن، لأنني لم أردْ أن أضع الجَدّة في جَبّانَة الفقراء كبقية أفراد الأسرة.

لقد صرتُ وحيدة فعلاً. لدي حِرْفَة، لكنني بدون أيِّ تعاقد عمل قريب في هذه اللحظة. لم يكن عليّ القلق بشأن المنزل، فقد قالت لي مالكة العقار، التي نزلت لتوديع الجثمان، وإن لم ترافقنا إلى المدفن، أنه يمكنني البقاء إذا استمررتُ في الاهتمام بأعمال النظافة بنَفْس التزام جَدّتي. لكنْ، ما خلا ذلك؟ عندما تنفد المدّخرات، ماذا سأفعل بشأن الطعام والصابون والشموع والجاز والفحم؟ لم أكن أستطيع طَلَبَ المساعدة من صديقات الطفولة، اللّاتي كنّ يعملنَ الآن عاملات غسيل، أو كَيّ، أو غسل أوانٍ في مطاعم وضيعة، كنّ جميعاً فقيرات للغاية، وينجحنَ بالكاد في إطعام أطفالهنّ بالعمل لخمس عشرة ساعة يومياً. أليس من الأفضل أن أدعَ كلّ طموح لي في الاستقلال – هكذا كانت الجارات يقترحنَ – وأن أبحث عن وظيفة خادمة بدوام كامل لدى إحدى

العائلات المحترمة؟ في السادسة عشرة والنصف، كنّ يقلنَ لي إنني لا أزال يافعة للغاية، كي أتحمّل الحياة وحدي. كنتُ أفكِّر في قصّة أوفيليا التي عرفتُها مؤخراً فحسب، وأفكِّر كم تعبت جَدّتي لتُعلِّمني حِرْفَة. بدا لي أنني سأخون رغبتها.

جاهدتُ لبضعة أشهر وأنا أتدبّر أمري بأشدِّ صنوف الاقتصاد صرامة. كنتُ أخرج كلّ يوم وأقوم بجولة على زبونات الماضي، لأسأل إذا كان لديهنّ عمل يمنحنني إيّاه. كنتُ أخجل من الإلحاح عندما يُجبنَ بالرفض، وبأنهنّ قد لجأن آنذاك إلى خيّاطَة متواضعة أخرى. كنتُ أخجل أيضاً من الذهاب إلى منزل آل أرتونيزي، وبالطبع إلى المنزل الجديد الذي انتقلتْ إليه الآنسة استر، لتعيش فيه مع زوجها. لأيِّ شيء سيحتاجونني بعد أن أعددْنا أنا وجَدّتي لكلِّ قطعة ثياب احتياطياً يتألّف من دزِّينات ودزِّينات تكفيهم لأعوام؟ ولتمام سوء الحظِّ كانت الصّحَفِيّة الأمريكية، تلك التي كانت تُدرِّس الإنجليزية للآنسة استر، والتي اعتنت جَدّتي بمفروشاتها في المدينة بين الحين والآخر، قد عادت إلى وطنها لزيارة شقيقتها لبضعة أشهر.

كنتُ أراقب كلّ يوم، في الدرج، حصيلة شقائي وهي تتناقص بشكل مستمرٍّ، بالرغم من أنني كنتُ قد رهنتُ بالفعل الثياب التي تلقَّيتُها من الآنسة استر، والمُلَاءَات القليلة التي كدّستْها جَدّتي عبر الأعوام لاستخدامنا أو لإعطائها لي ذات يوم كجهاز عرس، وقلادة تعميدها الذّهبيّة الصغيرة، وقرطَي المرجان المتدلِّيَيْن اللَّذَيْن تركتْهما لي إرثاً، لدى مؤسّسة جبل التقوى. كما بعتُ حتّى الكُتُب القليلة التي كنتُ أملكها، وصُحُف أرمينيا المصوّرة، وأعداد مجلّة كورديليا، وكتيّبات الأوبرا جيّدة الحالة لبائع الخردة. ربّما كانت القراءة ستعينني على تمضية الوقت، وخاصّة الآن حين لم تعد الخِيَاطَة تُرهِق عينَيّ، لكنْ، حتّى هذه القروش القليلة كانت ضرورية لي. لحسن الحظِّ، تمكّنت من الاحتفاظ بالغرفَتَيْن حيثُ أعيش، وإلّا لخاطرتُ بأن يُلقَى القبض عليّ بتهمة التّشرُّد في أثناء تجوالي المستمرِّ في الطُّرُق من منزل لآخر بحثاً عن عمل، وجولاتي في حقول الضاحية لجَنْيِ الشّمَنْدَر والحَسَك والهِنْدِبَاء والأعشاب الأخرى التي تُؤكَل.

telegram @t_pdf مكتبة

لكنني لم أردِ الاستسلام، وقد كُوفئ عنادي. فبعد أن قضيتُ بالضبط أسبوعاً لم أتناول فيه سوى معكرونة بدون توابل وهِنْدِبَاء برِّيّة، وكنتُ على وشك الاستسلام، جاءت مديرة منزل آل أرتونيزي تبحث عنِّي. " الماركيزة الشّابّة تودُّ التّحدُّث إليكِ"، قالت لي. " اذهبي فوراً إلى الفيلّا. أنتِ تعرفين العنوان، أليس كذلك؟"

ذُهلتُ. ما الذي قد تحتاجه الآنسة استر؟

بسذاجتي لم أفكِّر قطُّ أنه بخلاف العشرات والعشرات من القمصان الجميلة والأرواب والقمصان الدّاخليّة قد تحتاج العروس الشّابّة عاجلاً لنوع آخر من الجهاز. ولم يكن هذا لجهلي فقط بكيفية سَيْر أمور الحياة، لكنْ، طالما بدت لي قصّة حُبِّها شاعرية ومثالية وروحانية، لدرجة كانت نفسي تأبى معها التفكير في المظهر الجسدي "لتتويجها"، كما كان يُطلق عليه في روايات ديلِّي، وأنه قد توجد لذلك تبعات مادِّيّة. لم أتوقَّف قطُّ عند فكرة أنه حتّى الملكة قد أتت إلى العالم بأميرَتَيْن صغيرَتَيْن الواحدة تلو الأخرى،

وأمير صغير وريث للعرش. حتّى وإن كانت كلُّ المحالِّ تعرض في واجهاتها الصورة المكبّرة لملكتنا مع أبنائها الثلاثة، وهم يرتدون الجوبير والدانتيل، كنتُ أنشغل بقِطَع الجوبير وأغطية الرأس الصغيرة تلك أكثر من انشغالي بالطريقة التي جاء بها مَنْ يرتديها إلى العالم.

أعترف أنني كفتاة عاطفية غبية شعرتُ ببعض السوء لخبر أن الآنسة استر تنتظر طفلاً، وعلى النقيض كانت هي في غاية السعادة بذلك، واستقبلتْني مشرقة في قاعة الاستقبال في الفيلّا الجميلة والكبيرة، حيثُ تعيش مع زوجها.

"سينبغي عليكِ أن تخيطي لي أجمل جهاز طفل رأتْهُ عين"، قالت لي. "في التعميد سنستخدم حامل الطفل وثوب عائلة ريتسالدو القديم، فجويلفو يتمسّك بذلك كثيراً. لقد اصفرّ لون القماش قليلاً، سينبغي عليكِ مساعدتي في إعادته إلى اللون الأبيض مرّة أخرى. كان جويلفو يريد أن يطلب كلّ ما عدا ذلك فيما يخصُّ التطريز،

من الراهبات الكرمليات، تخيّلي؟ إنها إحدى تقاليد عائلته. لكنني قلتُ له إنني أُفضِّل الاستعانة بخَيّاطَتي التي أثق بها ...".

نظرتُ إليها متردِّدة. لم أفهم.

"... إنها أنتِ، أيّتُها الحمقاء الصغيرة!" علَّقت الآنسة استر ضاحكة، واحتضنَتْني. بالنظر إليها، كانت لا تزال تبدو رشيقة كعادتها، ولكنْ، عند ملامستها شعرتُ بأن بطنها يبرز قليلاً رغم وجود المِشَدِّ.

"هل أنتِ متفرِّغة؟" سألتْني. "سيكون هناك عمل كثير، وينبغي أن نبدأ على الفور. أنا أيضاً سأحتاج شيئاً فضفاضاً أكثر، مريحاً أكثر، ثياباً منزلية. هل يمكنكِ أن تبدئي من الغد؟"

لم أجد الشجاعة لأخبرَها أنني لا أعمل منذُ أربعة أشهر، وأنني أعاني العَوَز، وأن طَلَبها ينتشلني من حافَّة اليأس.

اتفقْنا أنني سأذهب للخِيَاطَة في منزلها. "هكذا ربّما تُعلِّمينني. أريد أن أفعل شيئاً ما أنا أيضاً، ما أدراني؟ قُبّعة رأس صغيرة أو زوج من القفّازات. سيسعد جويلفو بذلك كثيراً، فقد أصبتُهُ حتّى اليوم بخيبة أمل حقيقية في هذا الشأن".

كان الأمر يناسبني تماماً. أوّلاً لأنه توفير جيّد فيما يخصُّ الغداء. ثمّ لأنني سأنعم بالرفقة، وإن لم تكن رفقة ربّة المنزل التي غالباً ما تخرج في عربة الخيل لزياراتها ومشترياتها، فهي رفقة خادماتها. في الفيلّا كانت تطوف خادمات متنوِّعات، لم أنجح في حَصْر عددهنّ، كلُّهنّ يرتدينَ زِيّ العمل الجميل والمآزر المُنشّاة. وكان يوجد أيضاً بستاني، وصَبيٌّ يُعنَى بالعربة والخيل. لو أدّيتُ العمل في شُقَّتي الصغيرة، سأضطرُّ لفعل ذلك في وحدة وصمت تامٍّ. ليتني أستطيع الانطلاق في الغناء وأنا بمفردي! عندما كنّا نحيك في منزلنا، أنا وجَدّتي، كان الأمر مختلفاً تماماً: كنّا نتحدّث، هي تقصُّ وتشرح لي عن وقت كانت فيه شابّة، وأنا أُخبرها عن قراءاتي وهي تُتمتم. بين الحين والآخر كانت إحدى صديقاتها العجائز

تأتي لزيارتها حاملة معها ما تخيطه، لتسألها النصيحة، وتبقى لإتمامه عندنا. لكن ذلك الزمن ولَّى.

عرضت عليّ الآنسة استر أن أنتقل إلى الفيلّا لقضاء الليل أيضاً، فالمكان متّسع. لكنني لم أردْ ذلك عن قناعة. ليس لأنني كنتُ أخشى تصرُّفاً غير لائق من جانب الماركيز. كيف سيُمكنه ذلك في وجود زوجة محبوبة هكذا؟ لكنني كنتُ أحرص على أن يُنظَر إليّ كعاملة، حِرَفِيّة، وليس كخادمة. حتّى وإن كان الاحتفاظ بغرفَتَيّ الصغيرَتَيْن يكلِّفني ساعَتَي نظافة السُلَّم اليوميَّتَيْن، والنهوض قبل الفجر، إلّا أنني يمكنني دائماً أن أقول "منزلي".

كانت الماركيزة الشّابّة قد تعلَّمت التنظيم من مدرِّس العلوم القديم، وبفضل الأستاذة التُونسيّة، أحضرت من فرنسا مجلَّة تمتلئ بالتصميمات التي تُبيّن كلّ أنواع الثياب الضّروريّة للطفل، منذُ ولادته وحتّى عُمُر عامَيْن. بدأنا عندئذ في إعداد اثنَي عشر قميصاً صغيراً من المقاس الأوّل، صغيرِي الحجم بشكل لا يُصدّق. أقول "بدأْنا" لأنها كانت تساعدني في الأمور الأكثر بساطة، كما فعلتُ

أنا مع جَدّتي في عُمُر الخامسة أو السادسة، ونادراً ما كانت تبتعد عن غرفة الخِيَاطَة. كانت المجلَّة تقول إنه لا ينبغي استخدام قماش جديد، ولا حتّى قماش الباتيستا الأكثر رقَّة، ولا البركال "قشر البيض" لخِيَاطَة هذه القمصان الصغيرة. كان النسيج الوحيد الملائم هو كَتّان المُلَاءَات القديمة الذي غُسِل لأعوام حتّى اكتسب نعومة غير عادية. أمّا الخِيَاطَة، فيجب أن تتمّ بطريقة تجعل الغُرَز للخارج، وليس للداخل، لأنها قد تُهيّج جِلْد الوليد شديد الرِّقَّة. لا تطريز، لا أزرار، لا عُرى، فقط شرائط من الحرير الخفيف المثبتة بغُرَز واسعة، لا تُسبِّب أدنى تجعيدة.

كانت الآنسة استر تمتلك، بالطبع، ماكينة خِيَاطَة في المنزل الجديد أيضاً، لكنها مثلي، لم تكن تعرف كيف تستخدمها. من جانب آخر، كانت المجلَّة تقول إن الثياب التي سيتمُّ ارتداؤها خلال العام الأوّل، يجب أن تُخاطَ يدوياً.

بين الحين والآخر كان الماركيز يدخل إلى الغرفة، وكان يسعد برؤية الزوجة والإبرة في يدها. "أنتِ في طريقكِ كي تصبحي

زوجة صغيرة ممتازة"، كان يقول لها " وستصبحين أُمّاً صغيرة ممتازة". وإذا كان في مزاج يسمح بالمُزاح، كان يغنِّي لها: "الزوجة الصغيرة، شذى زهرة اللويزة". كانت تلك الكلمات تثير داخلي شعوراً بالانزعاج. كنتُ قد قرأتُ كتيّب مدام بترفلاي، طبعة هذا الموسم الجديدة، وأعرف أن الضابط الأمريكي بينكرتون، الذي يُغنِّي هذه الأُغنيّة، لم يتصرّف كزوج مثاليٍّ.

كان الماركيز سعيداً بحَمْل زوجته أكثر ممَّا كانت سعيدة هي نفسها، وقرّر أن الطفل سيُدعى أديمارو، كوالده، وكعميد آل ريتسالدو.

"وإذا جاءت طفلة؟" كانت تستفزُّه. لكنه لم يكن يكفّ عن الابتسام. "سندعوها ديانورا كوالدتي، وسنجتهد كي يأتيَ أديمارو أيضاً بعد تسعة أشهر. ثمّ أيموني، وفيليبّو، وأوتّيرو.. لن تفتقدي أعمال الخِيَاطَة في الأعوام المقبلة". كان يقول متوجِّهاً إليّ. "إن رغبتي الأكثر إلحاحاً هي تكوين أسرة كبيرة. رغبتنا، أليس كذلك، استر؟"

كان وجه الزوجة يحمرُّ خجلاً، خاصّة لكلمة "سنجتهد"، لكنها لم تكن تعترض على الأسماء كما كنتُ آمل. كنت أفكِّر بأن السَّيِّد أرتونيزي يستحقُّ، أيضاً، أن يرى امتداده في أحفاده. لكنْ، يبدو أن الآنسة استر لم تعد متعلِّقة بوالدها كما في الماضي. لم تعد ترى سوى زوجها.

كانت أسطورة حُبِّهما الكبير تستمرُّ دون شائبة، دون خلاف أو نقاش بسيط أو إيماءة معاناة. لم تكن لديّ خبرة كبيرة في الحياة بوجه عامٍّ، ولا أدنى خبرة بالحياة الزّوجيّة، لكنني دخلتُ مع جَدّتي الغرف الخاصّة لكثير من العائلات، ولم أجد قطُّ جوّاً من التوافق الشامل ومن العشق المتبادل كهذا.

عندما اشتكت الزوجة في نحو الشهر الخامس من متاعب صحِّيّة، وإن كانت طفيفة، فزع الماركيز، وقنط أكثر من الشاكية نفسها، واستدعى إلى مخدعها أكثر أطبّاء المدينة شهرة. كانت قابلة عجوز ساعدت في توليد كلِّ أطفال عائلات المدينة الكبيرة تتابع الآنسة استر منذُ بداية الحمل، لكنها لم تكن كافية بالنسبة إلى

الماركيز. وعلى عكس القابلة التي كانت ترى أن قليلاً من الحركة وجولات تمشية يومية قصيرة، بدلاً من ركوب العربة، سيفيد الحُبْلى، أقرّ الطبيب فراتّا أنه على السّيّدة الشّابّة أن تدخلَ إلى الفراش، وأن تمكثَ فيه حتّى لحظة الوَضْع. استجابت الآنسة استر رغماً عنها، وعندما كانت تبقى بمفردها، كانت تشعر بالضيق، لأنه كان أيضاً محظوراً عليها تماماً أن تُرهِقَ ذهنها في القراءة والكتابة. كان ظَهْرها يؤلمها، وتشعر بالحاجة لأن تتحرّك، وبالخَدَر في ساقَيْها، لكن الماركيز لم يكن يقبل بأبسط خرق لأوامر الطبيب، الذي لم يمنع عنها، لحسن الحظِّ، الخِيَاطَة أيضاً.

"إنه حمار! ربّما يكون ماهراً في علاج الالتهاب الرِّئويِّ، لكنه لا يفهم شيئاً في متاعب النساء"، كانت القابلة تتمتم بصوت لا يصل إلى أسماع الماركيز. لكننا لم نكن نعبأ بها نحن أيضاً. فقد كان معروفاً أن العلاقة بين الأطبّاء والقابلات لم تكن جيّدة قطُّ، وكنّا نظنُّ أنها حاقدة.

نقلْنا المعدّات والأقمشة كافَّة من غرفة الخِيَاطَة إلى غرفة النوم الزّوجيّة الكبيرة التي تقع في الطابق الأوّل، وواصلْنا عملنا هناك. "جيِّد أنكِ هنا لتُؤنسِيني"، كانت استر تقول لي. وعلى خلاف ما يحدث في منازل السادة الأخرى، وعندما كان الزوج يتناول غداءه بالخارج - وهو أمر غالباً ما كان يتكرّر - لم تكن هي ترسلني لتناول الطعام في المطبخ، وكانت تطلب منِّي أن أبقى معها. كان يبدو أنها قد قرأت ما في ذهني: لم تردْني أن أدعوَها بـ "الماركيزة الشّابّة" كما كانت الخادمات الأخريات والبستاني يفعلون. "معكِ أنتِ سأظل دائماً الآنسة استر مثلما كنّا صغاراً في منزل والدي".

كانت تعاملني بحميمية كبيرة. وفي بعض الأحيان، كنّا نمزح ونضحك. مثلما حَدَثَ عندما اكتشفنا أن أنبوب الموقد الجديد المصنوع من الحديد الزهر، والذي تمّ تركيبه حديثاً، يتّصل من خلال وَصْلَة غير معروفة مع المدخنة بمدفأة قاعة الاستقبال في الطابق الأوّل، وأنه حال فَتْح شُبّاك تجديد الهواء، يسمح بسماع كلِّ ما يتردّد في تلك الغرفة. في اللحظة التي علمْنا فيها أن

الخادمَتَيْن المكلَّفَتَيْن بأعمال النظافة قد أزالت إحداهما الرماد، ووَضَعَتِ الفحم في المدفأة، وسويت الأخرى وسائد الآرائك، بدأنا في الإنصات لمعرفة خباياهنّ. ذات مرّة سمعناهنّ يتغنّجنَ مع البستاني الذي دخل حاملاً الزهور النضرة لوَضْعها في المزهريّات. وفي مرّة أخرى، سمعْنا أن أصغرهنّ كان يغازلها صبيُّ العطار، وكانت تسأل زميلتها النُّصح حول كيفية التّصرُّف. أمّا أكبرهنّ، وهو ما لم نكن نتوقَّعه قطُّ، فعندما كانت تمكث بمفردها لإزالة الغبار بمنفضة الريش عن أُطُر اللوحات والتحف الصغيرة الكثيرة، كانت تغنِّي بصوت خافت أحدث الأغاني الرُّومانسيّة، وقد عزفت اللحن مرّتَيْن على أصابع البيانو. كان واضحاً أنها تعزف بإصبع واحد، متردِّد، لكن النغمات كانت هي بالضبط. كنتُ أنا، صِدْقاً، أشعر بقليل من الحَرَج في التّجسُّس على هاتَيْن الفتاتَيْن اللَّتَيْن تُعتبرَان زميلَتَيْن لي. وبدوري لن يروق لي أن يتنصّتَ أحدهم عليّ دون علمي.

لكنْ، من جانب، لم تكن ربّة المنزل تتصرّف بأيِّ خبث، بل كان هذا بالنسبة إليها هو أحد صنوف التسلية القليلة المتبقِّية أمامها،

ومن جانب آخر، كانت الخادمتان فتاتَيْن جادّتَين، مهذّبَتَيْن وموثوقاً فيهما، ولم يحدث قطُّ أن سمعناهما تصرِّحان بشيء غير لائق أو خاطئ لا يمكن تكراره أمام آخرين. وإذا تحدّثتا عن الآنسة استر وزوجها، كانا يفعلان هذا باحترام دائماً. كان يبدو أن الماركيزة الشّابّة تُلهمهما بغريزة حماية عطوفة. استحقَّت ذلك بمعاملتهما بدَوْرها بأفضل الطُّرُق، وكان يسعدها كثيراً أن يتأكَّد إحساسها بهذا خلال ذلك الإنصات السِّرِّيِّ. وهكذا سرعان ما تخلَّيتُ أنا أيضاً عن تحفُّظاتي. كما أن ذلك الشاغل سرعان ما فقد أيّ اهتمام لأنه، بخلاف الخادمَتَيْن، ولكون الماركيزة الشّابّة قد قبعت في الطابق الأوّل حيثُ تستقبل الزيارات القليلة، لم يعد يدخل إلى قاعة الاستقبال في الدّوْر الأرضي أحد.

كان الوقت يمرُّ، وجهاز الطفل يبلغ آنذاك حدّاً جيّداً، والآنسة استر تزداد امتلاءً، لكنها كانت تبدو لي، أكثر من كونها ممتلئة، متورِّمة ورماً غير صحّيٍّ. كانت القابلة تتمتم، والطبيب أيضاً يُبدي قليلاً من القلق. وعلى أيّة حال، لم يكن يسمح للماركيزة الشّابّة بتَرْك الفراش.

كان الموعد المقرّر للوَضْع يقترب. وكان السِّيِّد أرتونيزي يمرُّ كلّ يوم لزيارة الابنة، ويعود إلى المنزل بوجه متجهِّم. كنتُ قد قبلتُ المكوث للنوم في الفيلَّا، في غرفة الثياب المجاورة لغرفة نوم الماركيزة الشّابّة. أمّا الزوج، فقد انتقل إلى إحدى غرف الضيوف، وإن كان يجلس نهاراً طَوَالَ الوقت إلى جوار زوجته، وهو يمسك بيدها، ويزيح الشّعْر عن جبهتها، ويقبّلها بحرص شديد، ويقرأ لها الصحيفة. كان لا يفتأ يكرِّر لها أنه نافد الصبر حيال رؤية ثمرة حُبِّهما أخيراً بين يَدَيْه. وكان يشكرها لهذه الهِبَة العظيمة. "حياتي، لا يمكنكِ أن تتخيّلي"، كان يقول لها "كم أنا معجب بشجاعتكِ وصبركِ وقوّة روحكِ. ماذا كنتُ لأفعل بدونكِ، يا قلبي؟ حياتي تكتسب معنى فقط في وجودكِ".

كانت الزوجة، عند سماعها هذه الكلمات، تُشرق من البهجة، وتنسى كلّ ألم جسدي وكلّ خوف من التجربة الوشيكة، التي كانت تشعر صوبها، كما هو منطقي، ببعض الجزَع.

وأنا، أعترف بهذا، كنتُ أخشى على كلَيْهما. سمعتُ قصص وَضْع غير موفَّق كثيرة، وكانت تعود الآن إلى ذهني جميعها. إذا أصاب الآنسة استر سوء، فأنا على يقين أن الماركيز لن ينجوَ من هذا. سيُطلق على نفسه النار أو يُلقي بنفسه من أعلى إحدى الصخور. وسيكبر أديمارو الصغير يتيم الوالدَيْن. أو ربّما سيموت هو أيضاً من تعقيدات عملية الوَضْع. هكذا أفضل، أيّتُها النّفْس الصغيرة التعسة. كنتُ أتخيّل الثلاثة جميعهم في ذات المقبرة، يجمعهم عناق واحد.

عندما أُصرِّح بهذه الأفكار للقابلة التي تمرُّ يومياً هي أيضاً، تضحك حيناً، وتغضب حيناً. "لا تكوني نذير شُؤم"، كانت تقول لي "الماركيزة الشّابّة في حال جيِّدة، وليس بها عطب. ستُعاني قليلاً، وهذا منطقي. لكنها ستنسى الآلام فور أن تضمّ الطفل بين ذراعَيْها". كانت قد شرحت لي الأعراض التي ينبغي عليّ استدعاؤها فور رؤيتها. وكان الطبيب على النقيض قد قلَّل من زياراته، لأنه ينبغي عليه أن يظلّ إلى جوار أحد المرضى المهمِّين

– أكثر أهمِّيّة من الماركيز – حيثُ كان يُنتظَر بين لحظة وأخرى تحوُّل يُودي بحياته أو ينتشله من الخطر.

"عادة ما يكون مخاض الولادة الأولى طويلاً" قال الطبيب للأب المستقبلي ليُهدِّئ من روعه. " في البداية، ستكفي القابلة. لديها خبرة كبيرة. ستعرف هي اللحظة المناسبة لإرسال العربة لإحضاري".

وأخيراً بدأت الآلام. ذات يوم خميس في فبراير قبل الفجر بقليل. أرسلتُ صبيّ الحظيرة، وبعد أقلّ من نصف الساعة كانت القابلة تقف إلى جانب السّيّدة التي تلد. "يجب أن تتحلَّيا بالصبر"، قالت للآنسة استر والزوج الذي هُرع من غرفة الضيوف في لباس النوم، وبشعر مشعث. "أعتقد أن هذا الشّابّ، يا آنستي، لن يشرِّفنا بحضوره قبل الليلة القادمة، هذا إذا ما تعجّل، لأنه قد يتأخّر إلى ما بعد ذلك. تشجّعي، أيّتُها الماركيزة الشّابّة. لتفكِّري في تمشية صباح الأحد، في إحدى حفلات الكرنفال الراقصة والمسرح يكتظُّ

بالناس، فكِّري في حشد من البشر. فكِّري أننا كلّنا قد وُلدْنا بالطريقة ذاتها".

كانت الآنسة استر تتألَّم كثيراً، لكن المخاض لم يشِ بقرب انتهائه. وبين كلِّ سلسلة من الآلام وأخرى كانت القابلة تدعوها للنوم، لتستعيد قواها. أُقصي الماركيز عن الغرفة، لأنه بلوعته وذهابه وإيابه حول الفراش كان عاملاً مؤرِّقاً فقط. جاء وقت الغداء، ثمّ العشاء. وفي كلِّ مرّة كانت القابلة تنزل بهدوء، لتأكل في المطبخ قائلة لي إنه عليّ البقاء هادئة، وإنه لن يحدث شيء في غيابها، وإذا لم أكن أريد النزول أنا أيضاً، فستحضر لي شيئاً معها. كانت معدتي مُوصَدَة.

لم أستطع إقناع نفسي كيف كانت الآنسة استر، في فترات السكون بين سلسلة من آلام المخاض وأخرى، تجد القوّة للحديث، وحتّى للضحك. طَلَبَتْ منِّي أن أفتح الخزانة، وأن أُريَها القمصان والجوارب الصغيرة، من المقاس الأوّل. "لقد أخطأنا بصُنعها صغيرة هكذا"، قالت. "يُهيّأ لي أن عملاقاً يشقُّ طريقه بين أحشائي دون

أن يجد مخرجاً". كانت تتنفَّس بصعوبة وتئنُ وتعضُ بأسنانها على المُلَاءَة تارةً، وتنام تارةً أخرى. كانت تستيقظ وهي تصرخ، تشدُ على يد القابلة، ثمّ تعتذر، لأنها أصابتْنا بالقلق. كانت تسأل عن زوجها. وتوصي "لا تقولوا له إنني أتألَّم هكذا". وكان هو يطرق الباب بين الحين والآخر، فإذا صادف لحظة هدوء، كانت القابلة تسمح له بالدخول، وفيما عدا ذلك، كانت تزجره: "إلى الخارج! ليست هذه الأمور للرجال".

جاء السّيّد أرتونيزي للاطمئنان، قبّل بلُطف جبين الابنة المبلَّل بالعَرَق، والتي كانت تستريح في تلك اللحظة، ثمّ عاد إلى المنزل. حلّ الليل، وانقضى. وكحال السّيّدة التي تضع، كنتُ أنا والقابلة في لحظات الهدوء نحظى بفترة نوم قصيرة، لكنْ، ونحن جالستان على الأريكة ودون أن نتمدّد أبداً. رأيْنا الشمس تشرق من النافذة. بين الحين والآخر كانت القابلة ترفع المُلَاءَة، وتنظر: "تشجّعي، أيّتُها الماركيزة الشّابّة، قليل من الصبر بعد". في الثامنة طَرَقَ الزوجُ البابَ، ومدّ رأسه: "لا شيء بعد؟" كانت الآنسة استر تصرخ في هذه اللحظة، ولم تسمعه. انسحب بسرعة.

في منتصف النهار، سمعتُ صَخَبَ عجلات عربة الخيل على حصى الحديقة. كانت لحظة سلام لا تُصدّق. كانت الماركيزة الشّابّة تنام، وذَهبَتِ القابلة إلى غرفة خَلْع الثياب لتغسلَ وجهها من إناء الغسيل، وتُهندم شَعْرها. اقتربتُ من النافذة ورأيت الطبيب فراتّا يترجّل من العربة مع حقيبته الصغيرة والماركيز يستقبله. هل استدعاه دون أن يُخبرَنا بشيء، وقد أفزعتْهُ الصرخات، أم جاء الطبيب دون استدعاء؟ رأيتُهُما يدخلان غرفة الاستقبال، وقد دَلَفَا عبر مدخل الحديقة.

لا أعرف كيف جاءتْني تلك الفكرة، أيُّ ملاك حارس أو جِنٌّ خبيث أوحى لي بها. ذَهَبْتُ إلى الفراش مهرولةً، بلّلتُ مِفْرَش طاولة صغيراً في دَوْرقِ المياه، ومرّرتُهُ ببُطء على جبهة الآنسة استر التي استيقظَت بهدوء. "ششش!" همستُ لها وأنا أضع إصبعي على شَفَتَيّ. " لِنُنْصِتْ". اقتربتُ من الموقد على أطراف أصابعي، وفتحتُ الشُّبّاك. ارتفع الصوتان الرّجّاليّان بوضوح في الغرفة، قويّيْن حتّى إن القابلة هُرعت من غرفة خَلْع الثياب، ونظرت حولها مذهولة لعدم رؤية أيِّ غرباء. أشرتُ إليها هي أيضاً على الموقد،

وأومأتُ لها أن تصمت. كان الطبيب يقول: "بناءً على ما أسمع، فالموقف حَرِجٌ، ويجب التّدخُّل. لا يوجد وقت نُضيّعه".

في الغرفة في الطابق العلوي، كانت القابلة ترسم على وجهها علامة احتقار. كانت قد أخبرتْني منذُ دقائق قليلة: " سأذهب لأغسلَ وجهي بينما الماركيزة الشّابّة نائمة. لا توجد عجلة. الطفل على الطريق الصحيح، وفي الوَضْع الصحيح، لكنْ، ربّما يستغرق ساعة أو ساعَتَيْن أيضاً. ابقي هادئة، كلُ شيء على ما يرام".

عن أيِّ موقف حَرِجٍ يتحدّث الطبيب الذي وَصَلَ لتوِّه، ولم يرَ شيئاً؟ "بناءً على ما أسمعه". ماذا سمع؟ وممَّنْ؟

"لتصعدْ، إذنْ!" كان الماركيز يدعوه متعجِّلاً. "زوجتي ..."

"بالضبط، زوجةُ سيادتكِ"، قاطعه الطبيب متأنِّياً. " لتغفر لي سيادتكَ، لكنني مضطرٌ لأن أطلبَ منكَ شيئاً".

"هلُمّ بنا! لتسألني إيّاه على السُلَّم أو في الغرفة. لنذهب!"

"لا، أيُها الماركيز. ينبغي أن نتحدّث بمفردنا، أنا وأنتَ، وألّا يسمعنا أحد، وخاصّة زوجتكَ".

عند هذا الحَدِّ اعتدلت استر في الفراش، وأصغت السّمْع.

"صمتاً!" أمرتُها بعينَيّ.

"أنا أسمعكَ"، قال الماركيز للطبيب وهو يضجُّ بنفاد صبره.

"يمكن، أقول، يمكن، وينبغي أن نكون مستعدّيْن، أن يصل الموقف إلى الحَدِّ الذي لا يمكن معه إنقاذهما معاً".

استجوبت استر منزعجة، بنظراتها، القابلةَ التي طمأنَتْها في صمت هي أيضاً بالإشارات وحركات الشِّفاه: "ليس صحيحاً. ذلك الرجل مجنون. كلُّ شيء على ما يرام. اهدئي".

سمعْنا أنين الماركيز المختنق.

"ينبغي الاختيار"، تابع الطبيب. "وسيادتكَ وحدكَ يمكنكَ ذلك. أنا سأحترم قراركَ. هل تريد لزوجتكَ أن تعيش أم للطفل؟"

"أنا يجب أن أقرِّر؟ أنا؟" كانت نبرته متشكِّكة.

"ومَنْ إذنْ، إن لم يكن كذلك؟"

تلا ذلك صمت طويل.

سَقَطَتْ استر مبتسمة على الوسائد. لم يكن لديها أدنى شكٍّ حول كيف سيكون ردُّ الماركيز. حياتي، قلبي، لا يمكنني العيش بدونكِ. كان يمكنني قراءة تلك الكلمات على وجهها.

وعلى النقيض لَوَتِ القابلةُ شَفَتَيْها.

في الأسفل، كان الطبيب يتعجّل: "أيُّها الماركيز، لن أقتربَ من فراش زوجتكَ قبل أن تُخبرني ماذا يجب أن أفعل، أُكرّرِ لكَ، الأُمُّ أم الطفل؟"

"كم من الوقت تمنحني لأفكّرِ في الأمر؟" هكذا جاء الجواب الممتلئ بالأسى. في الأعلى، في الغرفة شحبت الابتسامة على شفاه الماركيزة الشّابّة قليلاً، لكنْ، سرعان ما أشرقت من جديد.

"ثلاث دقائق، ليس أكثر"، قال الطبيب.

"أستميحكَ عذراً، لكنْ، يجب أن أعرف شيئاً. هل يمكن لزوجتي أن تُنجِب مرّة أخرى؟"

"أخشى أنها لن تفعل. سأضطرُ لأن أقطعَ في أكثر من مَوضعٍ، لأُخرِجَ الجنين. هذه الولادات الدّمويّة تُدمِّر كلّ أعضاء الجهاز التّناسليِّ".

صمت. لا يمكنني أن أصف كيف مرّتْ تلك الدقائق الثلاث. كنتُ أفكِّر في حقيبة الطبيب الصغيرة، في أدواته المعدنية، كنتُ مرتعبة. كنتُ أسمع بالفعل خطواته القاتلة تصعد السُّلَّم. تحرّكت القابلة إلى ما وراء كتفَي الماركيزة الشّابّة، أمسكتْها من تحت إبطَيْها، وهمست لها على عنقها:

"ادفعي! لا يوجد وقت نُضيّعه. إذا جاء الطبيب يجب أن أُطيعه".

لكن استر كانت تنتظر مطمئنّة وواثقة. حياتي، قلبي، كيف يمكنني أن أعيش بدونكِ؟

في النهاية سمعْنا سعالاً، وبدا صوت الماركيز متردِّداً: "إذا كان الطفل ذَكَراً، سأحظى بوريث لي. وإذا كانت أُنثى سيمكنني دائماً كأرمل أن أتزوّج مجدّداً، وأحظى بأبناء آخرين".

"إذنْ؟"

"أمّا إذا اخترتُ زوجتي، فسأتخلّى عن الحصول على وَرَثَة، إذا كان ذلك الذي لا ينجح اليوم في الخروج ذَكَراً، وللأبد لأنها لن يمكنها أن تمنحني غيره ..."

"لا تُسوِّف طويلاً، أيُّها الماركيز. أنا أحتاج ردّاً حاسماً: مَنْ ينبغي أن أنقذ، الأُمّ أم الطفل؟"

"الطفل"، أجاب الماركيز.

"جيّد، سأصعد إذنْ"، قال الطبيب. "أَلَا تريد أن تأتي معي لتُقبِّلَ زوجتكَ؟ ربّما تكون آخر مرّة".

"لا أمتلك الشجاعة. سأخرج. سأقوم بجولة على ظَهْر الحصان. سأعود هذا المساء عندما يكون كلُّ شيء قد انتهى".

مكتبة telegram @t_pdf

سمعتُ ضوضاء باب المدخل وخطواته التي تخرج متّجهة إلى الحظيرة، ثمّ خطوات الطبيب الذي يرفع حقيبة أدواته، ويتّجه نحو السُّلَّم.

أطلقتْ استر صرخة، لكنْ، في قاعة الاستقبال في الأسفل لم يكن هناك أحد يمكنه سماعها.

أغلقتُ شُبّاك الموقد، مُوصِدةً إيّاه بغضب، ونظرتُ حولي بحثاً عن شيء ثقيل، أُصيب به الطبيب بمجرّد أن يعبر عتبة الباب. هُرعت القابلة، الأكثر عملية منِّي، إلى الباب، وجذبت المزلاج، ثمّ عادت بالقرب من الفراش. لم تصرخ الآنسة استر بسبب الخوف من الطبيب، أو بسبب الإحباط من جرّاء الخيانة، كما ظننتُ، لكنْ، لأن موجة عنيفة ومفاجئة من الألم أصابت الكِلَى والبطن كضربة سوط.

"تنفَّسي بعُمق! ادفعي!" كانت القابلة تحثُّها.

دار مقبض الباب. أمسكتُ أنا بمصباح من المَرمَر على هيئة زنبق، وتستند ساقه على قاعدة ثقيلة مربّعة من الرخام الأسود كان موجوداً على الكومود. كان الطبيب بالخارج يحرّكِ المقبض. "ماذا يحدث؟ دعوني أدخل!" بدأ خشب الباب الهشُّ في التّحطُّم.

"قبل أن يقتربَ من آنستي، ويضعَ يده عليها، سأقتلُهُ"، كنتُ أفكِّر.

"تشجّعي! ادفعي، أيّتها الماركيزة الشّابّة!" كانت القابلة تردِّد.

"افتحوا! دعوني أدخل"، كان الطبيب يصيح وهو يهزُّ الباب. استسلم المزلاج. ورفعت أنا المصباح عالياً. دخل هو مُمسِكاً بحقيبة الأدوات. "هل جُنِنْتُما؟ ابتعدي، أيّتُها الطفلة! اتركيني أمرّ".

أغلقتُ الطريق أمامه متأهِّبة لضربه بالقاعدة الرُخاميّة على رأسه.

أعتقد أنني كنتُ سأحمل اليوم في ضميري وِزْرَ قتيل، لو لم ترتفع في الغرفة في تلك اللحظة صيحة القابلة المبتهجة: "ممتازة! ها هو!"، ثمّ صراخ الوليد بعدها على الفور.

خفضتُ المصباح. توقّف الطبيب مرتبِكاً.

"ذَكَر أم أنثى؟" سأل صوت الوالدة الشّابّة المنهَك.

"إنها طفلة".

"لا وريثَ لعائلة الماركيز ريتسالدو. لا اليوم ولا أيّ وقت آخر"، قالت استر، وبالرغم من وَهنها استولت عليها نوبة ضحكٍ هيستيري. أُغشي عليها وهي تضحك.

بعد ذلك على الفور، سادت الفوضى في الغرفة. قطعتِ القابلةُ الحبلّ السِّرّيّ الخاصّ بالطفلة، ولفَّتْها وهي متّسخة تماماً في قطعة قماش، وأعطتْها لي لأحملَها، بينما هي تحاول إعادة الوعي إلى

الوالدة في عجل، كي تساعدها في آخر مراحل إخراج المَشِيْمَة. وَضَعَ الطبيب حقيبته على الأرض، وانحنى، لكنْ، قبل أن يتمكَّن من فَتْحها، أطحتُ بها بعيداً بركلةٍ من قَدَمِي، وأنا أحمل الوليدة بين يَدَيّ. " لا تتجرّأ!" صرختُ. في تلك اللحظة فُتِحَ الباب، ودخل السّيّد أرتونيزي تسبقه إحدى الخادمات. وضعتُ الحفيدة الصغيرة بين ذراعَيْه، وهُرعتُ نحو الفراش. كانت الآنسة استر تستعيد وعيها بفعل هزّات ولطمات القابلة. تعرّفت والدها. "بابا!" صرختْ: "إذا عاد جويلفو، لا تدعْهُ يدخل".

"لكنْ ... ماذا؟"

"الماركيزة الشّابّة تهذي"، قال الطبيب.

"لنرى تلك المَشِيْمَة"، كانت القابلة تُتمتم في تلك الأثناء غير عابئة بالفوضى من حولها.

"جيّد. إنها على ما يرام. وأنتِ"، ملتفتة إلى الخادمة " ماذا تنتظرين هنا في ذهول؟ انزلي فوراً، واحضري لي مزيداً من الماء الساخن".

"لا تدعوه يدخل"، كرّرت استر. "زوجي. لا أريد أن أراه. لا أريد أن أراه بعد ذلك أبداً".

وصدقت كلماتها. بينما كنّا نحن النساء ننشغل بتحميم الوليدة وإلباسها، تحدّث السّيّد أرتونيزي بصوت خافت مع الابنة. "متى ستكون قادرة على تَرْك الفراش؟" سأل القابلة بعد ذلك متجاهِلاً الطبيب بصَلَفٍ. "أريد أن أحملها معي إلى المنزل".

"تريدون قَتْلَها!" صاح الطبيب.

"بما أن سيادتكَ لم تصل في الوقت المناسب لذلك"، علَّقت الماركيزة الشّابّة. لم أظنّ أنها قادرة على التّهكُّم وهي غارقة في العَرَق ومشوّشة هكذا، وقد أَنهكَها التعب.

"من الأفضل ألَّا تنهض لبضعة أيّام"، قالت القابلة.

"لن نجعلَها تنهض"، قال الوالد.

خلال نصف الساعة رتّب أمر النّقْل. أرسل الصّبيّ ليستدعيَ اثنَيْن من الرجال الأشدّاء من مصنع البيرة، كي يأتوا مع عربة نَقْل المصنع الكبيرة، التي يجرُّها حصانان. وفي تلك الأثناء، صرف الطبيبَ بكلمات حاسمة، وشيك. نُقِلَت الآنسة استر بحِرْص إلى إحدى الآرائك التي رَفَعَها العاملان الوافدان دون جهد يُذكَر، وحملاها إلى الأسفل عبر السُّلَّم، ووضعاها على عربة النّقْل. صَعِدْنا نحن أيضاً على متن العربة، القابلة والوليدة بين ذراعَيْها، والسّيّد أرتونيزي الذي لم يترك يدَ الابنة، وأخيراً أنا، حاملة السّلَّة المبطَّنة بالحرير والمزيّنة بالجوبير والشرائط، والتي تحتوي على جهاز الوليدة. قد تجد استر في بيت والدها ثيابها وخزانة ملابسها وهي فتاة، لكن الطفلة كانت تحتاج كلّ شيء، وسيكون إهداراً حقيقياً – كنت أفكِر – أن نترك في الفيلّا حصيلة عملنا لسبعة أشهر.

كنّا قد وَصَلْنا منذُ بضع ساعات، والماركيزة الشّابّة تنام في الفراش الكبير الذي كان يخصُّ والدتها، وفي الغرفة الصغيرة المجاورة تُغيّر القابلة حفَّاضة الوليدة، وأنا أتأهّب للعودة إلى شُقَّتي الصغيرة، عندما سمعْنا طَرْقاً شديداً على البوّابة التي تطلُّ على الطريق. تلصّصْنا من النافذة. كان الماركيز كما كان متوقَّعاً. وقد أخبرني فيما بعد صبيٌّ الحظيرة عن دهشته وارتيابه عندما عاد إلى الفيلّا، ووجد غرفة النوم خاوية. بالكاد كان يمكنه استيعاب ما حَدَثَ، أمّا السبب وراءه، فلم يفهمه قطُّ. رفضت استر دائماً مقابلته والتّحدُّث إليه وشَرْح سبب هروبها. حتّى السّيّد أرتونيزي لم يرد استقباله. أرسل له محاميه، ثعلب شديد المكر، استطاع ردّ كلِّ دعاوى الزوج المهجور، وتحويلها ضدّه. لا أعرف كيف فَعَلَهَا. لم يكن ذلك هو العصر الذي يمكن لزوجة أن تترك فيه منزل الزّوجيّة دون تبعات، ولا أن تحتفظ لنفسها بثمرة الزواج الشّرعيّة. لكن استر أرتونيزي، بفضل دَعْم ومال والدها، نجحت في ذلك. ربّما لو كانت قد أنجبت ذَكَراً بدلاً من الطفلة، لما كان الزوج سيستسلم لتَركه، وكان سيقاتل لمدّة أطول، وبإصرار أكبر.

أشدُّ ما كان يعذب الماركيز، أكثر من كبريائه الجريح، كان جهله بالسبب الذي تحوّل لأجله حُبُّ زوجته الشّابّة العظيم إلى كراهية عميقة هكذا. كان الافتراض الوحيد الذي يمكنه التفكير فيه هو أنها قد جُنّت بسبب آلام المخاض.

الوحيدتان اللتان كانتا تعرفان الحقيقة، بخلاف صاحبة الشأن وربّما والدها، كنّا القابلة وأنا، لكنْ، لم تفتح أي منّا فمهما في هذا الخصوص. كانت القابلة سيّدة مسنّة، ورأت الكثير من هذه الأمور، لكنْ، بالنسبة إليّ كان الإحباط عنيفاً. أن أكتشف، وبتلك الطريقة، أن الحُبّ الكبير كان مجرّد خداع، وأن مكانه الروايات وحدها، وأن الرجال جميعهم خائنون أنانيون مثل بينكرتون، فهذا قد دمّر كلّ وَهْم داعبتْهُ من قبل. لا يمكن للمرء الوثوق بأحد. حياتي، قلبي، بدونكِ أستطيع أن أعيش جيّداً جدّاً، بل في حال أفضل.

كانت الآنسة استر، على النقيض، هي مَنْ بدأت حياة جديدة. لم تترك الماركيز يرى الطفلة قطُّ، وأطلقت عليها اسم إنريكا تيمُّناً بالسّيّد أرتونيزي، وليس ديانورا كوالدة الأب. سافرت طويلاً برفقة

إنريكا الصغيرة، بعيداً عن شائعات مدينتنا، وتعرّفتْ على كثير من الناس الذين لم أنجح حتّى في تخيُلهم. كانت في بروكسل عندما حَدَثَتْ في مدينتنا فضيحة ثياب منزل بروفيرا الباريسية. وعندما عادت، قالت إن الناس أغبياء حقّاً لإعطاء أهمِّيّة كبرى لمثل تلك الحماقات.

لا سوبريما إيليجانزا(□)

لقد كان لي أنا أيضاً في الوقائع التي أثارت فضيحة " الثياب الباريسية" جزء ليس باليسير. حَدَثَ هذا بالمصادفة البحتة أو لذنب الملكة إلينا، أو بسببها إن شئتُم، بسبب زيارتها إلى مدينتنا ممثِّلة عن زوجها. في الحقيقة، قبل ذلك الحين، لم أكن قد عملت قطُّ في خدمة آل بروفيرا. لم تعمل أيُ خَيّاطَة متواضعة أخرى لدى آل بروفيرا. وكذا لم يفعل محلّا الخِياطَة الكبيران بمشغلَيْهما والعاملين فيهما. كانت ثياب الوالدة والابنَتَيْن، كما هو معروف وذائع، تُطلَب في كلِّ موسم من متاجر برينتمبس الفاخرة في باريس، مثيرةً حَسَدَ السّيّدات الأخريات الكبير. أمّا فيما يخصُّ الثياب والمفروشات المنزلية، فيبدو أن إحدى أقارب المحامي

الفقيرات، الآنسة جيمّا، والتي كانت تشتهر بمهارتها الكبيرة في التّوْشِيَة والرّتْق وتستضيفها العائلة على سبيل الإحسان، كانت تهتمُ بها.

لذا عندما أخبرتْني صاحبة محلِّ الخردوات أن السّيِّدة تيريزا بروفيرا قد مرّت بنفسها لتسألها عن اسم خَيّاطَة متواضعة ماهرة، لديها خبرة، وغير متطلِّبة مادِيّاً، أصابتْني الدهشة. كنتُ قد اكتسبتُ بعض الشهرة بين العائلات الأكثر تواضعاً، لأن الماركيزة الشّابّة استر، عند عودتها من أولى رحلاتها إلى الخارج، وكإيماءة امتنان لي، جاءتْني بهدية رائعة: ماكينة خِيَاطَة ألمانية محمولة، ذات مقبض يدوي، بدون مِدْوَس، وبدون خزانة خشبية، ولها حقيبة صغيرة ذات يد، سوداء برّاقة، ذات زخارف ورسوم مذهّبة شديدة الجمال. لم يكن من السهل استخدامها، لأنه كان يجب إدارة المقبض باليد اليمنى، وهكذا تتبقّى يد واحدة، هي اليسرى، لتحريك القماش أسفل الإبرة. لكنْ، بفضل تدرُّبي على المُلَاءَات القديمة، انتهى بي الأمر إلى التّعلُّم، كان المهمُ هو عدم تشغيلها بسرعة زائدة. كانت ربّات الأُسر البرجوازية الصغيرة وصاحبات

المحالِّ الميسورات يطلبنَني آنذاك بين الحين والآخر، لأفصِّل لهنّ، ليس المفروشات والثياب المنزلية وحدها، بل الثياب البسيطة لهنّ ولأولادهنّ أيضاً. كنّ يأتينني بالأقمشة، وقد اخترنَها من بين أكثر الأنواع توفيراً، لأنهنّ لم يكنّ يستطعنَ شراء غيرها حيناً، ولم يكن يأمنّ لوَضْع قماش غالٍ بين يَدَيّ حيناً آخر. لربما أفسدتُهُ؟ لكنني، في المجمل، كنتُ قد صرتُ ماهرة كجَدّتي المسكينة تقريباً، وأجني ما يكفيني للعيش، ويسمح لي أيضاً ببعض الرفاهية البسيطة، كاشتراك المكتبة المتنقِّلة التي تُعيرني الروايات التي تُعجبني كثيراً، والمجلّات التي تحيطني علماً بما يحدث في العالم. كانت الرغبة في معرفة ما يحدث ليس في مدينتنا فحسب، ولكنْ، في البلد كلِّها، وفي الخارج أيضاً، قد نَمَتْ داخلي مع أولى رحلات " آنستي"، الماركيزة الشّابّة استر، كانوا في المدينة لا يزالون يدعونها هكذا رغم انفصالها. كنتُ أريد أن أتبعها بفكري على الأقلِّ، وأريد أن أتمكّن من الإنصات إلى قصصها، عندما تعود، دون أن أُصاب بالذهول كأكثر الفتيات جهلاً. كنتُ أستعير بين الحين والآخر إحدى مجلّات الموضة. كان بعض منها يقدِّم إضافة إلى الصور، خطواتٍ خِيَاطَة موجَزة على شكل حلقات

مسلسلة. كنتُ أقرأ تلك الصفحات بنَهَمٍ مُحاوِلة أن أكتشف شيئاً لا أعرفه بالفعل، لكنها كانت موجّهة لسيّدات الطبقة البرجوازية اللّاتي يخطنَ في أوقات فراغهنّ، وكان الشرح بسيطاً وبديهياً، ولم أتعلّم منه أيّ شيء جديد. كنتُ قد نجحتُ في استعادة قلادة جَدّتي الصغيرة وقرط المرجان المتدلِّي من جبل التقوى. وكان لديّ أيضاً علبة لبن معدنية، أضع فيها كلّ أسبوع العملات القليلة التي أنجح في ادِّخارها، لأمنح لنفسي مرّة أو مرّتَيْن خلال الموسم الغنائي مكاناً في إحدى المقصورات العلوية. وكي لا أستجيب لإغواء استخدام ذلك المال عندما أحتاج لشراء شيء من استهلاكي اليومي، كالإبر أو المعكرونة أو قليل من الفحم، كنتُ أحتفظ بالعلبة في غرفة النوم، مخبّأة خلف تمثال صغير للسّيّدة العذراء مصنوع من الجبس، كان يخصّ جَدّتي، في أحد تجاويف الجدار الذي كانت تستخدمه هي كمذبح. وضعتُهُ هناك في أعلى، حيثُ يتوجّب عليّ الصعود فوق مقعد حتّى أصل إليه. وكنتُ، على النقيض، أحتفظ في الدرج الأوّل من خزانة الأدراج بتلك المدّخرات القليلة الخاصّة بالمشتريات المعتادة والطارئة، وهي مبلغ متواضع، يزيد وينقص وَفْقَاً لما لديّ من عمل كثير أو قليل،

وقد سَمَحَ لي حتّى الآن، ودون أن أحمل همّاً، بمواجهة الفترات الوجيزة التي لم تكن فيها أيُ سيّدة أو أسرة تحتاج إلى خدماتي.

لم يكن لديّ خطيب، بالرغم من أن عملي الناجح ووَضْعي الاقتصادي المتواضع كانا يجعلان مِنّي اختياراً ممتازاً لكلِّ الرجال الأعزاب من الأعمار كافّة في طبقتنا الاجتماعية.

وفي الحقيقة، تلقَّيتُ عروضاً عدّة، سواء كانت مباشرة أو من خلال الخاطبة التي كانت تتنقَّل بين الناس من طبقتي في كلِّ أرجاء المدينة، وفي الريف أيضاً، والبلدات المجاورة.

لكنني كنتُ ساذجة إلى حَدِّ أنني كنتُ لا أزال أفكِّر في الزواج، ليس كترتيب حياتي، بل كتتويج لحُلْم الحُبِّ، وفي هذا الشأن أصابتْني تجربة الآنسة استر الحديثة في مقتل. فإذا أوقفَني في الطريق أحد شباب الجيران الذين أعرفهم منذُ طفولتي، ووجّه لي مجاملة، ونظرات معسولة، وعرض عليّ التّنزُّه يوم الأحد في الطُّرُق التي يؤمُّها أفراد طبقتنا، كنتُ أتصرّف بارتياب، وأجيب بحدّة،

ملزِمةً إيّاه حدوده. وإذا بدا لي، وأنا ذاهبة إلى العمل، أن أحد الشباب البرجوازيّيْن أو الطُّلّاب أو الضُّبّاط الشباب يتبعني، أو يراقبني باهتمام أكثر من المعتاد فقط، كنتُ أُغيّر طريقي. كنتُ أعرف أنه لا يمكنني أن أنتظر منهم ما يسرُّ، لا شيء سوى الخداع والعار. قرأتُ ذلك في الروايات، ورأيت بعض الأمثلة بأُمّ عيني. لم أكن أخشى الوحدة. كانت كلُّ أحلامي ورغباتي ومشروعاتي للمستقبل تتعلّق بالعمل، والتّقدُّم الذي أحرزه في القَصِّ والخِيَاطَة، واتِّساع نطاق زبائني.

وعلى أيّة حال، كان استدعاء عائلة بروفيرا لي هو آخر شيء أتوقَّعه! ربّما، جال بخاطري، أن قريبتهم الفقيرة قد مرضت، أو لم تعد تُبصر جيّداً، ويحتاجون أن أخيط حافَّة بعض أغطية الوسائد، أو أن أرتقَ بعض القمصان القديمة. فعلى النقيض من الزوجة والابنَتَيْن، كما ذكرتُ سَلَفَاً، لم يكن المحامي، المخلص لتقتيره الشهير، يحرص كثيراً على أناقته، وكان يجول ببعض القمصان التي تنسّلت أساورها، وتثير ضحك المحكمة بأكملها.

وافقتُ، لأنني في تلك اللحظة بالضبط كنتُ بدون عمل، ولأنني بالأحرى كنتُ أمتلئ بالفضول. لم يدخل أيٌ شخص غريب، على الأقلِ بين مَن أعرفهم، إلى ذلك المنزل أبداً. لم يكن لدى عائلة بروفيرا خَدَم، باستثناء خادمة ريفية متواضعة صغيرة السِّنِ للغاية، تُدعى تومازينا، ولم يكن باستطاعتها حتّى أن تتحدّث الإيطالية، ولم يكن ممكناً، في المرّات النادرة التي نلتقيها في الطريق وهي تحمل سِلالها وصناديقها، أن نتبادل معها كلمَتَيْن. كنّا نتساءل إذا كانت تقوم هي وحدها بكلِ شؤون المنزل وأعمال النظافة والمطبخ والغسيل والمشتريات. أو ربّما كانت تساعدها القريبة الفقيرة التي يستضيفونها في المنزل. ربّما يُفسِّر هذا كرم المحامي غير المألوف في استقبالها بين أسرته. طعام، ومسكن وبلا راتب، وفي المقابل خَيّاطَة ماهرة وخادمة موثوق بها للغاية. كانت الآنسة جيمّا أيضاً نادراً للغاية ما تخرج من المنزل، ولم تكن بالأخصِ تمارس النميمة.

أمّا نحن، الخَيّاطَات المتواضعات، وصانعات القُبّعات، وعاملات الكَيِّ والغسيل، وصاحبات المحالِّ الصغيرة، وثرثارات الأزقّة، على

النقيض، كنّا نمارس النميمة كثيراً. وربّما كانت عائلات الطبقة البرجوازية الثّريّة والعائلات الأرستقراطية، والتي ترتبط كثير منها بعلاقات مصاهرة مع آل بروفيرا، كذلك أيضاً. لكنْ، لم يكن متاحاً لنا معرفة هذا.

ذَهَبْتُ، وَفْقَاً لتعليمات صاحبة محلِّ الخردوات، في الثامنة صباحاً. كان المنزل يقع في وسط المدينة، على أحد جانبَي ميدان القدِّيسة كاترينا، في مواجهة الكنيسة. بناء راقٍ، من طابقَيْن، يطلُّ على فناء كبير مرصوف بالحصى، ومعزول بجدار مرتفع، يمكن الولوج إليه من ناحية الميدان عبر باب واسع خاصٍّ بعربات الخيل، يظلُّ مغلقاً دائماً، نهاراً وليلاً، كي لا يتمكَّن المارّة من استراق النظر إلى الداخل. لكنه كان مفتوحاً لحظة وصولي، لأن إحدى عربات النّقْل الرِّيفيّة التي يجرُّها حمار، كانت قد دخلت لتوِّها، وهكذا لم أضطرّ لقَرْع الجرس، وانسللتُ إلى الداخل أنا أيضاً. كان المزارع قد رَبَطَ الحيوان إلى إحدى الحلقات الحديدية المثبّتة في الجدار، ويقوم بإنزال سلَّة كبيرة من الخُرْشُوْف، عندما خَرَجَتْ من المنزل امرأة في منتصف العُمُر،

ثيابها متواضعة، وقد هُرعت دون أن تنبس بكلمة، وبوجه متجهّم، لتُغلق مصراعَي الباب الثّقيلَيْن من الخشب الداكن. "يا لتعجُلكِ، آنسة جيمّا، كنتُ سأغلقه أنا"، قال الفلّاح.

"كان يجب أن تقوم بذلك على الفور"، قالت هي. "أَلَا ترى أن أوّل خادمة متواضعة وقحة تمرُّ، يمكنها أن تتسلّل لتتطفّل؟" ثمّ توجّهت لي أنا، مُومِئة إلى كُوّة تُركَت مفتوحة عن قَصْد في البوّابة: "اخرجي فوراً، أيّتُها الفتاة!"

"أنا الخَيّاطَة"، قلتُ مستمتعة أكثر من كوني أشعر بالإهانة. كنتُ في الواقع أنظر حولي بفضول كبير. "إن السّيّدة بروفيرا هي مَنْ طَلَبَتْ مِنّي المجيء".

"الخَيّاطَة؟ وكيف لم تُحضري معكِ ماكينة الخِيَاطَة؟"

"لم أظنّ أنها ضرورية"، قلتُ. فبالرغم من كونها محمولة، إلّا أنها لم تكن خفيفة إلى حَدٍّ ما، وفكّرتُ أنها ستكون غير مفيدة في خِيَاطَة بعض الحوافِ والرّتْق.

"حسناً، من الغد ستحضرينها معكِ"، قالت لي المرأة، التي أدركتُ من اسمها أنها القريبة الفقيرة. "وبما أن يَدَيْكِ خاويتان، فلتساعدينا في حَمْل تلك السِّلال إلى داخل المنزل".

فوق العربة، بخلاف السِّلال، كانت توجد جوالات وخُرُج تمتلئ بالفاكهة والجَزَر والبطاطس والحُمُّص والفول والهِنْدِبَاء والبَنْجَر وخضراوات أخرى، أتى بها المزارع من حقل يبعد قليلاً عن المدينة، ويمتلكه المحامي. كان الفلَّاح يأتي بعربته مرّتَيْن أسبوعياً، كما علمتُ فيما بعد، ويزوِّد العائلة بكلِّ الضّروريّات. لهذا السبب لم تكن خادمة عائلة آل بروفيرا الصغيرة تظهر في الطريق وهي تحمل سِلال السوق. كان اللحم أيضاً – الدواجن، والضأن، والماعز – يأتي من الريف. بدت لي المؤن في ذلك الصباح الأوّل أكثر من وفيرة بالنسبة إلى أسرة تتكوّن من ستّة أفراد. "سنأكل جيّداً" فكَّرتُ. لكنّ الآنسة جيمّا بدّدت ذلك الوَهْم على الفور. فعندما رأت أنني لا أحمل في يدي أيّ صُرّة، قالت لي مستاءة: "ألم تجلبي غداءكِ؟"

تجمّدتُ في مكاني. أبداً لم يحدث لي، أبداً، عند الذهاب للخِيَاطَة في منازل السادة، أَلَّا تُقدّم لي وجبة منتصف النهار. لم يحدث لي ولا لأيِّ خَيّاطَة متواضعة أخرى. كنّا نقصُ لبعضنا بالتناوب عن نوع المطبخ، والوصفات، والوفرة والتّنوُّع، أو تكرار الأطباق لدى كلِّ عائلة. من الواضح أنهم في منزل بروفيرا لا يحترمون هذه العادة. أو ربّما كانوا لا يعرفونها حتّى، بما أنهم لم يعتادوا طَلَبَ مجيء عُمّال إلى منزلهم.

وبينما أنا أحمل سلَّة الكُمّثْرَى التي لن أتذوّقها، صَعِدْتُ منزعجة درجات السُلَّم التي تؤدّي إلى الشُقَّة، وقادتْني الآنسة جيمّا إلى المطبخ. عبر الباب المفتوح، استطعت أن أرى العائلة تُنهي إفطارها في البهو؛ النساء الثلاث في ثياب المنزل، والمحامي متأهِّب بالفعل للخروج. في المطبخ، كانت الخادمة الصغيرة تقضم قطعة من الخبز الجافِّ، وهي واقفة. "ألم تنتهِ بعد؟" وبّختْها الآنسة جيمّا باللهجة المحلِّيّة. "هَيّا، انزلي لتحملي النخالة إلى الدجاج، ثمّ يجب عليكِ أن تنظِّفي غرفة الخِيَاطَة قبل أن نبدأ نحن العمل". من شُرفة نافذة المطبخ، على الواجهة الخلفية، يمتدُّ سُلَّم

خارجي صغير نحو حديقة غير مُورِقة، كبيرة كالفناء الأمامي، لكنها غير مرصوفة، وهنا رأيتُ كمِّيّة كبيرة من الدجاج قابعة بين أفرع بعض أشجار البرتقال والرُّمّان المنخفضة، تنقر بحثاً عن دود في الأرض، أربعين أو خمسين دجاجة، حظيرة دواجن واسعة، لم يعتد أحد امتلاك مثلها سوى في الريف أو الضواحي. في المواجهة، كان يوجد البناء المنخفض المخصّص لأقفاص الدجاج، على امتداد الجدار. في تلك الأعوام لم يكن محظوراً تربية حيوانات الفناء كالدجاج أو الأرانب في المنازل، لكن الناس كانت تفعل ذلك لاستخدامها الشّخصيِّ، ستّة أو سبعة على سبيل المثال، أو عشرة كحَدٍّ أقصى بالنسبة إلى الأرانب، كي لا يتسبّبوا برائحتهم وأصواتهم في إزعاج الجيران. كانت حظيرة آل بروفيرا، على النقيض، كبيرة، لدرجة أنني كنتُ أتساءل عمّنْ يمكنه تناول كلِّ ذلك البيض، الذي يكفي نُزُلاً كاملاً من فتيات الراهبات.

لكن غرائب تلك العائلة لم تنتهِ. ما إن خَرَجَ المحامي حتّى استدعتْني السّيِّدة إلى البهو، حيثُ كانت الابنتان تزيلان بقايا الإفطار، والذي حدستُ، بالنظر إلى عدد الأطباق، أنه لم يكن متنوِّعاً للغاية.

كنّا قد اتّفقْنا حول الأجر اليومي بالفعل من خلال صاحبة محلِ الخردوات، لذا كنتُ أنتظر فقط أن يُبيّن لي العمل الذي ينبغي عليّ القيام به. لكن السّيّدة بروفيرا، بعد أن صرفت الفتاتَيْن، وتأكَّدت أن النوافذ والباب موصدون جيّداً، أمسكتْ بيدي، وقالت لي بينما هي تحدِّق في عينَيّ بجدِّيّة كبيرة: " قبل أن تبدئي العمل لدينا يجب أن تتلي القَسَم".

نظرتُ إليها مرتبكة. "على ماذا يجب أن أقسم؟" سألتُ.

"على أن أيّ شيء سترينه في هذا المنزل، وأيّ حديث ستسمعينه، وأيّ شيء ستعرفينه، لن تتحدّثي عنه بالخارج مع أحد".

"لستُ نمَّامة"، أجبتُها منفعلة. " لا يوجد داع للقَسَم". ثمّ أيّ أحداث جسام سأعرفها؟ أيّ أسرار يمكن أن تخفيها عائلة من السادة جديرة بالاحترام ومحترمة؟ لسنا أبطال إحدى الروايات. ليس سرّاً أن المحامي كان شديد البخل، الجميع يعرفون هذا.

كما كانوا يعرفون أيضاً أنه شديد الثراء، فكَّرتُ عندئذ أنهم ربّما يخشون اللصوص، ومن أنني قد أقوم بالإدلال على الأشياء الثمينة والمجوهرات والمال، وأين يحتفظون بها، أو على أيسر طُرُق الدخول لمَنْ يمكنه تسلُّق الجدران وكَسْر الأقفال.

"لن أقول أيّ شيء لأيِّ شخص، لِتطمئنِّي سيادتكِ"، كرّرتُ.

لكن السّيِّدة كانت حاسمة. "لِنذهبْ إلى الكنيسة"، قالت لي، بينما هي تضع عباءة على كتفَيْها. ستتلين قَسَمَكِ أمام مذبح الله".

أرسلتْ في استدعاء القريبة الفقيرة أيضاً، جَعَلَتاني في المنتصف بينهما، ورافقتَاني نزولاً على السُّلَّم. كان الفناء الأمامي خاوياً والبوّابة موصدة. لا بدّ أن المزارع قد عاد إلى حقله. فتحت الآنسة جيمّا البوّابة، وأعادت إغلاقها بمفتاح حديدي كبير، تحمله معلّقاً في حزامها. عبرْنا الميدان، ودخلْنا إلى كنيسة القدِّيسة كاترينا التي تبعد أمتاراً قليلة فقط. في الداخل، لم يكن هناك أثر لأيِّ شخص، لكنْ، على المذبح كان قنديل الإله القُدُس يتّقد.

"هنا، أمام القربان المقدّس، يجب أن تُقسمي. ونحن الاثنتان شاهدتان على ذلك. تذكَّري أن الجحيم ينتظركِ إذا خالفتِ القَسَم".

بدا كلٌ شيء سخيفاً للغاية بالنسبة إليّ، كما بدا كإحدى قصص جَدّتي حول حروب الاستقلال والكاربونيريا(). من جانب آخر، كان يُشتهر عن آل بروفيرا – المحامي إبّان شبابه ووالده – أنهم من أتباع ماتزيني المخلصين. على أيّة حال، فكَّرتُ، ماذا لديّ لأخسره؟ كان الاضطرار للتّخلِّي عن الغداء هو الأسوأ من هذا بكثير.

وهكذا أقسمتُ. كانت السِّيّدة تملي عليّ الكلمات كي أنطقَها بدقَّة، وكنتُ أكرِّرها. عندما عدْنا إلى المنزل، ناولتْني ورقةً بها صيغة القَسَم التي أعدّتْها بالفعل كي أُوقِّعها. تعجّبتْ من أنني أعرف الكتابة، فالناس في مثل ظروفي كانوا عادة ما يُوقِّعون برسم صليب. طالما تساءلتُ كيف يمكن للسلطات أن تقرّ بأن ذلك الصليب قد رَسَمَهُ ذلك الشخص بالذات. وللتوقيع كشاهدَتَيْن،

استدعت الابنَتَيْن، وهنا علمتُ أنهما تُدعيان ألدا، وهي الكبرى، وإيدا. لم يكن يوجد فَرْق كبير بين الاثنَتَيْن، كانتا تبدوان من نفس العُمُر، وما تزالان شابّتَيْن إلى حَدٍّ ما، رغم أن كلتَيْهما قد تجاوزت العشرين. كانتا لطيفتَيْن، لكنْ، لا شيء مميّز لديهما. لا شيء يمكن مقارنته بسِحْر آنستي استر الوهّاج. إضافة إلى ذلك، كانتا ترتديان، كالوالدة والعمّة، ثياباً منزلية متواضعة، بالية قليلاً، تعود موضتها إلى عدّة أعوام مضت. ربّما – فكَّرتُ – عندما تخرجان إلى الطريق والحدائق والمسرح والاحتفالات والحفلات الراقصة وزيارات المعارف، يجعلهما التّبرُّج الفرنسي وتوقُّع مهرهما الباذخ تبدوان نموذجاً للجمال.

وضعت السّيّدة تيريزا الورقة في أحد الأدراج، وأغلقتْهُ بالمفتاح، وأطلقت تنهيدة ارتياح. "ستفهمين"، قالت لي: "إننا قد استدعيناكِ لسبب استثنائي، ظرف طارئ. فنحن عادة ما نتمكَّن من إتمام كلِّ شيء بمفردنا، لكنْ، هذه المرّة لا يوجد متّسع من الوقت. ستصل الملكة إلينا لزيارة مدينتنا خلال أقلّ من شهر".

لم أفهم ما علاقة الملكة بالأمر. كان كلُّ شيء يزداد غرابة في عينَيّ. "علمتُ أنكِ تستطيعين القَصّ، إضافة إلى الخِيَاطَة"، تابعت السّيّدة، " وأنكِ تمتلكين ماكينة ألمانية محمولة، وتعرفين كيف تستخدمينها. يمكن إنجاز العمل بها أسرع بكثير، أليس كذلك؟"

"على حسب. في الخِيَاطَة الطُّوليّة والمستقيمة، أجل، بالتأكيد"، أجبتُ مندهشة من أنها تسألني عن ذلك. كانت كلُّ العائلات المرفَّهة في المدينة آنذاك تمتلك وتستخدم - وإن كان في تجهيز حوافِّ المُلَاءَات ومناشف المطبخ فقط - ماكينة خِيَاطَة ذات مِدْوَس، طرازها أكثر حداثة، ومريحة أكثر في الاستخدام. كانت ماكينتي من الطراز القديم، وقد اختارتْها الماركيزة الشّابّة استر بسبب حجمها. كانت تعرف أنه لا يوجد متّسع في شُقَّتي الصغيرة لماكينة ذات مِدْوَس. اعتقدتُ أن الآنسة جيمّا قد طَلَبَتْ منّي الإتيان بها على سبيل الفضول، لترى كيف تعمل بالمقبض اليدوي.

لكنْ، عندما انتقلْنا إلى غرفة الخِيَاطَة، تأكَّدتُ من أنهنّ لا يمتلكنَ أيّ ماكينة، لا بالمِدْوَس، ولا من أيِّ نوع آخر. في المقابل، على طاولة الكَيِّ الكبيرة، كانت توجد ثلاث قِطَع من الحرير الثقيل شديد الجمال، برسوم زهرية ذات ألوان رائعة، لكنْ، بدرجات وتصميمات مختلفة، كما لم أرَ من قبل. أقمشة عريضة، لا تزال ملفوفة حول أسطوانة الكرتون المقوّى. بالنظر إليها، حسبت أن طول كلٍّ منها يصل تقريباً إلى عشرة أمتار، أي أنها أكثر من كافية لثوب أنيق على أحدث طراز، بذيل قصير وطيّات على الجانبَيْن، وأخرى كخلفية للتّنُّورة المنتفخة، ورداء كتف قصير، وربّما حقيبة صغيرة أيضاً تُعلَّق في الحزام. ومع أنني لم أقم قطُّ بتفصيل أثواب مماثلة، إلَّا أنني كنتُ أستطيع تقدير طول القماش اللَّازم تبعاً للطراز.

إلى جانب القِطَع الثلاث كان يوجد شريط القياس والمِقَصُّ الكبير والطباشير وبعض قصاصات الورق المقوّى التي لا بدّ أنها تنتميَ إلى أحد أوراق التفصيل.

رأيتُ، وأنا أستند على إحدى طاولات التطريز الصغيرة، مجلَّة موضة ذات اسم فرنسي.

لم يستلزم الأمر كثيراً لأفهم أنني قد استُدعيتُ لتفصيل ثوب أو أكثر من تلك الأقمشة شديدة الجمال، وَفْقَاً للموضة الفرنسية.

"لا أستطيع"، أعلنتُ على الفور غير مصدِّقة. " الأثواب التي يمكنني حياكتها أبسط بكثير. لم أقم بخِيَاطَة الحرير من قبلُ مطلقاً". كنتُ أعرف أنه صعبٌ للغاية، وزَلِقٌ، يفلت في كل اتِّجاه، والأصعب هو تفصيله بشكل غير مستقيم. "يجب أن تلجأنَ إلى مشغل خِيَاطَة بيلى دامى أو إلى لا سوبريما إيلجانزا"، قلتُ. كنتُ أعرف أنهم في ذينك المَشغلَيْن يقبلون العمل بالأقمشة التي تأتي بها العميلات، بخلاف أقمشتهم الخاصّة. لم أكن أجرؤ على سؤالهنّ: " لكن، لماذا لا تتوجّهنَ هذه المرّة أيضاً إلى متاجر برينتمبس الباريسية؟" كان الانتقال من مصدر الروائع إلى خَيّاطَة متواضعة فقيرة تخيط في المنزل من مدينة ل. يبدو لي صادماً.

"لا أستطيع"، كرّرتُ. "يجب أن تلجأنَ إلى شخص آخر".

"لا تقلقي"، قالت لي الآنسة جيمّا بهدوء. "نحن نستطيع. يجب أن تساعدينا أنتِ فقط في الخِيَاطَة والتشطيب. اليوم، لحسن الحظِّ، سنقوم بالقَصِّ والسراجة فقط، لكنْ، يجب أن تحضري الماكينة غداً".

وبحركة حاسمة، فضّت قطعة القماش الأقرب، ذات اللون الأخضر المائل للزُّرْقَة، وبسطت على الطاولة طرفاً كبيراً من ذلك الحرير الرائع الموشّى برسوم أفرع زهور الكرز. اقتربت الآنسة الصغرى، إيدا، وفي يدها مجسّم التصميم الورقي ووسادة الدبابيس الصغيرة، بينما كانت الوالدة والشقيقة تبدأان في تسخين المكواة. لم أكن أُصدِّق عينَيّ.

ما اكتشفتُهُ وجمعتُهُ يوماً بعد يوم خلال الشهر التالي، وهو السِّرُّ الذي أقسمتُ ألّا أكشفه لأحد، سأقصّه عليكم هنا. مرّ وقت طويل

الآن، وبعد أن انفجرت الفضيحة، علمه كلُ مَنْ في المدينة، لذا لا يبدو لي أنني أحنث بأيِّ وعد.

بإيجاز، كذبت عائلة بروفيرا كلّ تلك الأعوام. لم تُحضِر، ولا مرّة واحدة، الأثوابَ من باريس، بل نساء الأسرة قد خاطتها دائماً في الخفاء، وبدون استخدام ماكينة خِيَاطَة حتّى، صُنعت كلُّها يدوياً بالكامل. من جانب آخر، عندما كنّا نتوقَّف أمام الواجهات الزُجاجيّة لنتطلّع إلى الأثواب الأنيقة التي جاءت من العاصمة، ماذا كانت جَدّتي تقول؟ "مَن تعتقدين أنه صَنَعَهَا، يا ابنتي، آلهة من السماء؟ لقد خاطتْها نساء مثلنا، لكنهنّ أكثر مهارة وخبرة فقط". ثمّ كانت تتنهّد لِلَحظة، وتُكمِل: " وبالتأكيد، يحصلنَ على أجر أفضل".

كانت توجد في منزل بروفيرا، في الأساس ومنذ أعوام طَوَالَ مضت، أثواب باريسية أصلية، يُستَلْهَم منها. عرفتُ ذلك فيما بعد من السَّيّدة تيريزا التي - ثقةً في قَسَمي - لم تجد غَضَاضَة في البوح لي في لحظات ضِيْقها الشديد. أثواب كانت جزءاً من جهاز عرسها،

ذلك الجهاز الجدير بإحدى الأميرات، الذي أحضره لها والدها، شديد الكرم، من أكثر محالِّ أوروبا كلّها فخامة. ثياب احتفالات، وحفلات راقصة، ومسرح، صَيْفِيّة وشَتْوِيّة، سترات للتّنزُّه وتنانير، معاطف وعباءات، قمصان داخلية وخارجية راقية للغاية. ولكلِّ ثوب مِشَدُّهُ وحشواته والقُبّعة المناسبة له، والمظلّة، والقفّاز والحذاء، وَفْقَاً للموديلات المختلفة. كان يبدو أنه لا يوجد ما يكفي من أيّام في العام، ولا ساعات في اليوم لارتدائها جميعاً. جاءت داخل العلب الكبيرة من الكرتون المقوّى، المبطَّنة بالورق الأزرق الزاهي المنقوش عليه باللون الذّهبيِّ اسم متاجر برينتمبس، والبعض الآخر حمل اسم محالّ أخرى في بروكسل ولندن. كان يبدو أنه لا يوجد ما يكفي من الخزائن، ولا الغرف في منزل بروفيرا لحفْظها جميعاً. كان المحامي بونيفاتشو، العريس الشّابّ آنذاك، فخوراً بالتّجوُّل مع زوجة الأكثر أناقة من الملكة مارجريتا وسيِّدات البلاط، لكنْ، عندما كانا يعودان إلى المنزل، وكانت هي، بسبب عدم وجود خادمة تساعدها، تشقى في خَلْع ثيابها، وهي تحلُّ الأربطة، وتفكُّ الأزرار، كان يقول لها مستهزِئاً: "تمتّعي بها طالما

كانت موضتها سارية، لأنني، بالتأكيد، لن أشتريَ لكِ أخرى جديدة. لا من باريس، ولا من هنا في المدينة".

اضطرّت السّيّدة تيريزا المسكينة، التي اعتادت أن تحيا في منزل والدَيْها في بَذْخٍ وفخامة، إلى التواؤم في وقت وجيز للغاية، وبسبب بُخلِ الزوج، مع نظام حياة قاسٍ، كانت تقضي نصف النهار مستلقية على إحدى الآرائك وهي تبكي. لم تكن تخشى الشعور بالخجل، لأن الخَدَمَ يسمعونها: لا يوجد خَدَم، بخلاف خادمة صغيرة حافية القَدَمَيْن قابعة دائماً في المطبخ، وهي ابنة أحد مزارعي المحامي، تحصل على الإقامة والطعام القليل في هذه الحالة، كراتب لها.

كان غداء وعشاء أصحاب المنزل متقشّفاً للغاية أيضاً. وقد امتنعت بنات عمومة العروس وبنات أشقّائها عن قبول دعواتهما بعد أن قُدِّم لهنّ دائماً وفي كلِّ المرّات حَسَاء، تزيد فيه كثيراً كمّيّة المياه على ورقَتَي الهِنْدِبَاء ونصف فصّ الثوم، التي كانت هي مكوِّناته الوحيدة، دون قليل من المعكرونة أو قطرة زيت حتّى، ثمّ قطعة

صغيرة من اللحم المسلوق مع بطاطس مسلوقة وثمرة فاكهة وحيدة، عادةً ما تكون غير طازجة، ولا نضرة.

لكنْ، ما كان يهين العروس الشّابّة أكثر من أيِّ حرمان آخر هو عدم قدرتها على التّصرُّف شخصياً في قرش واحد. "ماذا ستفعلين بها؟ بماذا ستفيدكَ النقود؟" كان المحامي يقول لها. كلُّ الطعام، وكذا الخمر والزيت، كان يأتي من الحقول التي يمتلكها، فلا حاجة لسداد ثمنه إذنْ. وفي المحلِّ الذي كان لا بدّ من اللجوء إليه للحصول على الشموع والصابون والإبر وأدوات المطبخ وسمك البكالا المملّح، والأشياء الأخرى الصغيرة الضّروريّة، كان المحامي قد فَتَحَ حساباً، يُسدِّده شخصياً مرّة في العام بعد أن يدقِّق في قائمة المشتروات، بانتباه مبالغ فيه. وإذا رأى أن عدد الإبر أو الشموع المستخدَمَة يتجاوز، ولو بقليل، العددَ المستهلَكَ في العام السابق، كان على الزوجة أن تتحمّل عِظَةً شديدة القسوة حول إدارة المنزل الحكيمة.

في منزل والدها، كان يوجد دائماً إلى جوار الباب وعاء من الفضّة يمتلئ بالفكّة. كانت هي ووالدتها، وهما في طريقهما للخروج، تأخذان منه كمِّيّة قليلة من العملات، يستخدمانها في التّصدُّق، ودَفْع البقشيش، وأجر عربة خيل عامّة، أو ثمن فنجان من الشكولاتة في مقهى كريستال بالاس، ولم يكن عليهما أن يُخبرا أيّ شخص بهذا. في منزل بروفيرا، كانت كلُّ تلك النفقات تُعدُّ عَبَثِيّة، تبذيراً حقيقياً، وفعلاً يضرُّ بثروة العائلة. دُمج مَهْر العروس مع الثروة، واستُثمر في شراء أسهم وأراضٍ جديدة. عندما اكتشف والدها، أنه لم يتبقّ لابنته أيُّ دَخْل هزيل لاستخدامها الشّخصيِّ، عَرَضَ أن يخصِّص لها هو نفسه دَخْلاً جديداً. لكن صهره لم يسمح بهذا، وشَعَرَ بالإهانة. "أنا قادر تماماً على التّكفُّل بزوجتي"، كان يعترض. "لن أجعلَها تحتاج إلى شيء".

وغنيٌّ عن القول إنه لم يفتح لها حساباً في محلِّ الأقمشة، ولم يكن يسمح لها باللجوء إلى أيٍّ من الخيّاطَتَيْن الأنيقَتَيْن. "ذلك الجبل من الجوبير والشرائط الذي اشتراه لكِ والدكِ سيكفيكِ

طَوَالَ حياتكِ، وكذلك القفَّازات والأحذية والمئات من المُلَاءَات والمفروشات المنزلية الأخرى"، كان يقول لها.

عندما وُلِدَت الطفلة الثانية، ولم تعد مساعدة الخادمة الصغيرة تكفي الوالدة، قرّر المحامي بونيفاتشو استضافةَ الآنسة جيمّا، ابنة عمٍّ من الدرجة الثانية، يتيمة وفقيرة، كان حتّى تلك اللحظة غير عابئ بها، تعيش في معهد الراهبات، حيثُ تؤدِّي، لقاء الطعام والإقامة، أعمالاً كثيرة وشاقَّة من كلِّ صنف ولون. تأقلمت الآنسة جيمّا الفَرِحَة بأنها قد وجدت عائلة أخيراً، والمولَعة كثيراً بالطفلَتَيْن اللَّتَيْن تدعوانها بعمّتي، وكانت قد اعتادت منذُ صِغَرِها أسلوبَ حياة قاسٍ، دون اعتراض على القيود المنزلية الصارمة التي فرضها ابن العمِّ. لكنها على خلاف السِّيدة تيريزا، التي كانت تنسجم معها كما لو كانا شقيقَتَيْن، شمَّرت عن ذراعَيْها، وتطلّعت حولها محاوِلة بشتّى الوسائل التخفيف من وطأة تلك القيود. زادت تدريجياً من عدد الدجاج في حديقة أشجار البرتقال، واختارتْهُ كلّه من الدجاج البيّاض، ووَجَدَتْ مَنْ تبيع له البيض، الذي كان يُجمَع كلّ يومَيْن في الخفاء، ويُحمَل إلى السوق. وكان البيض الذي

يصل مع الخضراوات والفاكهة في عربة الفلّاح يكفي لاستهلاك الأُسرة. ووجدت، أيضاً، طريقة تبيع بها سرّاً بعض زجاجات الزيت أو الخمر التي تَرد من نفس المصدر. لم يكن المحامي، ولمجرّد أنه يفرض مبادئه، يعبأ، أو كان يتظاهر بعدم الاهتمام، بعمليات التهريب الصغيرة تلك، التي كانت تزيد شهراً بعد آخر، وعاماً بعد آخر، وتوفِّر للمرأَتَيْن ذخيرة صغيرة من المال، تتصرّفان فيها دون رقابة.

فيما يخصُّ الكساء، كان جهاز عرس السّيّدة تيريزا مَنْجَماً لا ينضب حقّاً. حَصَلَت الابنتان الصغيرتان منذُ طفولتهما على أثواب وأردية كتف من جوبير سانت غالين الأبيض كجميع بنات السادة الأخريات. إلّا أن ثيابهما كانت تُصنَع من أرواب وصديريات الأُمِّ، بعد أن تقوم الآنسة جيمّا بفكِّها وإعادة حياكتها بمهارة كبيرة، لا تدع أحداً يكتشف الأمر أبداً. كانت ثياب السّيّدة، عندما تأفل موضتها، تستعيد مظهرها الحديث مرّة أخرى بفضل ذات اليَدَيْن الماهرَتَيْن، وبعضها يصغر مقاسه، ليُناسب الابنَتَيْن، ولأن الأقمشة كانت رائعة، والسِّجَاف والأزرار والشرائط تُنقَل من ثوب لآخر، لم

يكن أحد يتعرّف عليها قطُّ. كانت الآنسة جيمّا صانعة قُبّعات جيّدة أيضاً، صاحبة ذوق وابتكار.

كانت القُبّعات التي تأفل موضته تُفَكُّ، ويُعاد تشكيلها بالمكواة الساخنة، وتُزيّن بشرائط جديدة وأزهار من الحرير وفاكهة من الشّمع وأجنحة طيور محنطَّة وريش. والأمر ذاته كانت تفعله مع المظلَّات الواقية من الشمس، مزيّنة حافّتها بقِطَع جوبير جديدة وشرائط وأزهار صناعية، جِيء بها من الأثواب. كانت ماهرة للغاية في صناعة الأزهار بقُصَاصَاتٍ من الحرير، ولَيّ بَتْلَاتها بأسياخ الحديد الصغيرة المُحمّاة على النار، وتلميع أوراقها بالشمع المنصهر. كان المحامي بونيفاتشو على دراية بما يحدث، ويشعر بالرضا للتوفير والمظهر المشرِّف الذي تستمرُّ نساؤه في إبدائه أمام مواطني مدينته. شريطة ألَّا يُطالِبْنَهُ بالإنفاق.

بمرور الوقت، تعلَّمت السّيّدة تيريزا أيضاً الخِيَاطَة، ولكنْ، ليس بمهارة ابنه العمِّ المكتَسَبَة، والتي، شيئاً فشيئاً، علَّمَت الآنستَيْن أيضاً، بينما هما تكبران.

كان العمل سيصبح أفضل، وأكثر يُسراً وسرعة، لو أن في المنزل ماكينة خِيَاطَة. لكنها كانت شيئاً أضخم بكثير ممَّا يمكن إخفاؤه في إحدى الخزائن، وأغلى بكثير ممَّا يمكن تبريره أمام المحامي، ولم تكن حصيلة بيع البيض والزيت كافية لدَفْع ثمنها مرّة واحدة، كما لم يكن تقسيط ثمنها ممكناً دون أن يتحدّث عنه الجميع.

كانت الآنستان تكبران، وعندما بلغت الكبرى اثنَي عشر عاماً، وقعت مأساة عائلية صغيرة.

قرّرت سلطات المدينة وَضْع تمثال نصفي من الرخام لكافور في فناء مبنى البلدية. وكان مقرّراً، لأجل الافتتاح، إقامة حفل بحضور الفرقة الموسيقية، ومجموعة من الفتيات، ترتدينَ أثواباً بيضاء، وتنثرنَ الزهور على قاعدة التمثال وهنّ ترقصنَ. تمّ اختيار هؤلاء الفتيات من بين بنات أكثر عائلات المدينة اعتباراً. وبينهنّ كانت ألدا بروفيرا.

كان المحامي، رغم عقيدته الجمهورية، فخوراً بذلك، لكن ألدا لم تُردِ الذهاب. انفجرت في نوبة من البكاء والنحيب، وَصَلَتْ ضوضاؤها إلى داخل كنيسة القدِّيسة كاترينا، هكذا قصّت عليّ الوالدة.

"لن أذهب إلّا بفستان جديد".

"سنصنعُهُ لكِ، يا حبيبتي، اهدَئي".

"لا. أقول فستاناً جديداً حقّاً. من الواضح أن الأقمشة البيضاء التي لدينا في الخزائن مستهلَكَة. سيُدرك الجميع أنه ثوبٌ قديم، أُعيدت حياكته".

في الحقيقة، ما بين فَكِّ الخِيَاطَة وإعادتها، وإلغاءِ الطراز وتحديثه، كانت كلُّ قطعة في جهاز السّيّدة تيريزا قد استُخدمت عدّة مرّات. كانت الأقمشة جيّدة، ولا تزال الثقيلة منها تحتفظ برونقها، لكنّ الخفيفة فَقَدَتْ تماسُكها ومتانتها، وبعضها ثُقب، ويستحيل رَتْقُهُ.

وفيما يخصُّ الأقمشة الأفضل حالاً، أضافت ألدا ذلك الحين، أنه لا ينبغي عليهما إجبارها على ارتدائها. والسبب هو أنها شُوهِدَت مرّات كثيرة للغاية في الحفلات، والمسرح، ونزهات ما بعد الظَّهيرة، والحدائق العامّة وكرنفال الأطفال.

"يمكننا أن نشتريَ بحصيلة بيع البيض ثلاثة أمتار من الباتيستا، أو الموسلين أو جوبير سانت غالين ..." غامرت العمّة جيمّا متردِّدة.

"ومن أين؟" سألت السّيّدة تيريزا يائسة. في المدينة، كان يوجد محلَّان فقط للأقمشة، وكان مالكاهما عميلَيْن لدى المحامي، الذي سيعرف الأمر بالتأكيد، وسيبدأ شجاراً حول التبذير والنفقات الضّروريّة، وسيُحقِّق حول حصيلة المال الذي توفِّره المرأتان، ويكتشف أنها ليست ممَّا يستهان به، وقد يحملهما على تسليمها له.

كانت ألدا تبكي، وإيدا أيضاً تعاطفاً معها. كانت لا تزال في العاشرة من عُمُرها، لكنها أكثر زُهُوّاً من شقيقتها، وتعاني أكثر منها من عدم استطاعتها أبداً التباهي بين صديقاتها بثوب جديد تماماً.

وكانت الوالدة تبكي أيضاً، وهي تفكِّر في المستقبل، وفي أنه سرعان ما ستضطرُّ الابنتان للانخراط في المجتمع الراقي والمشاركة في الحفلات الراقصة والاحتفالات، حيثُ تستعرض فتيات العائلات الراقية أنفسهنّ سعياً للفوز بزوج ثريٍّ، ينتمي لنفس طبقتها على الأقلِّ، إن لم تحظَ بأحد الأمراء. كيف ستتمكَّن ألدا وإيدا من إثارة الإعجاب، إذا لم ترتديا ثياباً لائقة؟!

لم تكن الآنسة جيمّا تبكي، لكنها كانت تُعمِل عقلها بحثاً عن حلٍّ.

كانت الآنسة جيمّا، بفضل "تجارتها السِّرِّيّة" في البيض والخمر والزيت، قد اتّصلت بشخوص مختلفة، تمارس عمليات الإتجار البسيطة، غير النِّظاميّة تماماً، والقانونية بالكاد دائماً، وهم معروفون بين جمهور الشعب، لكنهم مجهولون بشكل كُلِّيٍّ للطبقات الميسورة. ليسوا تجّاراً متجوِّلين فحسب، بل أشخاصاً يحصلون على مخلَّفات كلِّ شيء، ويُعيدون بيعها للحِرَفِيّيْن والعائلات الأكثر فقراً، بدءاً من عظام الذبائح إلى حشوات مراتب الفراش البالية، والأثاث القديم المحطَّم، والثياب البالية والخردة.

عندما سألت الآنسة جيمّا في الجوار، عرفت أن لهذا العالم السُفليّ من الفقراء الحقراء سيّده الذي لم يعد أحد أولئك الفقراء، لأنه استطاع على مدار أعوام توسيع نشاطه، حتّى إنه اشترى في مدينة ب. على بُعد ثلاثين كيلومتراً من مدينتنا، مخزناً ضخماً تحت الأرض، أشبه بكهف مظلم، يمتلئ بالرفوف الخشبية، وتُكدّس فيه أشياء من كلِّ نوع، تأتيه من إفلاس المحالِّ والمصانع المختلفة، وبشكل خاصٍّ من إزالة المنازل والمكاتب العامّة والفنادق والمنشآت الصِّناعيّة ودُوْر البِغَاء بدرَجَتَيْها الأولى والثانية، وحتّى من عربات القطار التي لم تعد في الخدمة. وليست أدوات فحسب، بل قطع أثاثٍ، هياكل مباني، أقمشة تنجيد، درابزينات، مقابض، مصابيح غاز، نوافذ صغيرة، أعمدة شرفات، درجات سُلَّم، أفاريز نوافذ، وعتبات من الرخام والإردواز. كان يمتلك عربة نَقْل كبيرة، تجرُّها أربعة جياد، يجول بها الأقاليم المحيطة، في دائرة يتّسع قطرها لسبعين أو ثمانين كيلومتراً، ليحصل على بضاعة جديدة. كان يصل حتّى الساحل، إلى ميناء ب.، ويشتري كامل حمولة السفن التِّجاريّة المتعسِّرة. وتبعاً لطَلَبَات العملاء، كان يطلب من البحّارة أن يأتوه من الخارج بمنتجات بعينها. كلُّ هذا دون أيِّ

رقابة من جانب السلطات، ودون أن يسجِّل نشاطه، أو يدفع رسوماً، أو يمرّ على الغرفة التِّجاريّة. كان يُدعى تيتو لوميا.

استفسرت الآنسة جيمّا عن مروره بمدينتنا، وبأكثر ثوب رَثٍّ لديها، ورأس مغطًّى بشالٍ، وبروح امرأة شجاعة ومبادرة كما هي، ذَهَبَتْ لتتحدّث إليه. سألتْهُ إذا كان في " معرِض عيِّناته" أقمشة أيضاً، وعندما حَصَلَتْ على ردٍّ إيجابي، شَرَحَتْ له أنها تحتاج إلى أقمشة ذات جودة عالية، ويُفضّل أن تَرِدَ من الخارج، ويجب أن تُنقَل وتُسلَّم إلى عنوان لا يخصُّها في المدينة، وبأقصى درجات السِّرِّيّة، وأنها تريد أن تختارها، ويمكنها أن تقرِّر إعادتها، وأن لا أحد، لا أحد تماماً، ينبغي أن يعرف بهذا. وسيكون للصمت أيضاً مقابل نَقْدِيٌّ. ربّما وجد تيتو لوميا هذا الطَّلَبَ فريداً بعض الشيء، لكنه وافق، ولم يعبأ بأن يكون وراء هذا ما ينبغي إخفاؤه، فكلٌّ أعماله تقريباً كانت مُريبة إلى حَدٍّ ما.

وهكذا استطاعت عائلة بروفيرا أن تحصل، مرّتَيْن في العام، على أنواع الحرير والقماش المقصّب والبروكار والمُخْمَل والأورجانزا

والموسلين المُوشّى التي لم يَرَ مثلَها أحدٌ في مدينتنا. بعضُ هذه الأقمشة لم يكن خاصّاً بالثياب، ولكنْ، بالتنجيد. كانت الآنسة جيمّا تعرف تِقْنِيّة خاصّة لتنعيمها بمساعدة المكواة، وباستخدام البيكربونات ومساحيق منزلية أخرى. وفي بعض الأحيان، كانت تصبغها بعُصارة بعض النباتات، وَفْقَاً للعادات المحلِّيّة. لم يكن أحد في المدينة ليتخيّل وجود معمل كهذا في منزل المحامي بروفيرا البرجوازي تماماً، والذي يتوسّط المدينة.

حَصَلَتْ ألدا على ثوبها الجميل من الموسلين الأبيض في الوقت المناسب، لترقص أسفل تمثال كافور وهي تنثر الزهور.

وكي لا يسألوها أيّ من مَشغَلَي الخِيَاطَة الكبيرَيْن في المدينة خاط الثوب لها، خطرتْ للآنسة جيمّا فكرة عبقرية. لحسن الحظِّ كان المنزل كبيراً، يمتلئ بالخزائن وغرف التخزين، وكانت السَّيِّدة تيريزا قد استطاعت الاحتفاظ بالعلب الكبيرة التي أتى فيها جهاز عرسها. حافظتْ عليها بعناية، وصانتْها من الغبار والفطريات، خاصّة

تلك الزرقاء الخاصّة بمتاجر برينتمبس في باريس، والتي كانت تروقها كثيراً، ولا تزال تبدو جديدة تماماً.

اختاروا منها واحدة تناسب مقاس ثوب ألدا الجديد الذي وُضِع بعناية بين الكثير من ورق التغليف الشّفَّاف. أجبرت الخادمة الصغيرة الموجودة آنذاك على حفظ السِّرِّ، واقتيدَتْ إلى الكنيسة لأداء القَسَم، كما فُعِلَ معي، وقد قبلتِ الالتزام بجدِّيّة أكثر ممَّا فعلتُ أنا بالتأكيد، لأنها، بخلاف الجحيم، كانت تخشى فَصْلَها من العمل. علَّموها جملة بالإيطالية، ودرّبوها على نُطقها بطريقة واضحة ومفهومة. كان دَوْرها أن تخرج من المنزل مع العلبة الزرقاء الكبيرة ملفوفة في شال أسود، في جنح الظلام، وأن تصل إلى محطَّة السكك الحديدية عبر أكثر الأزقَّة ظلمة وضيقاً، حيثُ لا يمرُّ السادة أبداً. هناك كان عليها أن تنتظر وصول أوّل قطار ليلي يأتي من ب.، من الميناء، بالتزامن مع رُسُوِّ السفينة القادمة من مارسيليا. كان ينبغي عليها أن تختلط بالحمّالين الذين يُفرغون البضائع، وأن تُحرِّر العلبة الزرقاء من الشال (الذي سترتديه)، وأن

تحملها فوق رأسها بأعلى ما تستطيع، وتعود إلى المدينة عبر الطريق الرئيس الذي تدبُّ فيه الحركة مجدّداً.

كان عليها أن تمرّ أمام المقاهي حيثُ يتناول أوّل زبائن الصباح إفطارهم، وأمام المحالِّ ودكاكين التبغ الذين يرفعون المصاريع الحديدية، ودكَّان الحلّاق والصّيدليّة وبوّابة المدرسة، حاملة دائماً العلبة الكبيرة على مَرأى من الجميع، وأن تصيح في كلِّ مَنْ ينظر لها بفضول وفي كلِّ مَنْ يتجاهلها: "لقد وَصَلَ الثوب من باريس لأجل آنستنا!". كان يجب أن تصيح بهذا طَوَالَ الطريق، وبمجرّد وصولها إلى المنزل تتلقّى فنجاناً من الحليب الساخن وبقشيشاً بسيطاً.

وبالطبع تحدّث بعض الأشخاص الذين رأوها تصعد الطريق، وانتشر الخبر بأن السّيّدة تيريزا بروفيرا حَذَتْ حذوَ والدها، وطَلَبَتْ ثوباً للابنة لهذه المناسبة المهمّة من باريس مباشرة.

ونظراً للنتيجة الجيّدة، تكرّرت التجربة في الصيف والشتاء. اشتركت السّيّدة تيريزا في مجلّة موضة فرنسية، كانت تُطلعُها على أحدث الموديلات. اكتشفنَ فيما بعد أن بمقدورهنّ أن يطلبْنَ من تيتو لوميا أن يُحضرَ لهنّ أيضاً الرسوم التّصميميّة مع ورق التفصيل المقوّى لقَصِّ القماش على الهيئة المناسبة. كانت الآنسة جيمّا تدير العمل. كانت هي تقصُّ وتَجمَع، وصارت النساء الثلاث الأخريات ماهرات في الخِيَاطَة، والتشطيب، والزخرفة، لدرجة أن الأثواب كانت تبدو وكأنها أُعدّت في مَشغل خِيَاطَة حقيقيٍّ، يضمُّ عُمّالاً متخصّصِين. بالطبع كان ينبغي تخطيط كلِّ شيء في الوقت المناسب، وبفترة مسبّقة طويلة. فلم تكن الأقمشة التي يعرضها لوميا مناسبة دائماً، وكان يجب، أحياناً، انتظار أخرى جديدة. ولم تكن الرسوم التّصميميّة الجديدة، مع تغيُّر الموضة، تحدث دائماً، أو يسهل تنفيذها. لكن الآنسة جيمّا كانت رائعة في التنظيم، ولم يخطئ المعمل المنزلي أبداً موعده مع المواسم الجديدة.

كلُّ ستّة أشهر كانت الخادمة الصغيرة تصعد الطريق الرئيس صارخة: "لقد وَصَلَتْ من باريس أثواب السّيّدة وآنستَيْنا".

صارت العلب ثلاث الآن، وسيكون الحفاظ على اتِّزانها فوق الرأس، حتّى في وجود لِفَافَة قماش تستند عليها، صعباً ومُتعِباً للغاية على البائسة، خاصّة في الشتاء عندما تكون الأقمشة ثقيلة جدّاً. لكن الآنسة جيمّا وَجَدَتِ الحلّ على الفور.قالت بأنه لا يوجد أيُّ داع لوجود الأثواب داخل العلب فعلاً، فلن يفتحَها أحد خلال الطريق الوجيز من المحطَّة إلى المنزل، ليتحقَّق منها. يمكنها، إذنْ، أن تُنقَل فارغة، وبداخلها فقط قليل من الورق الشّفّاف المكوّر.

لم تكشف الخادمة الصغيرة التي أفزعها التهديد المزدوج بالجحيم والفَصْل من العمل السِّرّ أبداً. ولا حتّى عندما كبرتْ وذَهَبَتْ للعمل لدى عائلة أخرى. جاءت فتاة جديدة من بلدة صغيرة بالداخل، وأُجبرَت على القَسَم هي أيضاً، وهكذا حتّى جاء دور تومازينا. كانت تومازينا بئراً عميقة، لأنها، بخلاف العبارة التي تصرخ بها طيلة الطريق الرئيس، لم تكن تتحدّث أو تفهم كلمة إيطالية واحدة، لكنها كانت تتواصل بلهجة محدودة للغاية تفهمها الآنسة جيمّا وحدها.

سارت الأمور حتّى تلك اللحظة بسلاسة، لم يشكّ أحد في المدينة بالخدعة، وذاعت شهرة الأثواب التي تأتي كلّ موسم من باريس في كلِّ صوب، حتّى في المُدُن القريبة، وأثارت إعجاب وحَسَد كلِّ السّيّدات نحو" متصنِّعات الطِّيبة والقداسة من نساء بروفيرا".

كانت الفتاتان هما مَنْ توصفان بذلك، لأن الجميع كان يعرف أنهما، بانتهاء مرحلة الصبا المتمرِّدة، نشأتا خجولَتَيْن ومطيعَتَيْن، لا تشغل رأسَيْهما أفكار غريبة، ولا تقرآن الروايات، وفي المناسبات الاجتماعية التي تشاركان فيها بالضرورة، كانتا تخفضان أعينهما إلى الأسفل دائماً، ولا تتغنّجان مع الشباب، ولم تظهرا قطُّ أيّ ميل أو تفضيل لشيء. كانت حياتهما تدور كلّها بين المنزل والكنيسة التي، إضافة إلى ذلك، كانت قريبة من منزلهما، حتّى إن الذهاب إليها لم يكن يتطلَّب سوى تمشية وجيزة. كانت "التسلية" الوحيدة التي تُتيحانها لنفسَيْهما هي أسبوعَيْن من التدريبات الرُّوحيّة في دَيْر راهبات القدِّيس بينديتُو، في صومعة على الجبل، تبعد كيلومترات قليلة عن مدينتنا. ولم تكونا تسافران إليه بمفردَيْهما، بل كانت

الوالدة أو العمّة تصحبانهما. كانت تلك الاستقامة، التي تُضاف إلى ثراء الوالد وتوقُّع مهر معتبَر، قد وفَّرت لهما كثيراً من طالبي الزواج من بين الشباب الذين ينتمون لأُسر طيِّبة، وتلقَّى المحامي بونيفاتشو طَلَبَات كثيرة، قُدِّمت بحصافة. وإذا كانت الشقيقتان لم تحظيا حتّى الآن بخطيب، بالرغم من عُمُرهما، فإن ذلك يعود إلى الوالد الذي كان يتطلَّع للأفضل.

في المعسكر الذُكُوريِّ كان الشّابُ ميداردو بيلاسكو هو أفضل فرصة زواج في المدينة على الإطلاق، وهو الحفيد المدلَّل للأسقف شديد الورع الذي نشأ في منزله، حتّى إنه قد تخلَّى عن الدخول إلى المعهد الدِّينيِّ وتناول النُّذُور فقط، لأنه كان الوريث الوحيد لأسرته. وكان والداه، كعمِّه، قد كرّساه لإحياء اسم العائلة. ويليه على الفور دون كوزما، وهو الابن الأكبر للبارون فيتّي، الذي التحق بالأكاديمية العسكرية م. وعاد منها حاملاً رتبة كابتن، ومتزوِّداً بمعرفة بالعالم، تفوق تلك التي يملكها كلُّ أترابه في المدينة. كان المحامي بروفيرا، في مشروعاته، قد خصّ به إيدا، بينما كان الشّابُ بيلاسكو يبدو له الزوج المثالي لألدا. كان قد

أجرى بعض الاستطلاع، دون أن يُبديَ ما في نفسه تماماً، ولم يجد مقاومة أو اعتراضاً. لكنه كان يعرف أنه من الأفضل عدم تعجُل الأمور. كان ينبغي التّصرُّف بطريقة تسمح للشباب الأربعة بأن يلتقوا مصادفة، وأن تترك الفتاتان انطباعاً جيّداً، وألَّا تجدا اختياري الوالد لهما كريهَيْن أو مُنفِّرَيْن. فقد حَدَثَ منذُ عدّة أعوام مضت أن هربت ابنه المهندس بيفِّي من المنزل، كي لا تتزوّج من الكونت أجياتي الذي كان مقرّراً لها، مفجِّرة بذلك فضيحة مرعبة، خاصّة وأنه لم يُعرَف أبداً أين انتهى بها المآل، ومع مَنْ، وكيف تحصل على قُوْتها.

كانت ألدا وإيدا قد رأتا الشّابّيْن عدّة مرّات، لكنْ، من على مسافة دائماً؛ من الشرفة، في الكنيسة، في المسرح، في الحدائق العامّة، وشاهداهما هما أيضاً. لم تتحدّثا إليهما قطُّ، ولم تسمعا صوتهما قطُّ. لم تتحدّثا عنهما حتّى مع الفتيات الأخريات، ولم تُنصتا لأقاويل أو شائعات حولهما. كانتا تعيشان حياة مُنطوية، تكتفيان ببعضهما، ولا تشعران بالحاجة إلى صداقات، ولا تتردّدان على أتراب من نفس

وَضْعهما. عندما سألهما الوالدان، أبدتا موافقتهما على اختيار الوالد، الذي ما إن شعر بالاطمئنان حتّى وَاصَلَ مداولاته.

كانت الأمور عند ذلك الحَدِّ عندما جاء إعلان زيارة الملكة الينا إلى مدينتنا، ليُربكَ سيِّدات المجتمع الراقي، البرجوازيات الثّريّات والأرستقراطيات، حيثُ سيقام حفل استقبال راقص ضخم في قاعة قصر المحافظة الكبيرة ذات الرسوم الجدارية. وُجِّهت الدعوة لكلِّ العائلات الأكثر أهمِّيّة، وكان البروتوكول غير المعلَن يتطلَّب أن تظهر السِّيّدات -"سيِّدات وآنسات البلاط" كما وصفتهنّ الدعوة - في ثوب جديد، لم يشاهَد من قبل. ازدحم مَشغَلا الخِياطَة الكبيران في المدينة عن آخرهما، لكنْ، كلاهما، بالرغم من توظيفهما كثيراً من العاملين المتميِّزين، لم يستطيعا إرضاء الطَّلَبات كافَّة في الوقت القليل المتاح.

استقلَّت بعض السِّيدات القطار، وذهبنَ إلى ج. التي كان فيها، ولكونها أكبر من مدينتنا، محالٌ كثيرة وجميلة ومشاغل خِياطَة

قادرة ليس على تفصيل أثواب جديدة في وقت وجيز فحسب، بل على ضبط مقاسات الأثواب التي وَصَلَتْ من تورينو وفلورنسا.

انتاب الفزع خَيّاطَات منزل بروفيرا الأربع السِّرِّيّات. كيف سيكون ممكناً، في أقلّ من شهر، الحصول على الأقمشة وإعداد ثلاثة أثواب ترقى إلى منزلة العرض أمام الملكة وسيِّدات بلاطها؟

كالمعتاد لم تهنْ عزيمة الآنسة جيمّا. استطاع تيتو لوميا بمعجزة، بعد أن أُخطِرَ بالحاجة المُلحّة، توفير ثلاث قِطَع من الحرير ذات تصميم أصلي شديد الجمال. حرير ثقيل جدّاً، ربّما كان مصنوعاً في الأساس للستائر، وليس للثياب، لكنّ طريقة قَصِّ الجيدة والمعالجة المنعّمة الخاصّة بالآنسة جيمّا سيجعلانه طَيّعاً للغاية.

تظلُّ مشكلة الوقت. "حتّى إن عملْنا ليل نهار، فلن ننجح في ذلك"، كانت السّيِّدة تيريزا تتحسّر حزينة. "ممَّا يعني أننا سنطلب هذه المرّة مساعدة خبيرة. وسنستخدم ماكينة خِيَاطَة"، أقرّت ابنة العمِّ.

وهذا كان دافع استدعائي. ولأنه لم يكن من المتوقَّع أن يمرّ ذهابي وإيابي دون أن يُلاحَظ، أذاعت السَّيّدة تيريزا خبراً بأن زوجها المحامي انتابتْهُ رغبة بالحصول على دزِّينَتَيْن من قمصان النوم المَخِيْطَة بالماكينة. كانت قد بدأت التّحدُّث عن قمصان فحسب، لكن ابنة العمِّ لَفَتَتْ نظرها إلى أنهم في المحكمة سيتحقَّقون ممَّا إذا كان الزوج يرتدي قمصاناً جديدة حقّاً. أمّا قمصان النوم، على النقيض، فلا يمكن سوى للزوجة والعائلة فقط رؤيتها.

كرّسنا ذلك اليوم، كما قالت الآنسة جيمّا، لقَصِّ وتجميع الثوب الأوّل، الخاص بربّة المنزل. جُمعت قِطَع القماش المختلفة بالدبابيس، ثمّ سُرِّجَتْ. لم أرَ قطُّ شخصاً يعمل بمثل سرعة وثقة ومهارة الآنسة جيمّا. في القَصِّ، لا يهدر ولا حتّى سنتيمتراً واحداً من القماش. وحيث كان يُتوقَّع تنفيذ طَيّات طولية رفيعة أو ثَنْيَات صغيرة، كانت السنتيمترات الزائدة الضّروريّة تُحسَب بالملليمتر. كانت التعامل مع القِطَع المقصوصة يتمُّ بحرص كبير، كي لا تنسل حوافُّها قبل أن تُسوّى بعناية (يحدث هذا مع الحرير أكثر ممَّا هو

مع الأقمشة الأخرى، وأكثرها متانة هو البركال، كنتُ أعرف هذا أنا أيضاً)، لكن ذلك يحدث فقط بعد أن تُوضَع كلُ قطعة: كُمْ، ياقة، أجزاء الصدار المختلفة، والتّنُورة، أوشحة ستُثنى كَطَيّات، وتُقاس على جسد السّيِّدة تيريزا انتظاراً لتُسرّج وتُقاسَ مرّة ثانية، ثمّ تُخاط. ومن أجل هذه العملية، كُنّ في انتظار ماكينتي ذات المقبض اليدوي، وقد طَلَبْنَ أن أُركِّب أصغر إبرة ممكنة. كانت الآنسة جيمّا ترغب في استخدام الماكينة في الطَّيّات الطولية الرفيعة والثّنْيَات الصغيرة أيضاً، لكنني شرحتُ لها أنه بوجود المقبض لن تكون الخِيَاطَة ممكنة في خطوط مستقيمة، متقاربة ومتوازية تماماً.

كنتُ سأستطيع عمل ذلك بالماكينة ذات المِدْوَسِ مستخدمةً كلتا يَدَيّ لتوجيه القماش، وعلى أيّة حال، سيكون الأمر صعباً جدّاً مع الحرير. كان عليهنّ الاستسلام لحياكتها يدوياً، كما فعلنَ دائماً، مستعينات بشريط القياس والمكواة.

حانت ساعة الغداء، لكن العمل لم يتوقَّف كما كان يحدث عادة عند العائلات الأخرى. أحضرتْ تومازينا إبريقاً من الشاي وخبزاً محمّصاً، فابتعدت الخَيّاطَات الأربع، كلٌ في دورها، لِلَحظة عن الطاولة، كي يشربنَ فنجاناً من الشاي، ويمضغنَ في عجلة شريحة من الخبز المحمّص، ويغسلنَ أيديهنّ في وعاء الغسيل الصغير، ويعدنَ سريعاً إلى العمل. لم يُقدّم لي شيء. "ستجدِّدينَ طاقتكِ على العشاء"، قالت لي الآنسة جيمّا. "وأحضري غداً شيئاً تأكلينه سريعاً، لأنني لن أعطيكِ استراحة أكثر من خمس دقائق".

عندما حلّ الظلام، تدلّى مصباح الجاز الجميل المصنوع من الأوبال الوردي والمعلّق بسلسلة معدنية متحرِّكة فوق الطاولة. كان الضوء واهياً، فسّرنَ لي أنهنّ يتحكّمنَ في فتيلة المصباح وَفْقَاً لدرجة دَكَانة لون القماش. وكان هذا القماش فاتحاً وذا ألوان زاهية. حتّى في ذلك النّزْر القليل من الجاز كان عليهنّ التوفير استجابة لأمر المحامي بونيفاتشو.

صَرفَنَني عندما دقّ جرس القدِّيسة كاترينا مُعلِناً صلاة الغروب. كانت عيناي تؤلمانني، وكذا أطراف أصابعي، فقد كان واحد منها فقط مَحميّاً بالكشتبان، وكنتُ أخشى ألّا يتوقّفنَ عن الخِياطَة قبل صلاة المساء. عدتُ إلى المنزل والدنيا ظلام دامس، تقودوني مصابيح الغاز الكبيرة في الطريق، وأشعر بأنني مُتعَبَة بشدّة، كي أطهوَ لنفسي شيئاً. أكلتُ بعض الخبز مع قليل من الجبن، ودفّأتُ ربع لتر من الحليب. كان قوياً إغواء تَرْك العمل، وعدم الذهاب غداً وإرسال أسونتينا، ابنة الكاوية التي تسكن في مواجهتي، لتخبرهنّ أن يبحثنَ عن شخص آخر. لكنني كنتُ أعرف أنه ليس في استطاعتي فعل ذلك، سيُشاع بأنني شخص غير موثوق به، ولن يستدعيَني أيٌ شخص آخر للعمل بعد ذلك. ثمّ إنني، وعلى الرغم من غرابة الموقف، والجهد الزائد الذي يُطلَب منّي، وإهانة عدم تقديم الغداء لي، كنتُ أعي أنني سأتعلّم الكثير جدّاً من هذه التجربة الجديدة. لم أكن قد حَصَلَت قطُّ على دَرْس حقيقي في الخِيَاطَة، فمعلِّمتي الوحيدة كانت هي جَدّتي. لا شيء له علاقة بفنِّيّة عمل مشاغل الخِيَاطَة الكبيرة، تلك التي تُرى في الأثواب المعروضة في الواجهات، وفي رسوم مجلّات الموضة، والتي ربّما

كانت جَدّتي تجهل وجودها. تصفَّحت أنا، على النقيض، كثيراً منها، ما يكفي لأفهمَ أن الآنسة جيمّا لديها مهارة، تفوق بكثير مهارتنا نحن الخَيّاطَات المتواضعات، فنِّيّة عمل ممتازة، ذوق راقٍ، وربّما، أيضاً، هِبَة خاصّة. ولو أنها فتحت مَشغل خِيَاطَة، لسرقت أفضل زبونات لا سوبريما إليجانزا وبيلى دامى(). ثمّ إن عملي في منزل بروفيرا سيستمرُ لمدّة شهر فقط، والأمر يستحقُ احتمال قليل من الجوع والتعب.

كان جفناي يسقطان من النعاس، لكنني وجدتُ القوّة للخروج والذهاب إلى الكاوية التي كانت فقيرة للغاية، وفي حاجة دائمة ويائسة، لكَسْب بعض القروش الإضافية. طَلَبْتُ منها، نظير مقابل متواضع، أن تطهوَ لي بعض العصيدة، وأن تُحضرَها لي غداً صباحاً محمّصة تماماً، وشرائحها ملفوفة في ورقٍ شَمْعِيٍّ، وأن تعدّ لي بعض العشاء، ربّما حَسَاء حمُّص وشَمَر، تتركه لي مساءً إلى جانب الموقد. وأن تهتمّ، هي بالأخصِّ، طَوَالَ ذلك الشهر بنظافة سُلَّم ومدخل بنايتي، كما تفعل عادة عندما أرتبط بعمل ما. كان الظرف في الدرج الأوّل من خزانة الأدراج فارغاً تقريباً. اضطررتُ للمرّة

الأولى إلى اللُّجوء إلى مدّخر علبة الحليب. صبراً، لن أذهب ذلك العام إلى المسرح. كنتُ آمل ألّا تجد مالكة المنزل ما تُعلِّق عليه بسبب ذلك الإحلال المؤقَّت، لكنني كنتُ أشعر بأنه لن يمكنني الاستيقاظ كلّ صباح في الرابعة والنصف، كي أعمل بعد ذلك بالإبرة حتّى قدّاس الغروب.

وأخيراً سَقَطْتُ على الفراش. نمتُ بعمق حتّى إنني لم أتذكَر أيّاً من أحلامي في الصباح، باستثناء بعض ومضات الرؤيا، كتصميم الحرير الملوّن الذي لم يكن على هيئة ثوب، صُنع وَفْقَاً لموضتنا، بل على شكل كيمونو مدام بترفلاي، بأفرع زهور الكرز، كما رأيتُهُ في المسرح العام الماضي. في الحقيقة، عندما رأيتُ في يقظتي، في اليوم التالي، تلك الأقمشة وتلك التصميمات مجدّداً، استدعتْ إلى ذهني الرسوم الملوّنة والصُحُف التي كانت تُصوِّر الشخوص والأماكن اليابانية. كنتُ أتطلّع إليها بإعجاب في المجلّات، أو في بعض الصور المعلّقة على الجدران في منزل الآنسة استر. كانت الماركيزة الشّابّة قد قصّتْ عليّ منذُ بعض الوقت أن اليابان قد صدّرت موضة عظيمة إلى الخارج، موضة تُدعى "التأثير الياباني".

استُقبِلَت ماكينة خياطتي بفضول عظيم، واستطاعت الآنسة جيمّا على الفور تعلُّم وتعليم إدارة المقبض اليدوي للفَتَاتَيْن وَفْقَاً لإيقاعي في العمل، بما يدع كلتا يَدَيّ حُرّة لتوجيه القماش. كان العمل يسير سريعاً بهذه الطريقة، وكان التشطيب وتركيب السِّجَاف وإضافة الشرائط والحشوات والمشابك والأزرار هو ما يستلزم وقتاً أطول، فكلُّها عمليات ينبغي أن تتمّ يدوياً، بتركيز كبير وبدون عجلة. اقتسمْنا العمل. بينما كانت الوالدة والابنتان تُنهينَ الثوب الأوّل، كنّا أنا والآنسة جيمّا نقصُ ونحيك الثاني، ثمّ الثالث. ملأني الذهول والإعجاب لرؤية كيف تجمع الآنسة جيمّا، بحركات قليلة واثقة، أجزاء القماش المقصوصة المختلفة - بعضها كبير، وبعضها الآخر متوسِّط وصغير - وتُثبتها بالدبابيس، وتُسرِّجها، ثمّ بعد أن تطلب من صاحبة الشأن ارتداءها لقياسها، تُمرِّرها لي،كي أخيطها، وهي تتابع باهتمام مسار الإبرة، ثمّ كيف يتغيّر مظهر ذات القِطَع المقصوصة، عندما كانت تأخذها من يدي، وتبسطها برقَّة، وكيف تصبح كياناً واحداً ثلاثي الأبعاد، بهيأة جذّابة. لم أكن لأعرف وقتها استخدام الكلمات التي تصف دهشتي، لكنني، بالتأكيد، كان يتملّكني إحساس بأنني أرى معجزة تتحقّق.

كنّا نُجمّع الجِذْعَ أوّلاً، وفقط بعد أن نحيكَ الأكمام والياقة، ونتحقَّق من المقاس، كنّا ننتقل إلى تركيب التّنُورة، وتجربتها على جسد أولى الآنسَتَيْن أو أخراهما، ونُثبّتها بالدبابيس، ونُسرِّج خطّ الخصر، وفي النهاية نُمرِّرها تحت الإبرة. كان الأمر، بالنسبة إليّ، وربّما بسبب قيمة القماش الثمينة، يشبه رؤية زهرة تتفتّح أوراقها، الواحدة تلو الأخرى. وفي مخيّلتي، كانت الآنسة جيمّا تشبه الجنّيّة الراعية لسندريلا التي تُحوِّل بحركة من عصاها السِّحْرِيّة الأسمال البالية إلى ثوب جديد بأميرة. ولأجل كبريائي لم أُظهِرْ دهشتي قطُّ، بل كنتُ أتظاهر بمعرفة كلِّ خطوة وكيفية تنفيذها. لكنّني تعلّمتُ الكثير عن الخِياطَة في ذلك الشهر، أكثر ممّا علّمتني جَدّتي في أعوام طَوالَ، وأكثر ممّا درستُ في المجلّات.

كنتُ أعود كلّ ليلة إلى المنزل متعَبَة للغاية، وأنا أجرُّ خلفي ماكينة الخِيَاطَة. لم أكن آمن لتَرْكها في منزل بروفيرا. فربّما يلمسها أحدهم، ربّما تومازينا، بدافع الفضول، ويدير العجلة في اتّجاه عكسي، يلوي الجِذْع أو حامل الإبرة، ويحطّمها. كنتُ أُفضِّل أن أحتفظ بها دائماً تحت بصري. ما إن أعود إلى المنزل حتّى ألتهمَ

بشراهة الحساء والخبز مع ذلك الإدام القليل، اللّذَيْن تتركهما لي الكاوية دافئَيْن في ركن موقد الفحم. كنتُ أتساءل كيف تستطيع رفيقاتي الأربع في الخِيَاطَة الصمود لساعات اعتماداً على شرائح خبز محمّصة قليلة. فلم تكن تعطيني وجبة منتصف النهار من العصيدة والجبن، التي أبتلعها سريعاً سوى نَزْرٍ قليل من الطاقة. لكن الرضا عن العمل الذي يتمُّ كان يجعل كلّ أزمة قابلة للطَّيِّ والنسيان.

اختارت الآنسة جيمّا ثلاثة موديلات قريبة الشبه من بعضها للغاية، مع اختلافات طفيفة خاصّة في تَنْيّات الجانبَيْن، وفتحات الصدر، والجوبير والشرائط. كان لموديلَي الفتاتَيْن حشوة خلفية غير بارزة بشكل زائد. كانت الأكمام تنتفخ قريباً من الكتفَيْن ككرة مثلما تتطلَّب الموضة، ثمّ تضيق عند المَرْفِق، والجِذْعُ ينزلُ مُدبّباً من الأمام، وتنسدل التنانير المنتفخة على الجانبَيْن. عندما أصبحت الأثواب جاهزة أخيراً، لم يكن أحد ليقول إنها أُعدّت في المنزل. أمّا الآنستان، فكما توقَّعت، وبمجرّد أن ارتدتاها، وقامت العمّة بتصفيف شَعْرهما، مضخّمة من كثافته باستخدام لِفَافَة الشّعْر، وزيّنتْهُ

بالريش والشرائط، فيما يشبه البروفة العامّة، فقد بَدَتَا كنموذجَيْن للجمال. كان ثوب الوالدة أكثر تواضعاً بقليل بما يليق بعُمُرها.

كان المحامي بونيفاتشو، الذي دَخَلَ هو أيضاً إلى غرفة الخِيَاطَة، ليشاهد البروفة، يفيض بالرضا. ودون أن ينتابه القلق لوجودي، أو ربّما كان يعلم بأمر القَسَم، أبلغ النساء أن المداولات مع الضابط الشّابِّ وابن أخ الأسقف قد انتهت بشكل طيّب. والآن يحين دَوْر ألدا وإيدا لكَسب موافقة ومباركة حماتَي المستقبل اللّتَيْن ستشاركان برفقة زوجَيْهما والأسقف في حفل استقبال الملكة. وبالطبع، ينبغي عليهما كَسْب إعجاب زوجَي المستقبل اللّذَيْن لن يريانهم عن قرب لأوّل مرّة فقط، بل سيحظيان خلال الرقص بأوّل اتِّصال جسدي محترم معهما، وسيتنشّقان عطرهما. " تذكّرا أن تأخذا معكما، وأن تلُوكا أقراص حلوى النعناع أو البنفسج"، كان المحامي يوصي. " لا يوجد شيء يثير اشمئزاز الرجل أكثر من رائحة الفم السّيِّئة. وتحدّثا قليلاً". سيلامس الشّابّان شَعْرهما بوجنَتَيْهما، وسيُثَمِّنان نعومة اليَدَيْن، والخصر النحيل والعنق الأبيض اللّيِّن. "لا مجال إلّا أن تثيرا إعجابهما".

كان وجها الفتاتَيْن يحمرّان خجلاً لكلمات الوالد. كان عليّ أنا أيضاً أن أحلم متخيّلة سِحْر ذلك اللقاء الأوّل، ميلاد شعور بالانجذاب، نشأة إحساس بالحُبِّ. لكن قصّة الآنسة استر والماركيز ريتسالدو علّمتْني كم من الأكاذيب تختفي خلف هذا الوَهْم. كنتُ أنظر إلى الشّقيقَتَيْن في ثوبَيْهما شديدَي الجمال، ذوَي التصميم الياباني، وأفكِّر في مدام بترفلاي المسكينة التي وقعت ضحية الإغواء والخداع والهجر والانتحار. لقد أُنقِذَت الآنسة استر بفضل والدها، لكن تشو - تشو - سان لم يكن لديها والد، فقد قَتَلَ نفسه، ليُنقذَ شرفه، كما ستفعل أيضاً الابنة المنبوذة. كيف ستكون ردّة فعل المحامي إذا حَدَثَ وتصرّف الصهران، بعد إتمام الزواج، بشكل سيِّئ مع ألدا وإيدا؟

تحدّثتُ عن هذا مع الكاوية ذلك المساء، فاتّهمتْني، بالرغم من أنه كان لديها زوج سِكّير يضربها، بالإفراط في التشاؤم. لا أحد منّا كان يمكنه أن يتخيّل كيف ستنتهي قصّة خطبة آنستَي عائلة بروفيرا.

عندما صارت الأثواب جاهزة، لم يكن يتبقَّى على وصول الملكة سوى ثلاثة أيّام فقط. دَفَعَتْ لي الآنسة جيمّا المبلغ المتّفق عليه دون أن تضيف قرشاً واحداً كبقشيش، وصرفتْني مذكِّرة إيّاي بالقَسَم. كان الربح هزيلاً أمام العمل الكثير، لكنني كنتُ سعيدة لأن ما تعلَّمتُهُ كان ذا قيمة لا تُقدّر بثمن.

في اليوم التالي، وبالرغم من أنني كنتُ مُتعَبَة للغاية، نهضتُ مبكِّرة، ونزلت إلى الطريق الرئيس، وتوقَّفت عند باب الحلّاق. لم أضطرّ للانتظار طويلاً: ها هي تومازينا، حافية، تصعد مجدّداً على طول الرصيف مع العلب الزرقاء الكبيرة فوق رأسها، صائحة: "وَصَلَتْ من باريس أثواب السّيّدة وآنستَيْنا!" عندما مرّت بالقرب منِّي، تقاطعت نظراتنا، وانطلقتُ أنا في الضحك، بينما ظلَّت هي جامدة، دون أن تُبدي أيّ إشارة بأنها تعرفني.

وكالمعتاد انتشر خبر وصول " أثواب باريس"، وكالمعتاد خَرَجَ فضول وحسد السّيّدات اللّاتي كنّ من المفترض أن يشاركنَ في حفل استقبال الملكة على هيئة شائعات ونميمة حول بخل

المحامي الغريب الذي لا يفتأ يسمح لخُيَلاء نساء منزله بتبذيرٍ كذلك.

لكنْ، لا أحد، بما في ذلك أنا، كان يشكُّ في أن ألدا وإيدا بروفيرا ستكونان آنسَتَي الحفل الأكثر أناقة. وكان يسري أيضاً في قاعات الاستقبال نبأ مداولات الزواج التي انتهت على نحو طيِّب، وكان يُنتظَر الإعلان الرّسميُّ عن الخطبَتَيْن خلال الحفل أو - إذا لم تسمح مراسم البلاط بذلك - في الأيّام التالية عليه مباشرة.

وَصَلَتِ الملكة مع حاشيتها في القطار. كانت الرحلة من العاصمة طويلة للغاية، لأن القطار كان يجب عليه أن يتوقَّف كلّ بضعة كيلومترات، لتُلقي تحيّة الأهالي الذين كانوا يقدِّمون الزهور، ويلوحون بالأعلام، وقد احتشدوا على أرصفة المحطّات الصغيرة. في مدينتنا كانت كلُّ واجهات المحالِّ تعرض صورة المَلَكة مُحاطَة بالأميرَتَيْن الصّغيرَتَيْن ووَلِيِّ العهد مرتدياً ثياب البَحْرِيّة. كنّا جميعاً: السّيّدات الراقيات، والبرجوازيات ونساء الأزقَّة، وبالأخصِّ نحن الخيّاطَات المعروفات والمتواضعات اللّاتي يعملنَ بأجر

يومي، نشعر بالفضول لرؤية الثياب التي سترتديها الملكة. كنّا نعلم أنه قد قيل عنها عند وصولها إلى روما عروساً شابّة أنها قروية وغير أنيقة، وأن نسيباتها من أسرة سافويا كنّ يدعونها باحتقار بـ "راعية الغنم". لكن الناس البسطاء كانوا يمتدحونها. احتشد لدينا نحن أيضاً جمع غفير بطول أرصفة المحطَّة لاستقبالها بإيماءات التقدير، ولا أخجل من أن أقول إنني كنتُ أنا أيضاً بين الحشود. يجب أن أعترف أنني بسذاجتي كنتُ فخورة بأن ثلاثة أثواب، أسهمتُ أنا في تفصيلها، وخاطتْها ماكينتي ذات المقبض، ستراها الملكة وربّما تلمسها أو تمتدحها. راعية غنم أجل، لكنها معتادة على ارتداء الثياب من أفضل محالِّ الخِيَاطَة في إيطاليا وأوروبا.

أقامت الملكة وحاشيتها في فندق إيطاليا، أكثر فنادق مدينتنا فخامة. استراحت الملكة في اليوم الأوّل من الرحلة، واستقبلتْ، بشكل خاصٍّ، أولى سلطات المدينة. كان مقرّراً للحفل الراقص الكبير أن يقام في اليوم التالي.

ما حَدَثَ خلال الحفل عرفتُهُ فقط بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيّام. في البداية جرت محاولات لإخفاء الفضيحة، وعندما لم يعد ممكناً مَنْع سريان الشائعات في كلِّ مكان، خَرَجَتْ مرتبكة، وملتبسة ومبهمة. لم يكن بمقدور أحد أن يفهمَ كيف يمثِّل اكتشاف عدم مجيء أثواب نساء بروفيرا الثلاثة من باريس، وإعدادها في المنزل، إذلالاً لهنّ، وتعدِّياً على الملكة، وإهانة جسيمة لها وللسّيِّدات الراقيات الأخريات الحاضرات. حتّى إنه قد جرى الحديث عن محاولة لـ "العيب في الذات المَلَكِيّة"، وإن لم يُتّخذ ضدّ المحامي بونيفاتشو أيُّ إجراء تأديبيٍّ. لكنّ سُمعة العائلة، وخاصّة الفتاتَيْن، كما يقال، تحطَّمَت إلى غير رجعة.

ولبعض الوقت سَرَى الخبر شفهياً وهَمْساً فحسب. ظلَّت بوّابة منزل بروفيرا في ميدان القدِّيسة كاترينا مغلقة. كانت وجوه الأقارب وأولئك الذين كانوا أصدقاء العائلة تحمرُّ خَجَلاً عند ذِكْر الموضوع وكانوا يرفضون الخوض في ذلك الشأن. كان التعليق الوحيد الذي انتُزع من أحدهم يتكوّن من كلمَتَيْن فقط: " غير مبرِّر!"، لكنْ، بعد رحيل الملكة بدأ الأشخاص الذين كانوا

حاضرين في الحفل في الحديث بحُرِّيّة أكبر، وقَصّ العازبون، غير المرتبطين بزوجات قد يُضطرُّون لتبرير تصرُّفاتهم أمامهنّ، والذين يتفاخرون بمغامراتهم العاطفية، التفاصيلَ الأكثر إثارة، ولم يعد بمقدور المُحافِظ والسلطات الأخرى إسكات الصحافة. بعد الواقعة بعشرة أيّام، نشرت إحدى الصُحُف الساخرة الجريئة بشكل خاصٍّ، من ذلك النوع الذي لا يدخل المنازل التي تضمُّ فتياتٌ في سنِّ الزواج، تعليقاً مطوّلاً عنها. ومن تلك الصحيفة عرفتُ أخيراً ما حَدَثَ، بذهول، لكنْ، بقليل من الراحة، لأن الصّحَفِيّ كان يتحدّث عَرَضَاً فقط عن تفصيل الأثواب منزلياً، دون أن يُوليَ ذلك أهمِّيّة كبيرة، ولم يُذكَر اسمي، لكنه كَتَبَ " بمساعدة خَيّاطَة متواضعة، تعمل بأجر يومي". احتفظتُ بالصحيفة، كي أُريَها للآنسة استر عند عودتها، ولا أزال أحتفظ بالقُصَاصَة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أتورّط فيها، وإن كان دون ذِكْر اسمي، في فضيحة، ولم تكن الأخيرة. لكنني سأتحدّث عن المرّة الثانية فيما بعد. أمّا الآن، فسأكتفي بإشباع فضولكم، أنتُم القُرّاء، حول ما حَدَثَ تلك الليلة في قاعات قصر المحافظة ذات الرسومُ الجدارية.

إذن، كانت المراسم تنصُّ على أنه في المرحلة الأولى من حفل الاستقبال ستنفصل السَّيِّدات، بمجرَّد وصولهنّ، عن السادة، لتجتمعنَ في القاعة المسمّاة بقاعة الحوريّات، بسبب الرسوم الجدارية التي تزينها، والمجهّزة، لأجل هذه المناسبة، بحجرة معاطف بالمرايا الطُّوليّة، ومرايا تصفيف الشَّعْر، حيثُ يمكنهنّ خَلْع العباءات، وترتيب ثيابهنّ، وتصفيفات شَعْرهنّ. ما إن ينتهي وصول المَدعوِّين، وتُغلَق بوّابات قصر المُحافظة، ستلحق السَّيِّدات بأزواجهنّ، أو آبائهنّ أو إخوانهنّ في قاعة الجداريات البَحْرِيَّة. وستُقدّم لهم مشروبات مُنعِشة خفيفة انتظاراً لأن تصلَ الملكة إلى الصالون الرئيس، وتأخذَ مكانها، وتستعدّ لتلقِّي تحيّات احترام الضيوف، الذين يجب أن يصطفُّوا أمامها واحداً تلو الآخر، بترتيب أهمِّيّتهم، ويُقدّموا إليها. بعد هذا الاحتفال ستبدأ الرقصات.

في صالون حجرة المعاطف عندما خَلَعَت السَّيِّدة تيريزا وابنتاها العباءات، هكذا تقصُّ الصحيفة، سَلَبَت "الأثوابُ الباريسيّةُ" الثلاثةُ أنفاسَ السَّيِّدات الأخريات إعجاباً واندهاشاً، وأضاف الصَّحَفِيُّ بخُبث، "وحقداً مستتراً". كانت الأرستقراطيات الأكبر سنّاً والأكثر

تكبُراً ينظرنَ إلى الأثواب بالمنظار، باحتقارٍ، ومن بعيد، لكن أغلب السّيّدات اقترب لملاحظتها عن قُرب، ولامتداحها بقَدْر من النفاق قلّ أو كَثرَ. من جانبي، كنتُ أفترض أن قريبات وصديقات العائلة، العالمات بشأن مداولات الزواج، قد احتضنّ ألدا وإيدا هامسات في أُذنِ كلٍّ منهما: "ستحظين به بالتأكيد، حظّاً سعيداً!" وكنتُ أتساءل إذا ما كانت شقيقة الأسقف والكونتيسة فيتِّي، الحماتان المستقبليّتان، قد ثمّنا بساطة التّصرُّفات، وأقرّا بأناقة ثوبَي آنستَي عائلة بروفيرا، وأبدتا لهما إيماءة مباركة.

وها هنّ، تابع الصّحَفِيُّ، السّيّدات تلحقنَ بالسادة في قاعة الجداريات البَحْرِيّة. دَخَلَتْ نساء آل بروفيرا بتواضع بين آخر السّيّدات. رأى ابن أخ الأسقف ألدا، أضاءت نظرته، وهَمّ بالذهاب إليها، لكن العمّ شدّ على ذراعه بقبضة حديدية، وثبّتَهُ إلى جواره. صار قداسته قِرْمِزِيّ الوجه، غير مُصدِّق. كما أوقف الكابتن فيتِّي أيضاً، في منتصف الطريق، دون كوزما الذي كان يتّجه نحو إيدا مبتهجاً. وسَرَتْ همسات احتقار واستياء بين أفواه السادة. لم تفهم السّيّدات، بمَنْ فيهنّ نساء بروفيرا الثلاث. ليس بمقدورهنّ أن

يفهمنَ. ولم يستطع السادة، أضافت الصحيفة، شرح سبب استيائهم. عند هذا الجزء من القراءة تساءلتُ باندهاش كبير كيف يمكن لسادة لم يُمسكوا في أيديهم بإبرة قطُّ أن يعرفوا ما لم تدركْهُ الزوجات، أيْ تفصيل الأثواب منزلياً؟! ولماذا أغضبهم ذلك، ولم يستطيعوا تفسير سببه؟! إن عليةَ القوم، كما اعتادت جَدّتي أن تقول، هم أناس غامضون حقّاً.

لكن الصّحَفِيّ، بعد أن أثار فضول القُرّاء، شَرَحَ الدافع على الفور، دافعاً مختلفاً تماماً وأكثر خطورة ممَّا خشيتُ.

لم يُدركْ أحد أمر تفصيل الأثواب في المنزل، وليس في باريس. بل كان الاعتقاد بأنها قد خِيطت في العاصمة الفرنسية هو ما أعطى مصداقيةً أكبر لسبب الفضيحة.

لم تكن خِيَاطَة الثياب هي ما أثار استياء السادة، ولكنْ، القماشُ: الحريرُ الجميل ذو الرسوم غير المألوفة الذي تعبت فيه أناملنا لشهر كامل. كيف؟ لأن أغلبهم تعرّف على عائديّته لإحدى دُوْر الخطيئة

الشهيرة، ماخور شهير، لا ينبغي أن تشكَّ زوجاتهم القدِّيسات، وبالأحرى الملكة، في وجوده من الأساس.

عُرف فيما بعد – وهو ما لم يكن الصّحَفِيُّ يعلمه آنذاك، ولم يكن بمقدوره كتابته (بينما ارتبتُ أنا فيه على الفور) – أنه بدون علْم نساء بروفيرا المسكينات، اشترى تيتو لوميا، الذي ربّما لم يكن هو نفسه يعلم لأنه كان نصف أُمّيٍّ، ولا يقرأ الصُّحُف، من سفينة فرنسية باقي الأقمشة التي أُثِّثَت بها قبل بضعة أعوام "الغرفة اليابانية"، فخر أحد أكثر المواخير الفرنسية فخامة، والذي يُدعَى – وأنا أنقل هنا الاسم من قُصَاصَة الصحيفة – لو شاباني. كان كلُّ رجال إيطاليا وأوروبا والعالم المتمدِّن يعرفونه، لِصِيتِهِ على الأقلِّ. بينما كنّا نحن النساء، نكتشف الآن وجوده، بكلِّ تفاصيله المثيرة للشّبَق، من صفحات الصحيفة الساخرة. كان أكثر مواخير أوروبا شهرة، يرتاده فاحشو الثراء، وأصحاب السيادة، والفنّانون الأكثر شهرة، ومَنْ يمتلك القدرة، ربّما مرّة واحدة وعلى سبيل الفضول كما حَدَثَ لبعض مواطنينا، على دَفْع أقلّ رسوم تُقدّر بخمسمئة فرانك. كان لوَلِيِّ عهد إنجلترا في لو شاباني غرفة خاصّة به، مؤثّثة بأثاث جميل

للغاية، صُنع خصِّيصاً له، وحوض استحمام من البرونز المذهَّب، على هيئة سفينة ذات حلية في المقدِّمة، يملؤه بالشامبانيا، ليستحمّ فيه عارياً مع واحدة أو أكثر من "نزيلات" المنزل. وكان لكلٍّ من الغرف الأخرى المخصَّصة للزبائن " العاديّيْن" موضوع: الغرفة المورسكية، الهندية، الوسيطة، الرُوسيّة، الإسبانية، واليابانية. كان أثاث الغرفة اليابانية أنيقاً ومُتقناً حتّى إنه عندما عُرِض في المعرِض الدُوليِّ عام□□□، فاز بالجائزة الأولى في قطاع الفنون الزُخرفيّة، وظَهَرَتْ صورته على صفحات بعض المجلَّات المصوَّرة، تلك التي لا تتداولها العائلات الفاضلة. كانت ستائر الغرفة الطويلة والقصيرة، وكساء قِطَع الأثاث ومظلَّة الفراش الضخم، قد صُنِعَت كلُّها من الحرير الجميل الموشّى بأفرع زهور الكرز بثلاثة ألوان مختلفة، نفس ألوان أثواب نساء بروفيرا الثلاث. نوع من الحرير، كما حدّد العارضون، ذو تصميم فريد، أصلي، وحقّ استخدام حصري.

كيف، تساءل السادة وتساءلت الصحيفة، حَصَلَت إحدى أكثر العائلات شهرة وتقديراً في مدينتنا على ذلك القماش؟ ربّما كان المحامي بونيفاتشو بروفيرا يمتلك أسهماً في لو شاباني؟! ربّما،

ألمح أحدهم، كانت الآنستان، عندما تغيبان بحجّة أداء التدريبات الرُوحيّة، تذهبان على النقيض إلى باريس لممارسة أقدم مهنة في العالم لمدى مؤقّت؟ وكيف ارتدينَ تلك الأثواب الفاحشة وغير اللّائقة لاستعراضها أمام الملكة؟! أهو على سبيل تحقير وإهانة المَلَكِيّة؟! أو ربّما كان المحامي ذو النزعة الجمهورية والمنحازة لماتزيني هو مَنْ رتّب كلّ شيء بالتشاور معهنّ لإهانة الملكة عَلَناً؟!

كان هذا، كرّر الصّحَفِيُّ، هو ما تساءله السادة الحاضرون في صالون الجداريات الزرقاء. تعرّف جانب كبير منهم على القماش فوراً، لأنهم رأوه بأعينهم خلال إحدى رحلاتهم إلى باريس، بمَنْ في ذلك سيادة الأسقف الموقَّر، الذي أراد هو أيضاً إرضاء تلك النزوة. (كانت الصحيفة الساخرة والمعارضة للهيئة الكنسية تُصرُّ على هذه التفصيلة باستمتاع). كما تعرّف عليه أيضاً، للسبب ذاته، رجال حاشية الملكة الذين جاؤوا معها من العاصمة. الوحيد الذي كان يجهل سواء وجود الماخور أو أثاثه هو طالب اللّاهوت الذي لم يُكمِل دراسته، والذي، على النقيض من عمِّه الأسقف، كان يأخذ على محمل الجدِّ الوصية السادسة. لكنْ، إذا لم يكن

بمقدوره، كحال الكابتن دون كوزما فيتِّي، أن يقبل بخطبة شابّة تحيط برأسها ظلال شكٍّ قاتم، فإنه لم يكن بمقدور رجال الحاشية أن يسمحوا للسِّيّدات الثلاث الوقحات بالاقتراب من الملكة، وإهانتها. اقترب اثنان من الجنود الرماة في زِيِّهما الرّسميِّ من السِّيّدة تيريزا والابنَتَيْن، وأبعداهنّ عن القاعة، وقد حاولا دون جدوى أن يكونا حصيفَيْن. تبعهم المحامي دون أن يفهم. كان الإذلال عنيفاً بالنسبة إليهم، لكنْ، لحسن الحظِّ كانت الملكة لا تزال في الصالون الآخر، ولم تعرف بكلِّ تلك المناورات، وسارت بقية الأُمسيّة كما كان مخطَّطاً لها.

لكنْ، كما هو متوقَّع، حَدَثَت خلف الستار بلبلة كبيرة. بمجرّد رحيل الملكة، أرسل المُحافظ ورئيس الشرطة في استدعاء المحامي بروفيرا لسؤاله عن سبب الإهانة. أُسقِط في يَدَي المحامي: في حدود معرفته، لم تكن الأقمشة المُدانة فاضحة على الإطلاق، وكانت تنتمي إلى جهاز عرس زوجته الذي جاء من باريس، أجل، لكنْ، منذُ ما يقرب من ربع قرن مضى، ولم يكن بمقدوره التّعرُّف على هُوِيّتها، لأنه بالرغم من أنه قد سافر إلى

باريس وحده مؤخّراً، إلّا أن بخله - أكثر من وفائه لزوجته - مَنَعَهُ من ارتياد مكان منحلٍّ مكلفٍ للغاية مثل لو شاباني. كما أنه لم يكن يعرف بأمر تيتو لوميا، ولا بعمليات التهريب التي تتمُّ من وراء ظَهْره على يد نساء المنزل. أقرّ بخدعة العلب الكبيرة والإعداد المنزلي للأثواب فقط. وكمحامٍ كان يعرف أن خداع الرأي العامّ والسخرية منه ليست جريمة. إنه أمر محرِج، أجل، لكنْ، ينبغي على السّيِّد المُحافظ والسّيِّد رئيس الشرطة أن يوافقا على أن أثواب الزوجة والفتاتَيْن كانت أكثر جمالاً وأناقة ودقَّة في الصُّنْع من أثواب السّيِّدات الأخريات. كان يستمرُّ معانداً في إنكار أن الأقمشة تحمل إهانة ما. اضطرّ المسؤولان إلى تأجيل الجلسة، واستدعاء السادة الآخرين (لكنْ، ليس الأسقف) للشهادة، وأمامهم اعترف المُحافظ ببعض الفخر بأنه قد ارتاد هو نفسه بيت المتعة الفرنسي. وليس فقط، بل عُرِضَت على المحامي بونيفاتشو المجلّة التي تضمُّ صور الغرفة اليابانية التي فازت في المعرِض، وبعض التقويمات الصغيرة المعطَّرة الخاصّة بمُزيِّني الشَّعْر، حيثُ يمكن التّعرُّف بكلِّ دقَّة على تصميم القماش الفريد.

هنا ينتهي مقال الصحيفة بأُغنيّة مستهزئة قصيرة منسوبة إلى الطَّلَبَة الجامعيّيْن، يمثِّلون فيها، شِعْراً، المشاهد العائلية المحرِجة، حيثُ يضطرُّ الأزواج النبلاء والأغنياء للاعتراف بخيانتهم وإسرافهم إلى الزوجات الخجلات.

بعد شهرَيْن تقريباً، اضطُررتُ للذهاب إلى كنيسة القدِّيسة كاترينا لحضور جنازة. في أحد المقاعد كانت تجلس الآنسة جيمّا، ترتدي السواد، وكأنها في حِدَاد على أحد أفراد العائلة المقرّبين، وقد فَقَدَتْ وزنها، وشحب وجهها، وتظهرُ رعشة في يَدَيْهَا، لم تستطع التّحكُّم فيها. تلك اليدان اللتان رأيتُهما شديدَتَي الثبات والثقة في الإمساك بالمِقصِّ لقطع القماش الثمين. تعرّفتْ عليّ، حَيّتْني، وَدَعَتْني للصعود معها إلى المنزل بعد الجنازة، لتحيّة السَّيِّدة تيريزا والآنستَيْن.

"لن تحتقرينا أنتِ أيضاً كما يفعل الآخرون جميعاً؟" سألتْني. "في نهاية الأمر كنتِ على علم منذُ البداية بسرِّنا، وقد يتّهمونكِ بالاشتراك معنا. أشكركِ لأنكِ حافظتِ على القَسَم، ولم تُثرثري في

الجوار. أنتِ تعلمين كيف سارت الأمور، والاتِّهام بأننا كنّا نعلم مصدر القماش هو خزيٌ حقيقيٌ. كيف كان يمكننا نحن التّحقُّق من المكان الذي يتزوّد منه موردنا؟"

رافقتُها إلى المنزل، حيثُ قدّمت لي السّيّدة تيريزا، فيما يشبه المعجزة، فنجاناً من القهوة وبعض الكعك. كانت هي أيضاً والابنتان يرتدينَ ثياب الحِدَاد، لكنهنّ لم يكنّ محطَّمات كما كانت الآنسة جيمّا. لاحظتُ قماش الأثواب السوداء، أثواب منزلية، لكنها أنيقة. كان قماش شانتونج جميلاً وليّناً، لكنه متين، كما رأيتُ بعضاً منه في واجهة أفضل محلِ أقمشة في المدينة. كان اللون الأسود موحّداً، كثيفاً، دون انعكاسات تميل للاخضرار. الموديل رائع، والتشطيب مُتقَن كما هو متوقَّع. كلٌ شيء مختلف تماماً عن ثياب المنزل المُهمَلَة، والبالية، التي عوّدتْني الوالدة والابنتان عليها خلال ذلك الشهر من العمل المشترك بيننا. لكن المحامي بونيفاتشو كان يحمل لي المفاجأة الأكبر. لم يتسرّب إلى المدينة أيٌ خبر، لكنْ، بعد أيّام من اللقاء الثاني مع السلطات، أصابت المسكين سكتةٌ، تركتْهُ مشلولاً وأخرسَ على مقعد متحرِك.

لكنه كان يعي كلّ شيء. تعرّف عليّ هو أيضاً، لكنْ، عندما حَيّيتُهُ، أدار وجهه محتقِراً صوب الجدار. كان قد دَخَلَ إلى غرفة الخِيَاطَة بينما السِّيّدة تيريزا تقدِّم لي القهوة والكعك، تدفعُهُ الخادمة الصغيرة على كرسيّه المتحرِّك. كانت تومازينا التي ترتدي مئزراً نظيفاً ولائقاً وزوجاً من الأحذية الفرسانية متيناً في قَدَمَيْها، تحاول أن تُلقِّمَهُ ملعقة صغيرة من القهوة على الأقلِّ، لكنه كان يُوصِدُ فمَهُ، ويصبُّ على ما حوله نظرات غاضبة. فهمتُ أنه لم يكن يحتمل اضطراره للتنازل عن زمام الأمور لزوجته، وأنه كان يقاسي آلام الجحيم لرؤيتها تجرؤ على إبداء ذلك الكرم الطفيف معي. كانت عيناه تشتعلان من الغضب، خاصّة عندما تقع نظراته على ماكينة الخِيَاطَة ذات المِدْوَسِ الجميلة والجديدة التي تستقرُّ أسفل النافذة.

اشتكت الآنسة جيمّا، وهي ترافقني إلى الخارج، من أن ابنة العمِّ مسرفة للغاية، وأنها لا تعرف قيمة المال بعد أن حُرمت منه طويلاً، فتُبذِّره، وتشتري من الجزّار كمِّيّات مبالغ فيها من لحم البتلُّو، لا يستطيعون استهلاكها جميعاً، وتهدي بيض حظيرة الطيور إلى ملجأ

الأيتام. وفي الكنيسة تدسُ أوراقاً مالية كبيرة في صندوق الهِبَات. وبمجرّد أن فتحت خزانة نقود المنزل، وتحقَّقت من الودائع والسندات مع موظَّفي المصرف، قالت مبتهجة للابنَتَيْن: " نحن ثريّات للغاية، ماذا يضيرنا من كلِّ ألسنة السوء في المدينة؟" والآن تخطِّط لشراء سيّارة. ليس عربة وأحد الخيول. بل سيّارة.

"وتريد أن تتعلَّم قيادتها؟" سألتُ فَزِعَةً.

"ما هذا الكلام؟! تريد أن توظِّف ... كيف يدعونه في فرنسا؟ لا، ليس ميكانيكياً، بل شوفير(□)".

حكيتُ عن تلك الزيارة للماركيزة الشّابّة استر التي عادت إلى المدينة من إحدى أوائل رحلاتها. كانت غاضبة من الفضيحة، وتؤيّد أنه كان على الخطيبَيْن أن يلتزما بوعدهما. وإذا كنّا نتذرّع

بالأخلاق، فإن الأختَيْن بروفيرا لم ترتكبا أيّ خطيئة، كان يمكن اعتبار الكذب حول الأثواب الباريسية مزحة، لم تضرّ أحداً. لقد عملت النساء الأربع جاهدات، لتكنّ على قَدَم المساواة مع السّيّدات الراقيات الأخريات المُدّعيات والمغرورات. كانت هذه الأثواب، على حَدِّ قولها، ضماناً بأن إيدا وألدا ستصبحان زوجَتَيْن نموذجيّتَيْن. أمّا الخطاة، فكانوا هم السادة الذين يتردّدون على المواخير، بمَنْ فيهم المُحافظ والأسقف. "لكن الأمر هنا لا يتعلّق بأخلاق حقيقية، بل بالنفاق"، كانت تقول. كان لدى الآنسة استر أفكار غريبة حقّاً حول المساواة بين الجنسَيْن، وأن الرجال لا ينبغي عليهم أن يطالبوا النساء بما لا يكونون على استعداد لفعله أو الكفّ عنه هم أنفسهم. كانت تغضب عندما تقرأ في الصفحة الأخيرة من الصحيفة الروايات المسلسلة التي تتحدّث عن سيّدات "ساقطات" أو" خاطئات تائبات". أهدتْني كتاباً شهيراً، يُدعى أسرار باريس. كان ضخماً، واستغرقتُ ما يقارب العام في قراءته. كانت تسألني عنه، ويروق لها أن تعلِّق عليه معي، وعندما اكتشفتْ أنني متأثِّرة لموت فلور-دي ماري، قالت لي: " يجب ألّا تبكي، يجب أن تغضبي. فهي لم تخترْ حتّى أن تمارس تلك المهنة. لماذا

لم تتمكَّن من الزواج وممارسة حياة طبيعية؟" كنتُ أفكِّر في كلماتها تلك. منذُ عادت لتعيش مع والدها، لم تعد الآنسة استر تتحدّث عن الحُبِّ، كان يبدو أنها قد مَحَتْهُ من حياتها. من جانب آخر، لم يكن بمقدور أيِّ امرأة شابّة منفصلة عن زوجها التفكير في الحُبِّ. كانت في نظر القانون لا تزال متزوِّجة. وكان يمكنها فقط العودة إلى زوجها آملة في أن يكون قد غَفَرَ لها. لكنني كنتُ أعرف أن آنستي لن تفعل هذا أبداً.

عندما انتشر خبر أن المحامي بونيفاتشو قد أُصيب بسكتة أخرى ومات، قالت لي الماركيزة الشّابّة: "أتعرفين ماذا يجب أن يحدث الآن إذا سارت الأمور في نصابها الصحيح؟" وشرعت في التأليف كما لو أنها تكتب رواية، لكنْ، وَفْقَاً لمبادئها هي.

"إذنْ، بوفاة المحامي، ستحصل الزوجة والابنتان وابنة العمِّ على الإرث، وسيختفينَ. سيرحلنَ إلى بلد ما وراء المحيط. لن يرغبنَ في المكوث في مدينة احتقرتهنّ هكذا دون وجه حقٍّ. ولأعوام عدّة لن يُعرفَ عنهنّ شيء".

"ثمّ ستحكي الصّحَفِيّة الأمريكية، ميس بريسكوي، تلك التي تأتي إلى مدينتنا، معلِّمتي في اللغة الإنجليزية، عند عودتها من إحدى رحلاتها إلى الولايات المتّحدة، عن مَشغل خِيَاطَة فرنسي شهير للغاية في نيويورك، حيثُ تصطفُّ زوجات الأمراء والمليونيرات من كلِّ أنحاء العالم في طابور، ليستطعنَ الحصول على ثوب أصلي، فريد، يدفعنَ مقابله ثمناً باهظاً. تدير مَشغل الخِيَاطَة سيّدة ناضجة تُدعى ... لنرى كيف سنترجم جيمّا إلى الفرنسية ... مدام بيجو. وتساعدها خَيّاطَة أصغر سنّاً، ابنتها أو ابنة أخيها. إنها إيدا بالطبع، ومَشغل الخِيَاطَة إيطالي، لكن القول بأنه فرنسي هو أكثر أناقة. كانت إيدا متزوِّجة من منفِّذ تصميمات مجري، يعمل في الشركة، ويعزف الفيولين في أوقات فراغه. ولديهما أبناء ثلاثة يتّسمون بالجمال والمهارة، ويدرسون في أفضل مدارس نيويورك. وألدا؟ تزوّجت ألدا، بعد أن عَصَفَ بها الهوى، من رسّام شّابٍّ كاتالوني، لا يملك قرشاً في الأساس، لكنه بدأ بفضل تحفيزها في تصميم أقمشة شديدة الجمال، يطبعها بتِقْنِيّة سرِّيّة، نال فيما بعد براءة اختراعها. كانت رسوم تلك الأقمشة غير القابلة للتقليد هي سرُّ نجاح مَشغل بيجو".

"ألدا وماريانو أيضاً لديهما أبناء، بل بنات. أربع فتيات صغيرات، كلُّهنّ يتمتّعنَ بميول فنِّيّة منطلقة، إحداهنّ ترسم كوالدها، وأخرى تعزف كعمِّها عازف الفيولين، وأخرى ترقص - أَنرسلُها إلى مدرسة إيزادورا دونكان؟ - والصغرى تغنِّي بصوت ملائكيٍّ".

"مَن نَسيْنا؟ مدام تيريز؟ ذَهَبَتْ مدام تيريز لتعيش في برونكس مع تومازينا، وفتحت مدرسة لتعليم القَصِّ والخِيَاطَة للفتيات الفقيرات، ما يشبه النُزُل، حيثُ تنام الطالبات، ويحصلنَ على ثياب دافئة، وطعام جيّد، وبعض التعليم أيضاً، إضافة إلى تعلُّم فنِّيّات الخِيَاطَة. أهدى مستر سنجر، رجل الصناعة الذي أُعجب بتلك المبادرة، سبعمئة وخمسين ماكينة خِيَاطَة من أحدث طراز إلى المدرسة. انتظري. المدرسة ليست خاصّة بالفتيات وحدهنّ. يوجد بها قسم تأتي إليه مدام بيجو بين الحين والآخر، لتعقد دورات، وتنال فيه العاهرات، اللّاتي يردنَ تغيير مسار حيواتهنّ، والعيش بشرف، الطعام والإقامة والحماية".

كنتُ أضحك. "آنسة استر، سيادتكِ متفائلة بإفراط، واعذريني، ورومانسية أيضاً بإفراط. في الحياة الحقيقية، للأسف، لا تسير الأمور على هذا النحو".

وبالفعل اتّضح في نهاية الأمر، أن للمخاوف التي عبّرت لي عنها الآنسة جيمّا أساساً. وبسبب افتقاد السّيّدة تيريزا أيّ حسٍّ عملي، ودون أن تعيَ أن تضخُماً حَدَثَ بعد زواجها وأن المال الذي يبدو لها كثيراً للغاية هو كثير فعلاً، لكنه ليس بلا نهاية، بدّدت فيما يزيد عن العامَيْن بقليل كلّ الثروة التي كدّسها الزوج بتقتيره الشديد. لم تكن تراقب المزارعين الذين يسرقون في الخفاء، ولم تعد تأتي للمطبخ بمنتجات من حقولها، بل كانت ترسل في شرائها من السوق أو من أكثر محالِّ الأطعمة المُعلَّبة غلاءً. جدّدت أثاث المنزل، الذي كانت قليلاً ما تمكث فيه. في وقت متأخِّر كلّ صباح كانت تذهب برفقة الابنَتَيْن لتناوُل مشروب الشوكولاتة في كريستال بالاس. لم يكن يجلسنَ في إحدى القاعات الدّاخليّة الصغيرة كما تفعل عادة السّيّدات القليلات الأكثر حُرِّيّة والأقلّ تكلُّفاً، بل كنّ يشغلنَ إحدى تلك الطاولات الصغيرة الأكثر بروزاً،

المستقرّة على الرصيف، يحميها الهيكل الزُجاجيُ والبَلُّوريُ الذي يصنع لها ما يشبه الواجهة، حيثُ يقضينَ طيلة النهار في قراءة الصحيفة، وتدخين السيجار، والحديث في السياسة، وانتقاد الناس والسادة الأكثر ثراءً وخمولاً. ربّما كانت تأمل من خلال استعراض الفتاتَيْن هكذا أن تحصل لهما على خطيبَيْن أرستقراطيّيْن جديدَيْن. ولأن الشباب ذوي العائلات المحترمة في المدينة لم يكونوا كُثراً، فقد قرّرت أن تبحث في مكان آخر. سافرت شرقاً وغرباً مع الابنتَيْن، ذَهَبَتْ إلى باريس، واشترتْ لكلٍّ منهما جهاز عرس ثميناً من متاجر برينتمبس حقّاً. اشترت السّيّارة، وكانت واحدة من قلائل كانت تجوب المدينة، ووظّفت سائقاً، وألبستْهُ زِيّاً له قُبّعة، تُزيّنها أشرطة. ووظّفتْ خادمَتَيْن، وألبستْهُما قميصَيْن أزرقَيْن، ومئزرَيْن أبيضَيْن، وشريطَيْن حريرِيّيْن أبيضَيْن على رأس كلٍّ منهما. ووظّفت طاهية. كان على تومازينا الاهتمام فقط بالمحامي، وكانت تفعل ذلك بتفانٍ حتّى أُصيب هو، كما قلتُ، بسكتة ثانية، ومات. ذَهَبَتِ السّيّدة تيريزا مع الابنَتَيْن للعلاج بمياه الينابيع المعدنية في إحدى المصحّات الحرارية الأنيقة. لكنها، لكي تتكفّل بكلِّ تلك النفقات، اضطرّت للبدء في بيع الحقول

والشُّقُق، ثمّ المتاجر، ثمّ سندات الدولة، واحداً تلو الآخر. كان الميراث يتناقص باستمرار، لأنه لم يعد هناك مَنْ يعمل على زيادته أيضاً. هربت تومازينا، وهي تحمل معها عشرة ملاعق من الفضّة، وقلادَتَي اللؤلؤ الخاصّتَيْن بالآنسَتَيْن، وعلبة زرقاء من متاجر برينتمبس ممتلئة ببقايا قِطَع الحرير. عندما وجدنَها بعد أيّام قليلة، لم تردِ الاعتراف باسم مَنْ باعت له حصيلة السرقة، ولم يكن من الممكن استعادتها. صَفَعَت السّيّدة تيريزا اللِّصّة عدّة صفعات، وحبستْها في غرفة مع الخبز والماء، لكنها رفضت أن تتقدّم بشكوى ضدّها في الشرطة. ففي نهاية الأمر، كانت تحبُّها، ولم تكن تريد لها أن تنتهيَ في مؤسّسة تأديبية، ومن هناك، كما يحدث دائماً، إلى إحدى دُوْر البِغَاء.

عند ذلك الحَدِّ، أخذت الآنسة جيمّا، رغم معاناتها من رعشة يَدَيْهَا التي لا تريد أن تُشفَى، زمامَ أمور العائلة للمرّة الثانية، وتحدّثت بجدِّيّة مع ابنة العمِّ وابنَتَيْها، ووضعت حَدّاً لتلك النفقات الجنونية. كانت شُقَّة ميدان القدِّيسة كاترينا قد رُهِنَتْ، ممَّا سيُجبرهنّ على تَرْكها خلال وقت وجيز، لكنْ، كان قد تبقَّى لنساء بروفيرا منزل

ريفي صغير، لا يبعد عن المدينة كثيراً، مؤثّث بتواضع، لكنه يضمُّ كلّ ما هو ضروري. انسحبنَ إليه حاملاتٍ معهنّ ماكينة الخِيَاطَة التي لم يبعنَها مع قِطَع الأثاث الجديدة، استجابة لنصيحة الآنسة جيمّا. قبلت السّيّدة تيريزا بأسف شديد فصل الخادمَتَيْن والطاهية والسائق، والاحتفاظ بتومازينا فقط كخادمة. كانت تخجل من عرض السّيّارة وجهازَي عرس الفَتَاتَيْن الباريسِيّيْن للبيع للمواطنين. لكن الآنسة جيمّا استدعت تيتو لوميا الذي اشترى كلّ شيء جملةً كما هي عادته، في مقابل مبلغ يقلُّ كثيراً عمّا تكلَّفَتْهُ تلك الرفاهية. لكنْ، وبشكل ما، صار من الممكن إعادة تكوين مهر صغير لكلتا الابنَتَيْن. كان من الصعب للغاية الآن، بالطبع، إيجاد زوجَيْن للشّقيقَتَيْن. كانت أترابهما من العائلات المحترمة يتجاهلنهما، ويبتعد أشقاؤهنّ عنهما. انتهى الأمر بأن قبلت ألدا الزواج من صاحب محلٍّ بسيط في بلدة قريبة، أتتْها به الخاطبة. لم يكن الزوج يسمح لها باستضافة قريباتها أو مساعدتهم، وكان ينهرها ويهينها باستمرار موبِّخاً إيّاها على ذوقها الراقي وضعف مهرها.

ظلَّت إيدا، على النقيض، تعيش مع الوالدة والعمّة. ربّما لو كانت أقلّ اعتداداً بنفسها، لحَصلَت على وظيفة كـ "عاملة شابّة" في أحد مَشغلي الخِيَاطَة الكبيرَيْن في المدينة. لكنها لم تكن تريد لأحد أن يراها وشريط القياس في يدها، بينما تأخذ مقاس السّيّدات اللّاتي تردّدت على قاعات استقبالهنّ كضيفة مقدرة، وتبادلت معهنّ التّزاوُر في مقصورات المسرح.

عندما علمتُ أن الوالدة والابنة قد شرعا في الخِيَاطَة لحسابهما، أصابني الخوف ككلِّ الخَيّاطَات المتواضعات الأخريات في المدينة، لأنهما بمهارتهما المعروفة ستنافساننا. لكن امرأتَي بروفيرا كانتا تخجلان من الذهاب للعمل بأجر يومي في منازل العائلات التي تردّدتا عليها " من قبل" كَنِدّتَيْن، ولم تكونا تستطيعان أو ترغبان في استقبال الزبونات الثّريّات في منزلهما الرِّيفيِّ الصغير المتواضع. وهكذا اضطرّتا إلى التعامل مع زبائن شديدي التواضع، ناس من الريف، فلّاحين كانوا يطلبون إصلاحاً أو رَتْقاً، مآزر وقمصاناً مخطَّطة، لوازم عرس فقيرة مع مُلَاءَات ذات قماش سميك وحوافّ بسيطة دون تَوْشِيَة. علمتُ أنهما قد قبلتا حتّى،

وبتكليف من تيتو لوميا، بخِيَاطَة صفقة من الجوالات الكبيرة من نسيج الكَنَبَة لصالح تاجر جملة للبقول الجافَّة. كنتُ أتساءل إذا كان لدى الماكينة الجميلة ذات المِدْوَس والنقوش المذهّبة قوّة كافية لدَفْع الإبرة عبر نسيج سميك وجافٍّ هكذا، وإذا لم تنكسر الإبرة سريعاً، أو إذا كان يوجد نوع متين جدّاً من الإبر، لا أعرفه أنا. لأجل الحرير سبب الفضيحة اضطُررنا لتركيب إبرة دقيقة للغاية في ماكينتي ذات المقبض، إبرة كانت، على النقيض، توجد في محالِّ الخردوات كافَّة.

(□) اسم أحد مشغلَي الخِيَاطَة الكبيرَيْن، ويعني الأناقة القصوى.

(□) كاربونيريّا أو مُشعِّلو الفحم هي جمعية سرِّيّة إيطالية، تأسّست في نابولي خلال بدايات القرن التاسع عشر لتحقيق أهداف قومية وتحرُّريّة، ولعبت دوراً بارزاً في توحيد إيطاليا، وفي الأيّام الأولى للوطنية الإيطالية.

(□) الاسمان يعنيان الأناقة القصوى والسّيّدات الجميلات.

(□) كُتبَت بالفرنسية في النّصِّ الأصلي chauffeur، وهو سائق السّيّارة.

لم أستطع التصديق. لم أكن أُصدِّق أن الميس الأمريكية، معلِّمة اللغة الإنجليزية للآنسة استر، قد اتّخذت ذلك القرار كما تزعم فيلومينا. ليس لديها دافع لذلك. كانت في ذروة الحماس وهي تُخبرني أنها سترحل، كما طَلَبَتْ منّي أن أخيط لها مِشَدّاً جديداً خاصّاً، يمتلئ بجيوب داخلية بين الأعواد التي تُقيم هيكله، حيثُ ستخفي المال خلال الرحلة. كانت سعيدة، منتشية، لأنها استطاعت التّحرُّر أخيراً من علاقة كانت تُعذِّبها، وقد حطَّمت حياتها في الأعوام الأخيرة. لم أكن أعرف أيّة علاقة تقصد، فلم تكن الميس تصرِّح لي بشؤونها الخاصّة، لكنْ، لم يكن باستطاعتي سوى الإقرار بأن مزاجها قد تحسّن مؤخّراً. لكنني كنتُ أعرف أنها قد كَتَبَتْ إلى شقيقتها في نيويورك مُعلِنة قرب وصولها، لأنني كنتُ أنا مَن ذَهَبَ إلى مكتب البريد لإرسال الخطاب. كنتُ أعرف أنها قد حَجَزَت تذكرَتَي السفينة التي يجب أن تقلَّها إلى لندن، وعابرة المحيطات التي ينبغي أن تحملها بعد ذلك بثلاثة أشهر من إنجلترا إلى أمريكا. أتيتُها أنا بتَيْنِك التّذكَرَتَيْن من وكالة السّفريّات. في

الأيّام التي كنتُ أذهب إليها فيها لأُعنى بمفروشاتها المنزلية، كانت تُكلِّفني أيضاً بتلك الأمور البسيطة. لم يكن يروق لخادمتها، فيلومينا، أن يُبعَثَ بها لإتمام بعض المهامِّ، كما لو أنها خادمة متواضعة مبتدئة، بينما لم أكن أنا التي أعمل بأجر يومي أعبأ بذلك، بل كنتُ أسعد بتحريكِ ساقَيّ بين الحين والآخر، وإلقاء نظرة على أنحاء المدينة. لم تكن فيلومينا، بكلِّ تباهيها، تعرف القراءة، وكانت تُظهِر لامبالاة، إن لم يكن احتقاراً، لعمل سيّدتها. وعلى النقيض كان عمل الآنسة صَحَفِيّة يثير فضولي وحماسي. للأسف لم يكن شيء من مقالاتها يُنشَر في المجلّات التي أستعيرها بين الحين والآخر من المكتبات المتنقِّلة. في الواقع، كانت تكتب بالإنجليزية، ولم يكن أحد في المدينة كلّها، عدا الآنسة استر وحدها ربّما، قادراً على متابعة مقالاتها التي تُنشَر في أمريكا فحسب. لكنها، بعد أن رأت اهتمامي بعملها، أخبرتْني مؤخّراً وهي سعيدة للغاية أنها قد وقَّعت عقداً مع صحيفة فيلادلفيا، التي تتعاون معها، كي تكتبَ سلسلة من اثنَي عشر مقالاً حول اللوحات القديمة ذات الخلفية الذّهبيّة التي اكتشفتْها في كنائسنا الرِّيفيّة.

كنتُ أنا مولعة بالميس، حتّى وإن كانت امرأة غريبة الطِّباع، وإن لم تكن العائلات الميسورة في المدينة تستقبلها، بل كانت تثير اللَّغَط حولها مُتّهمةً إيّاها بأنها ليست فاضلة تماماً، ككلِّ النساء غير المتزوِّجات، سواء كنّ أجنبيّات أو إيطاليّات، اللّاتي يتركنَ منزل الأسرة، ليجلنَ العالم، ويتكسّبْنَ عيشهنّ من العمل. لو كانت فقيرة، خَيّاطَة متواضعة مثلي، أو عاملة، أو خادمة، كانوا سيغفرون لها شريطة أن تظلّ في موقعها، ولا تفترض معاملتهم النِّدّ بالنِّدّ. لكنها كانت تعتبر نفسها نِدّاً لهم أو ربّما، كأمريكية حقّة، لم تكن حتّى تأخذ في اعتبارها أن المسافات لدينا بين الطبقات الاجتماعية المختلفة والعائلات واسعة، ولا يمكنها تخطِّيها، وأنه ليس مسموحاً للنساء التّصرُّف بنفس الحُرِّيّة التي يتمتّع بها الرجال. على جواز سَفَرها طَلَبَتِ الميس أن يكتبوا "متخصِّصة". كانت تقصد، بالطبع، مجالَ الصحافة والنّقْد الفنِّيِّ، قَصّ مُفَوّض الشرطة ذلك التفصيل في كلِّ مكان، وكان السادة يضحكون عليه. بالنسبة إليهم، كانت كلمة "متخصِّصة"، كما شَرَحَتْ لي الآنسة استر، تعني شيئاً واحداً إذا قيلت عن المرأة: ما يدعونه أقدمَ مهنة في العالم، العُهْر.

كانت استر أيضاً مولَعة بميس ليلي روز. وكان منزل أرتونيزي هو الوحيد الذي فتح أبوابه للأمريكية الشّابّة عندما أتت منذُ عشرة أعوام مضت، لتعيش في مدينتنا. استدعاها السّيّد إنريكو، لتُعطي ابنته دروساً في اللغة الإنجليزية، وكانت هذه مناسبة تعرُّفي بها.

كانت جَدّتي لا تزال على قيد الحياة، وكنّا عادة ما نقضي أيّامنا في الخِيَاطَة لدى عائلة أرتونيزي، وسألتْها الميس التي تتحدّث الإيطالية بطلاقة، إذا كان بمقدورها أن تذهب إليها هي أيضاً، مرّة واحدة أسبوعياً، لتُعنى بالمفروشات والثياب المنزلية. كنتُ أرافقها في بعض الأحيان. كانت الميس تعيش في شُقَّة مؤجّرة في الجزء الحديث من المدينة؛ سَكَنٌ جميلٌ مُؤَثّثٌ بطريقة بسيطة للغاية، لكنه ممتلئ بلوحاتٍ، تضجُّ بالألوان، رسمت هي بعضها، بينما اشترت بعضها الآخر في أثناء ترحالها في الحقول والبلدات القريبة، وتجوُّلها بين الكنائس والمخازن الكَهَنُوْتِيّة. كانت تمارس الرسم على سبيل الهواية، لكنها تمتهن النّقْد الفنِّيّ وجَمْع اللوحات، هكذا شرحت لنا. كانت مقالاتها التي ترسلها بالبريد إلى صحيفة

فيلادلفيا تدور حول الفنِّ الإيطالي، وبالأحرى ذلك الخاصّ بمنطقتنا، الفنِّ القديم على وجه الخصوص، والحديث أيضاً.

بعد أن تردّدتْ على منزلها لبضعة أشهر، وإن كان بصورة متقطِّعة، قالت جَدّتي هذا التعليق: "ليقول نمّامو مدينتنا ما يشاؤون: ميس بريسكوي امرأة صالحة. إنها سيّدة حقيقية". وجَعَلَتْني أيضاً أُلاحِظُ أنه، على الرغم من بساطة الشُّقَّة والثياب، لا بدّ أن تكون ميس ليلي روز أكثر ثراء ممَّا تبدو عليه. كانت تسافر عادة في منطقتنا، وفي إيطاليا كلّها، دون أن تعبأ بتكاليف الانتقال. كانت ترتاد المسرح، وتشترك في مجلّات إيطالية وأجنبية كثيرة، وعادة ما كانت تذهب، في النهارات الجميلة، لقراءتها في كريستال بالاس، وهي تجلس إلى جوار الأثرياء الخاملين داخل الهيكل الزُّجاجيِّ. عادة ما كانت السّيّدات، كما قلتُ سَلَفَاً، يشغلنَ القاعات الصغيرة الدّاخليّة، ويذهبنَ إلى هناك دائماً برفقة شخص ما، لكن الميس كانت تمكث هناك وحدها لتقرأ، دون أن تنشغل بالفضوليّيْن الذين يتوقَّفون على الجانب الآخر من الزجاج، ليراقبوا السادة الذين يدخِّنون السيجار، ويتناولون المثلَّجات. رأت ذات يوم شديد

الحرارة صبيّاً صغيراً يرتدي أسمالاً، ويسحق أنفَهُ بالزجاج، فدعتْهُ للدخول. كان أحد مشرّدي الأزقَّة، أولئك الذين ينتظرون كلّ صباح إلى جوار طاولات السوق، بسلَّة على كتفهم، أن يكلِّفَهم أحد السادة بحَمْل مشترياته إلى المنزل مقابل خمسة قروش. أرادت ميس بريسكوي أن تعطيه الجيلاتي الخاصّ بها، لكنْ، هُرع أحد النُّدُلِ، وطرد المتشرِّدَ بعنف، موجِّهاً نظرة لوم إلى الآنسة.

كانت فيلومينا تشيع أن سيِّدتها تأكل اللحم كلّ يوم، حتّى في يوم الجُمُعة، لأنها ليست كاثوليكية. وكان هذا، أيضاً موضع انتقاد وشائعات في المدينة. كانت الميس تمتلك وتستخدم آلة تصوير فُوتُوغرافي غالية الثمن، وكانت مقالاتها تُرسَل إلى أمريكا مصحوبة دوماً بصور الكنائس واللوحات والمناظر الطَّبيعيّة، صور التقطتْها وطبعتْها هي بنفسها في غرفة صغيرة في الشُّقَّة، كانت قد جهّزتْها لهذا الغرض. كما كان لديها درّاجة أيضاً، تجول بها في الريف، ليس بحثاً عن الأعمال الفنِّيّة فحسب، لكنْ، لتجمع الأعشاب من كلِّ نوع، وتجفِّفها بين طَبَقَتَي ورق، وتُرتِّبها بنظام في دفتر كبير، وهي تكتب أسفل كلٍّ منها الأسماء باللغة اللَّاتينيّة. لم تكن أيٌّ

امرأة بيننا، أيّاً كان انتماؤها الطَّبقيُ، تركب الدرّاجة، لم يُسمَح حتّى للآنسة استر بهذا، عندما بلغت العُمُر الذي يمكنها أن تطلب فيه واحدة.

كنتُ أتفحّص بفضول كبير الثيابَ التي كانت الميس ترتديها في جولاتها: كان لديها تنانير منتفخة، ذات ثَنْيَة في المنتصف تُفتَح في أثناء السّير، كما يحدث في السراويل الرِّجاليّة، وقصيرة حتّى إنها تكشف الكعبَيْن تماماً. فيما بعد، عندما انتقلت من خِياطَة الحوافّ والأجزاء إلى قَصِّ أكثر قِطَع الثياب بساطة، كانت صناعة تلك التنانير تستحوذ عليّ، طالما رغبتُ في أَخْذها وبَسْطها على طاولة، وفَهْم من أيِّ القِطَع تتكوّن؟! وكم وأين توجد البنس؟! هل يوجد لها تصميم بوَرَق تفصيل مقوّى، ليُنسَخَ على القماش؟! قالت لي ميس بريسكوي ذات مرّة، وقد حَدَسَتْ فضولي، إنها تشتريها جاهزة من باريس، من متجر كبير، يضمُّ كلّ ما يلزم رياضة ركوب الدرّاجات للرجال والنساء. وإذا أردتُ، ستريني واحدة منها منبسطة، وستدعني ألمسها وأفحصها من وجهها الدّاخليِّ أيضاً، كي أفهم كيفية إعدادها. خجلتُ، وقلتُ: "لا، لا". من جانب آخر، أيّ

امرأة من العامّة أو سيّدة من مدينتنا ستطلب منّي أبداً أن أعدّ لها قطعة ثياب غريبة كتلك؟"

لم تكن الميس تحرص على الأناقة، ولم تكن تتبع الموضة، وغالباً ما كانت تخرج في الربيع بدون قُبّعة. ولم يرها أحد قطُّ تحمي بشرتها بمظلَّة شمس، وفي الصيف كانت تصير برونزية اللون، كإحدى الفلّاحات، بما في ذلك يَدَيْهَا، لأنها لا ترتدي القفّازات إلّا في الشتاء. كانت ترتدي نفس الثوب لأعوام - كانت الأقمشة رائعة، ولا تَبلى - فالأهمُّ بالنسبة إليها هو أن يكون مريحاً. شرحتْ لجَدّتي، على سبيل الاعتذار عن أنها باستثناء المفروشات المنزلية، لن تعهد إلينا بتفصيل بعض الأثواب، فهي تشتريها أو تطلب إعدادها كلّها في الخارج. كانت تسافر كثيراً، كما قلتُ، وليس في إيطاليا وحدها. كانت تذهب كلّ عامَيْن أو ثلاثة تقريباً إلى إنجلترا، ومن هناك تستقلُّ عابرة المحيطات إلى أمريكا. وكانت تعود بعد أسبوعَيْن فقط. كان يبدو أن عبور المحيط بالنسبة إليها يماثل القيام بنزهة ريفية في اليوم التالي لعيد الفصح. ربّما أخذتْ منها استر وَلَعَهَا بالرحلات.

لكنْ، لماذا لم تَعُدْ الميس بشكل نهائيٍّ إلى بلدها، وظلَّت تعيش في مدينتنا؟! هذا ما لم نفهمه قطُّ. كانت جَدّتي تتوقَّع أن شأناً عاطفياً يقف وراء ذلك.

لكن الميس كانت، وبسبب عملها، تعرف كثيراً من أولئك الرجال: أرستقراطيّيْن، برجوازيّيْن، فنّانين، خوارنة من الريف، حِرَفِيّيْن، وفقراء توظِّفهم كموضوعات للوحاتها – حتّى إنه كان من العسير أن نفهم إذا ما كانت تفضِّل شخصاً بعينه. كانت تستقبلهم في المنزل دون أن تقلقَ لوجود مرافق لها أو عدمه. كانت خادمتها متزوِّجة، وتعود إلى منزلها ليلاً للنوم. لم تكن فيلومينا هذه تروق لي. ربّما لأنني كنتُ أحسدها. في الواقع، كانت الميس، وهي تضيف فضيحة إلى أخرى، تؤجِّر لنفسها كلّ عام عند وصول الموسم الغنائي، شُرفة داخلية كاملة، وتذهب إليها كلّ مساء بصحبة الخادمة، مرتدية ثياباً بسيطة، كما تفعل خلال النهار. الليلة الأولى التي وَصَلَتْ فيها إلى المسرح، اعتقد الناس أنها جاءت بمَنْ يرافقها خوفاً من الظلام في أثناء العودة، وأنها ستترك الخادمة تنتظرها في حجرة المعاطف في الأسفل. لكن فيلومينا ظَهَرَتْ بعد ذلك إلى

جوارها في الشرفة، بثيابها الشّعبيّة، وجلست على الأريكة المُخْمَلِيّة وهي تطلُّ بثقة من السور، وتتطلّع حولها بالمنظار. لم يمتلك أحد الشجاعة، ليُخبرَ الميس أن تصرُّفها كان غير لائق ومهيناً، كما كانت كذلك ثيابها النّهاريّة الخاصّة بالعمل، بينما كان حَرِيّاً بها الذهاب إلى المسرح بثياب أنيقة. وإنه إذا كانت الخادمة تحبُّ الموسيقى كثيراً، فيمكن لسيّدتها أن تشتريَ لها تذكرة في المقصورة العلوية، حيثُ لم يضع أحد من السادة، رجل أو امرأة، قَدَماً، ولم يزرها أحد خلال فترات الاستراحة، ولا حتّى على سبيل الفضول. "آه، هؤلاء الأمريكيون! هَمَجٌ حقيقيون"، هكذا علّق أحدهم عند الخروج، ودون أن يُخفِض صوته. ربّما سمعتْهُ ميس ليلي روز، لكنها تجاهلتْهُ. فيما يخصُّ فيلومينا، فأنا لا أعتقد أن الموسيقى كانت تهمُّها كثيراً، لكنها كانت تتباهى أمام الخادمات الأخريات بهذه "الغزوات" لعالم السادة. كانت امرأة طموحة للغاية، تحبُّ الرفاهية، وسيروق لها أن تتمكّن من العيش فيها. كانت تتمتّع بصنوف معيّنة من الحُرِّيّة والخصوصية، يمكن لسيّدة أمريكية فقط أن تسمح لها بها، ولم تكن أيُّ سيّدة تنتمي إلى عائلة ميسورة، لتأذن لها بها.

بعد موت جَدّتي، أخذتُ أنا مكانها، واستمررتُ في العناية بمفروشات الميس المنزلية. كنتُ أحملها إلى عاملة الغسيل، ثمّ إلى صديقتي الكاوية، وإذا كان هنا تمزُّق كنتُ أرتقُهُ، وأُعيد تثبيت أزرار الصّدّارات والقمصان. كانت الأمريكية تدفع لي مقابل تلك الساعات الأسبوعية القليلة مبلغاً يفوق ثلاث أو أربع مرّات ما تدفعه لي سيّدات مدينتنا لقاء يومَي عمل في الرّتْق منذُ الفجر وحتّى الغروب. لم يكن لديها أدنى إحساس بقيمة المال، وَفْقَاً لفيلومينا، التي كانت تعمل لديها كلّ أيّام الأسبوع بدوام كامل، وتتقاضى مبلغاً ضخماً.

ذات يوم، وبينما أنزع مُلَاءَة الفراش لأُغيّرَها (يفترض أن تقوم فيلومينا بذلك، لكنها لم تكن تهتمُّ به، وقد تترك المُلَاءَات ذاتها لشهرَيْن متتابعَيْن)، أدركتُ أن المرتبة كانت ممزّقة على طول حافّتها، وأن طَرَفَاً من الصوف بدأ يخرج من الفتحة. كان إصلاحها يؤول إلى صانع المفروشات، لكنه كان فَتْقَاً، يمكن خِيَاطَتُهُ ببساطة، وفكَّرتُ أنه يمكنني إصلاحه وحدي. وهكذا أخذتُ معي في الأسبوع التالي حافظة الجَدّة الاحتياطية، تلك التي كانت خلال

حياتها، تحتفظ فيها بالإبر ذات الأشكال والأحجام الأكثر غرابة، وأنواع الخيط الخاصّة غير شائعة الاستخدام، ولكنْ، كان من المناسب الاحتفاظ بها في المنزل. كان نهاراً حارّاً، لم أكن أرتدي السترة، بل القميص فحسب، وقد طويتُ الأكمام لما يتجاوز المَرْفِقَيْن. كنتُ أعرف أن الميس قد خَرَجَتْ بدرّاجتها، لتجمعَ الأعشاب، وأن فيلومينا في السوق تقوم بالمشتريات. كان دخول المنزل يسيراً، لأنهما لم تكونا تغلقان الباب بالمفتاح قطُّ، وكانتا تستخدمان المزلاج. وهكذا لم أندهش عندما رأيتُ، بينما أعبر قاعة الاستقبال، شخصاً، سيّداً يُمسِكُ بالسيجار بين أصابعه، وقد وَضَعَ عدسةَ المونوكول، متفحِّصاً عن قرب إحدى لوحات الميس غير المكتملة، والتي تُرِكَتْ لتجفّ على الحامل. بدا لي أنني أعرفه: كان أحد المتردِّدين على المنزل، البارون سالاي، أحد متذوّقي الفنِّ، في منتصف العُمُر، ثريٌّ ومحترم، التقيتُهُ مرّات أخرى عند الميس.اعتقدتُ أنه ربّما كان يريد شراء تلك اللوحة. ربّما يشعر فقط بالفضول لرؤية كيف يسير العمل. لم أقلقْ بشأنه. حَيَّيْتُهُ بتهذيب، وتابعتُ سَيْري نحو غرفة النوم. لم أنشغل بغَلْق الباب. أزحتُ المُلَاءَة عن جانب المرتبة الممزّق، قدّرتُ سمك

وصلابة القماش، فتحتُ الحافظة، واخترتُ أطول إبرة، مستقيمة، سميكة ومدبّبة، وذات ثقب واسع. كانت توجد إبر منحنية ربّما تُيسِّر لي العمل، لكنها كانت تبدو رفيعةً بشكل زائد، وكنتُ أخشى أنها لن تستطيع المرور من جانب لآخر، ثمّ كيف سأدفعها؟ لم يكن الكشتبان الذي أحمله معي مناسباً لإبرة من ذلك النوع. بحثتُ بين البكرات عن خيط قويٍّ إلى حَدٍّ ما، أدخلتُهُ في ثقب الإبرة، وانحنيتُ نحو الفراش. أعدتُ بأصابعي الصوف القليل الذي يخرج من الفَتْق إلى الداخل، وضَمَمْتُ طَرَفَيْه. لم أكن قد دفعتُ الإبرة في القماش بعد عندما شعرتُ بمَنْ يمسكُ بجانبي بقوّة من الخلف، وعلى عنقي دغدغة خشنة لشاربَيْن مدهونَيْن، ونَفَس ساخن، يفوح برائحة السيجار. لم يفه الرجل، الذي فهمتُ أنه البارون سالاي، بكلمة واحدة. حاول أن يزيح التّنُّورة إلى الأعلى، كي يرفعَها، ويُلقيَ بها على رأسي. كانت صديقاتي الخادمات اللَّاتي اضطررنَ للدفاع عن أنفسهنّ ضدّ أرباب المنازل قد وصفنَ لي تلك الحركة أكثر من مرّة. كانت الحركة ترمي إلى تعريَتِكِ من الخلف، وإعاقة حركة ذراعَيْكِ أيضاً، وبالتالي منعكِ من إتيان أيِّ حركة، وتغطية عينَيْكِ بما يجعلُكِ غير قادرة على رؤيتهم بينما

يفعلون ما يحلو لهم. لكنني كنتُ أكثر سرعة، وقبل أن يتمكّن البارون من إلقاء نفسه عليّ مانعاً إيّاي من الحركة بثِقَلِهِ، انتصبتُ بغتةً ضاربة ذقنَهُ برأسي دون قَصْد، وانتزعتُ طَرَفَ التَّنُّورة من يَدَيْه، والتفتُّ. كانت تلك هي المرّة الأولى التي اضطرّ فيها لمواجهة اعتداء من ذلك النوع. تذكَّرتُ ما قُلتُهُ لجَدّتي التي كانت تُحذِّرني، عندما كنتُ جاهلة جسورة: "سأعرف كيف أدافع عن نفسي جيِّداً"، ووجّهتُ إبرة المنجِّد نحو صَدْر المعتدي عليّ، إلى الأعلى، أسفل الحَلْق بقليل. "ارحلْ!" أمرتُهُ بصوت صار أجشّاً من الانفعال والخوف. "لا تتصنّعي الغباء"، أجاب هو بصوت ساخر. مَن يدري كم مرّة اضطرّ للتّغلُّب على مقاومة؟! حاول أن يضغط ذراعي إلى جانبي. لكن يَدَيّ كانتا حُرّتَيْن، دفعتُ الإبرة، ليس كثيراً، ولكنْ، بما يكفي لجَعْلِها تخترق ربطة العنق والقميص، وتضغط على الجِلْد العاري. "ارحلْ"، كرّرتُ. شَعَرَ هو بطرف الإبرة الصلب الذي يضغط على حَلْقه، لكنه كان لا يزال يضحك. "ماذا تريدين أن تفعلي بتلك اللعبة؟" دفعتُ الأبرة أكثر قليلاً، وبرزتْ قطرةٌ صغيرة من الدماء على حافّة القميص. تراجع البارون إلى الخلف وهو يسبُّ، آنذاك فقط رأى الإبرة كاملة، وأدرك أنها

طويلة كَخَنْجَرٍ صغير. "لا تلمسْني"، قلتُ له. سَبّني بكلمة نابية، لا أريد أن أذكرها.

لا أعرف كيف كان الأمر سينتهي، لو لم يكن صوت باب المنزل وهو يُوصَد قد جَعَلَنَا ننتفض نحن الاثنَيْن. سمعْنا صوتَيْن يتبادلان كلمات مازحة. صوت فيلومينا وصوتٌ، عرفت ذلك فيما بعد، اللَّحّام الذي دعتْهُ هي لمرافقتها، كي يُصلح جزءاً مكسوراً في صُنْبُوْر الحوض. هَنْدَمَ البارونُ سالاي نفسَهُ مجدّداً. وبحركة سريعة رتّب ربطة العنق، لتغطِّي بقعة الدم الصغيرة، ومرّر أصابعه بين شَعْره، ودون أن ينطق بكلمة، عاد إلى قاعة الاستقبال. تبعتُهُ والإبرة في يدي، لكنه كان قد رَحَلَ بالفعل. كانت فيلومينا تقف عند باب المطبخ. "ماذا تفعلين؟" سألتْني. من هناك كنتُ أسمع اللَّحّام يدقُّ.

"ذلك الخِنزيرُ .." قلتُ بصوت متقطِّع.

وهي، ضاحكة: "آه، لقد غازلكِ أنتِ أيضاً". ثمّ اكتستْ بالجدِّيّة. مرّرتْ يَدَهَا على وجنَتَيّ في مداعبة جافَّة. "اسمعي"، قالت لي. "أنتِ تحبّين الميس، أليس كذلك؟" نظرتُ إليها مشتّتة. ما شأن الميس الآن؟ "إذا كنتِ تحبّينها"، واصلت فيلومينا، "يجب ألّا تقولي لها شيئاً ممَّا حَدَثَ".

"لكن ذلك الخِنزير"، أصرّيتُ. "يجول في المنزل، يدخل ويخرج كما يحلو له. يمكن أن يغازلها هي أيضاً".

"لا تكوني ساذجة. وصدِّقيني. لا تقولي شيئاً للميس. قد تجعلينها تعاني".

كان لكلماتها وَقْعٌ حاسم، حتّى إنني لم أمتلك الشجاعة لأصرّ على رأيي. دارت هي حولي، ورتّبت بالدبابيس الخُصْلات التي حُلَّتْ من عِقْصَة شَعْري. "والآن اذهبي، عودي إلى غرفة النوم، وانتهي من عملكِ".

لكنْ، في الأسبوع التالي، عندما كنتُ وحدي مع الميس، حكيتُ لها كلّ شيء. ولدهشتي لم تغضبْ. تنهّدتْ، وحزنتْ. "يجب أن تنتبهي"، قالت لي. " حاولي ألَّا تمكثي وحدكِ معه أبداً. بل انصرفي، ولا تقلقي على عمل ذلك اليوم. سأدفع لكِ أجره على أيّة حال".

لم أستطع أن أفهم. في مناسبات أخرى بدت مستميتة للغاية في دفاعها عن حُرِّيّة وشرف النساء وحقِّهنّ في أن يُعامَلْنَ باحترام، خاصّة الفقيرات منهنّ.

كنتُ أودُّ أن أتحدّث عمّا وَقَعَ وعن ردّة فعل الميس الغريب تلك مع الآنسة استر، لكنها كانت مسافرة.

صرتُ الآن أخشى دخول تلك الشُّقَّة من الباب المفتوح دائماً. فكما أدخل أنا، سيكون بمقدور أيِّ شخص آخر الدخول. ولم أكن أعرف سلفاً قطُّ إذا كنتُ سأجد ربّة المنزل أو فيلومينا أو لا أحد. أو ربّما قاتل، أو لصّ، أو واحد من السادة مقتنع بأنه يستطيع

سرقة شرف فتاة فقيرة عزلاء. لكنْ، لماذا لا تشرع الميس في إغلاق الباب بالمفتاح، وإعطاء نسخة إلى الأشخاص محلّ ثقتها فحسب؟

كنتُ قلقةً للغاية حتّى إنه بعد مرور شهر تقريباً، وبينما كنتُ أرفع سلّة ثقيلة، وضعتُ فيها الستائر والمُلَاءَات وغطاء الفراش، لأحملها إلى عاملة الغسيل، سمعتُ ضوضاء في الغرفة المجاورة، ووثبتُ من الخوف، وتعثّرتُ في طَرَفِ قماش كان يتدلّى من السلة. سَقَطْتُ وخُلِعَ مَفْصِلُ يدي اليمنى. كارثة. كم من الوقت قد أضطرُ للبقاء حبيسة الضِّمَادَة دون أن أتمكّن من الخِيَاطَة وأعمال نظافة العقار حيثُ أسكن؟ هل سأضطرُ مجدّداً إلى اللجوء إلى مساعدة صديقتي عاملة الغسيل مدفوعة الأجر؟ هل سأستهلك كلّ مدّخراتي؟

حاولتُ أن أُطبقَ أصابعي، لكنها كانت قد تورّمت هي أيضاً، وصار الألم حادّاً. لن أخجل من التصريح بأنني انفجرتُ في البكاء يأساً. وهكذا وجدتْني الميس التي عادت إلى المنزل. "ماذا فعلوا بكِ؟" سألتْ قلقة، دون أن تحدِّد اسم شخص بعينه. عندما علمتْ أنني

وَقَعْتُ وحدي أبدتْ ارتياحاً كبيراً. ضمّدتْ لي المِعْصَمَ بمهارة، وبشكل مستقيم، ثمّ بَعَثَتْ بفيلومينا، لتبحثَ عن عربة الثلج، وطَلَبَتْ منها أن تشتريَ منه قطعة كبيرة، جزّأَتْها، ووَضَعَتْها على الخَلْع. "اتركي المفروشات. ستحمل فيلومينا السّلَّة إلى عاملة الغسيل. حافظي أنتِ على ذراعكِ معلّقاً إلى عنقكِ، وعودي غداً، وسأُحضر لكِ مزيداً من الثلج".

كنتُ قد توقّفتُ عن البكاء، لكن العطف الغامر الذي يكاد يكون أمومياً دَفَعَ بالدموع إلى مُقلَتَيّ.

في الحقيقة، مع كمّادات الثلج اليومية، وتثبيت المِعصَم عدتُ إلى سالف عهدي أسرع ممّا كنتُ أخشى. بعد أسبوع، استطعتُ أن أمسك الإبرة بيدي مجدّداً، حتّى وإن لم أكن أستطيع رَفْع أشياء ثقيلة بعد.

لكنني كنتُ نافدة الصبر. كان لديّ عمل بسيط أقوم به في منزل المهندس كاريرا، الغريب الذي يعمل في إنشاء مصرف المياه.

كانت زوجته تريد أن أخيط ثوب الكرنفال لطفلتها التي تبلغ السابعة من عُمُرها، ولم يكن لديها ماكينة خِيَاطَة في المنزل. لذا كان يجب أن أُحضر ماكينتي.

فكَّرتُ أنه يمكنني أن أحمل الحقيبة الصغيرة بيدي اليسرى، وسرتُ ببطء وأنا أفكِّر كيف سأقصُّ ذلك السروال من قماش الفتاة متغيِّر اللون بطريقة تجعله منتفخاً، كما في صورة الكتاب. ربّما يجب عليّ تدعيمه ببِطانة من التاريتان أو السبالتري.

كانت ابنة المهندس طفلة غريبة، ضعيفة قليلاً، لكنها جميلة ورقيقة، وشقراء للغاية كإحدى جنِّيّات الشّمال، كالكائنات المجنّحة في كُتُب الخرافات التي اشترتْها استر من لندن لإنريكا. تركتْها الوالدة تختار بين مقترحات إحدى مجلّات الموضة. كنتُ أعتقد أن الطفلة ستطلب منِّي أن أصنع لها ثوبَ أميرة. لكنْ، تصلَّبت تلك الصغيرة غريبة الأطوار أمام غلاف إحدى الروايات التي تخصُّ والدها، قراصنة ماليزيا. لم تكن تريد أن ترتديَ كلؤلؤة لابوان، بل كانت تريد زِيّ ساندوكان. عِمَامَة، سترة مُحكَمَة من

المُخْمَل، ولها صفَّان من الأزرار، حَرْمَلَة على الخصر، لتدسّ فيها المسدّسات والخناجر، سروال منتفخ، خُفّ بمقدِّمة ملتوية. لو كانت ابنتي لقلتُ لها إنه ليس جيّداً أن تذهب إلى حفل الأطفال الراقص وهي ترتدي زِيّاً ذُكُورِيّاً، لكن الوالدَيْن كانا يستجيبان لكلِّ نزواتها. اشترت الوالدة قماش السروال والحَرْمَلَة. أمّا العِمَامَة والسترة، فكان عليّ أن أتدبّر أمرهما من بعض ثيابها القديمة من المُخْمَل.

كنتُ أسير مائلة إلى جانبي الأيسر، بسبب ثِقَل الحقيبة الصغيرة التي أحملها بعناء، وأفكِّر في حفلات كرنفال طفولتي، عندما كانت مُلَاءَة بطَرَفَيْن صغيرَيْن معقودَيْن على هيئة أُذنَيْن، تكفي لأشعرَ بأنني قد تنكَّرتُ في شكل قطَّة. كانت جَدّتي أيضاً ترتدي زِيّ القطَّة، لتُرافقَني إلى الميدان، كي تُلقيَ بأوراق الاحتفال الملوّنة، وتنفخ الزّمَّارَة. كانت تضحك، هي أيضاً، كطفلة. كانت تلك هي مناسبتنا الاجتماعية الكبيرة، رفاهيتنا الوحيدة.

كنتُ مستغرقة تماماً في ذكرياتي حتّى إنني لم أنتبه للشّابِّ الذي قَطَعَ الطريق أمامي إلّا عندما استقرّت يده على مقبض الحقيبة الصغيرة، وأزاحت ثِقَلَها عنِّي. كان أوّل ما فكَّرتُ فيه أنه يريد سرقتها منِّي. شَدَدْتُ قبضتي تلقائيّاً. قال لي صوت لطيف ومهذّب بلغة إيطالية جيِّدة: "أعتذر لكِ، إذا كنتُ قد أخفتُكِ، يا آنسة، كنتُ أودُّ مساعدتكِ فحسب". آنسة، لي أنا؟ اضطررتُ لرَفْع وجهي، كي أنظر إليه لأنه كان طويلاً. كان سيِّداً شابّاً. طالب، يرتدي على أحدث طراز، ثياباً تُناسبه تماماً: معطفاً وقُبّعة، وشاحاً من الحرير. ابن أسرة كريمة، في مثل عُمُري تقريباً، ربّما أصغر قليلاً، حليق اللحية تماماً، له وجنتان نضرتان، وفم جميل ممتلئ، وعينان جميلتان داكنتان، واسعتان وصافيتان. بَرَقَ في ذهني أحد أبيات الشِّعْر التي أطلعتْني الآنسة استر عليها، وقد كَتَبَهُ شاعر فارسي: "وجنتا الورد وعينا الغزال". لكن الحديث هنا كان يدور عن فتاة. يجب أن أقرّ بأن الشّابّ المجهول لم يكن به ما يُوصَف بغير الرجولة. قد يكون، بدلاً من طالب جامعي، طالباً في الأكاديمية العسكرية، ضابطاً شابّاً.

كنتُ محرَجَة، لم أعرف بماذا أجيبه. كنتُ أواصل التّشبُّث بمقبض الحقيبة الصغيرة، وأصابعنا تتلامس.

"إذا سمحتِ، حضرتكِ، لي، أقدِّم نفسي"، قال، "اسمي جويدو سورياني، في خدمتكِ". حدّق في عينَيّ منتظِراً أن أخبرَهُ أنا أيضاً باسمي. لكنني ظللتُ صامتة. لم أكن أريد التباسط معه. لا أعرف مَنْ يكون. لم أسمع ذلك اللقب في المدينة قطُّ، رغم أن العائلات ذات المقام الرفيع لم تكن كثيرة. سورياني. غريب. ثمّ لماذا يعاملُني كما لو كنتُ ندّاً له؟ أليس واضحاً أنني خَيّاطَة متواضعة؟ هل يريد الاستهزاء بي؟ قلتُ له بجفاف وأنا أمتلئ بالرِّيبة: "دَعْ، سيادتكَ، من ذلك. لستُ في حاجة للمساعدة".

"بل، أجل"، أصرّ. وليُبيّن لي ذلك، رَفَعَ ماكينة الخِيَاطَة، وكأنها ريشة. "سأحملها أنا، آنستي. إلى أين يمكنني مرافقتكِ؟"

بقيتُ صامتة. لم يكن باستطاعتي انتزاع الحقيبة من يده، لن أنجح في ذلك. شعرتُ بالرغبة في البكاء حَنَقَاً، لكنني منعتُ

نفسي. "سأنادي أحد العساكر، إذا لم تُعِدها لي"، هدّدتُهُ. ضحك، ووَضَعَ الثِّقَل. لكنْ، في تلك اللحظة لم أكن قادرة على رَفْعه، كنتُ أشعر بذراعي رَخْواً، خائر القوى، وبوَهنٍ غريبٍ. اضطررتُ لتَركِهِ يحمله مرّة أخرى. أغلقتُ فمي ساخطة، وسرتُ ببطء نحو منزل المهندس، وتبعني هو حاملاً حقيبتي.

عند بوّابة المنزل التقيْنا السِّيّدة، التي أبدت معرفتها بمرافقي. "صباح الخير، جويدو!" قالت له بحفاوة. "هل عدتَ في إجازة؟ كيف الحال هناك في تورينو؟"

لم أرغبْ في سماع المزيد. في تلك اللحظة عدتُ قادرة على حمل ماكينة الخِيَاطَة. مددتُ يدي، تركها هو لي، وانسللتُ عبر البوّابة، ثمّ إلى الأعلى على السُّلَّم.

فكَّرتُ في ذلك اللقاء طَوَالَ ما بعد الظهيرة، بينما كنتُ أقصُّ وأُسرِّجُ أجزاء زِيِّ القرصان لأجل كلارا، التي تمكث إلى جواري، ملتصقة بي تقريباً، وفي يدها كتاب والدها، لتتحقَّق من أنني أعدُّه

كما في الصورة بالضبط. كانت مستعدّة لجَمْع الدبابيس التي تقع، تهبُ كما لو كانت مساعدة، " مبتدئة صغيرة" كما يقولون في ميلانو. كنتُ أُجرِّب عليها نطاق الخصر من المُخْمَل الأصفر والعقد المدلَّاة التي جئتُ بها من إحدى الستائر القديمة، وأفكِّر في السِّيِّد الشّابِّ الذي تبعَني. كان شابّاً جميلاً، لا يمكنني أن أُنكر، ويبدو لطيفاً ومهذّباً. لقد تصرّف بطريقة محترمة. لكنْ، كم من الحكايات قرأتُ في الروايات، كم من القصص سمعتُ من صديقاتي ومن النسوة العجائز، عن شبّان من أُسر ميسورة غازلوا وأغووا فتيات فقيرات من عامّة الشعب، وخدعوهنّ بوعود لا تنتهي، وجلبوا لهنّ الويل، ثمّ هجروهنّ. حتّى إنه كانت توجد رواية لكارولينا إنفيرنيتسيو بعنوان قصّة خَيّاطَة متواضعة، تحذِّر من تلك المخاطر. كنتُ مضطربة، خائفة، لأنها كانت، أيضاً، المرّة الأولى في حياتي التي يؤثِّر فيها شابٌ عليّ بشكل كبير. لحسن الحظِّ، كان يدرس في تورينو، فكَّرتُ، وفي نهاية إجازة الكرنفال سيعود إليها.

telegram @t_pdf مكتبة

لكنْ، في الأيّام التالية التقيتُهُ عدّة مرّات في طريقي. لم أكن أحمل معي حقيبة ماكينة الخِياطَة الصغيرة. كانت زوجة المهندس قد أقنعتْني أن أتركها لديهم حتّى أنتهيَ تماماً من الزّيِّ، لأن مِعْصَمِي الأيمن كان لا يزال ضعيفاً. لن يلمسَها أحد، يمكنني أن أطمئنّ، ستحتفظ بها داخل خزانة مغلَقة بالمفتاح. كان جويدو سورياني يُحيّيني بانحناءة خفيفة وهو يرفع القُبّعة. لم أفهم إذا كان يفعل ذلك على سبيل الجدِّ أم المزاح. لم أكن أبادله التّحيّة، ولا حتّى بنظرة منّي، وكنتُ أتابع سيري. لكنني لم أستطع التّوقُّف عن التفكير فيه.

كانت الماركيزة الشّابّة استر قد عادت، لكنني لم أجرؤ على الحديث معها عنه. بماذا سيُمكنها أن تنصحَني؟ كان من الواضح أنه لا يمكن أن ينشأ أيُّ شيء بيني وبين سيّد شابٍّ من أسرة ميسورة. لم أكن أريد لها أن تعتقد أنني أحمل أفكاراً جنونية في رأسي. أعترف أنه بعد الرغبة الأولى في الحديث التي أعطاني إيّاها الاحتقار، لم أمتلك الشجاعة لأقصّ لها عن البارون سالاي. كنتُ أخجل ممَّا حَدَثَ، كما لو كان خطئي، كما لو كنتُ قد أثرتُهُ.

ثمّ إن البارون كان يتمتّع بتقدير كبير في المدينة، كان صهراً لأكثر العائلات أهمِّيّة. لم تكن عائلته من أكثر العائلات ثراء، لكنّ لقبه كان عريقاً للغاية. كان هو الوريث الوحيد، ولديه شقيقتان أكبر منه، عانستان تمتلئان بالتّكبُّر، مَنَعَتَاهُ دوماً هو أيضاً من الزواج. في كلِّ مرّة كان يُحكَم على الآنسة المختارة بأنها ذات أصول متواضعة للغاية، لا تُمكِّنها من الانضمام لعائلة سالاي. حتّى عندما تكون كونتيسة شابّة واسعة الثراء، أو ابنة ماركيز. وهو لم يكن يبدو عليه أنه يعاني من الوحدة. كان يجري خلف النساء، والجميع يعرف ذلك، لكنه كان، أيضاً، مشغولاً للغاية، كان يشارك في إدارة المدينة، ومجلس إدارة ملجأ الأيتام، وكان مستشاراً للمُحافظ، وخبيراً في المحكمة، وكان لأعوام مديراً لمَتْحَف المدينة.

كنتُ ألتقيه كثيراً في منزل الميس، كثيراً جدّاً. كان يراقبني بطريقة وقحة، وكأنه يقول لي: "عاجلاً أو آجلاً سأقتنصكِ". وكنتُ أنا، إذا لم يكن هناك آخرون في المنزل، أفرُّ في الحال. وفي وجود الميس، لم يكن بمقدوري إلّا أن أُلاحظ أنه يعاملها بقلّة تهذيب، بتكبُّر، وأنه يُملي عليها أوامر، وينتقدها. لكنْ، لماذا لا

يبقى في منزله؟ ولماذا تقبل هي استقباله؟ على أيّة حال، لم أكن قد أعدتُ إبرة المنجِّد إلى الحافظة الخاصّة. كنتُ أحملها دائماً معي، في وثاق الصِّدَار، وطرفها مدسوس في الرباط، لكنه في متناول يدي، لتحميَني من البارون، وربّما، مَنْ يدري؟ من الطالب، أيضاً، إذا استدعت الضرورة.

في أيّام قليلة، انتهيتُ من زيِّ ساندوكان الخاصِّ بكلارا. لم نكن قد ألبسناها إيّاه كاملاً، فقط قطعة منه كلّ مرّة. في بعض الظَّهيرة تلك كنّا سنقيم البروفة العامّة، وإذا كان كلٌّ شيء على ما يرام، سيدفعون لي أجري، ويصرفونني، وسأحمل معي ماكينة حياكتي.

أَوْقَفْنا، أنا والوالدة، الطفلةَ على طاولة الطعام، وخلَعْنا عنها الثوب المزيّن بالزهور، تاركين إيّاها في المِشْمَل الدّاخليِّ. حتّى ذلك كنتُ أنا أيضاً مَنْ صَنَعَهُ لها، كبقية ثيابها الدّاخليّة: نصف علوي من الموسلين بدون أكمام، حوافُّهُ مؤطَّرة بالدانتيل الفالنسي، وله أزرار عند الخصر، لتثبيت السروال الدّاخليِّ الطُّفوليِّ القصير، بطريقة تجعله ينفصل ويُخفض سريعاً في حال الاحتياج. أَلْبَسْنَاها

السترة المُخْمَلِيّة ذات صفَّي الأزرار، وطَرَف منفرج مُوشّى بعقد مدلَّاة تناسب الحَرْمَلَة. ثمّ الجَورَبَان بنفس لون السروال المنتفخ، ثمّ السروال، والحَرْمَلَة على الخصر، والحذاء الصغير ذي الطَّرَف الملتوي، مَكسوّاً، هو أيضاً، بالمُخْمَل، ومَحشوّاً بالقطن، ومُزيّناً بصفَّيْن من اللآلئ الزُجاجيّة الصغيرة. وفي النهاية جَمَعْنا لها شَعْرها الأشقر على قمّة رأسها، وغطَّيناه بالعِمَامَة. كانت كلارا تتركنا نُلْبِسُها وهي مطمئنّة، سعيدة تماماً. وكنتُ أنا راضية عن عملي، وإن كانت رؤية تلك الدُمية الصغيرة الهشّة والشقراء في زِيٍّ قرصان متوحِّش لا تزال تُدهِشُني. عندما أصبحتْ مستعدّة، حملتْها والدتها من أسفل ذراعَيْها، ووضعتْها على الأرض. ذهبْنا معاً إلى غرفة نوم الوالدَيْن، حيثُ يمكن للطفلة أن تشاهد نفسها في مرآة الخزانة الكبيرة.

"هل يعجبكِ؟" سألت الوالدة. ألقتْ كلارا نظرة، وانفجرتْ في بكاء يائس تاركة إيّانا في ذهول.

"لا، لا!" كانت تصرخ. "كنتُ أريده هكذا"، وتُظهِر غلاف الكتاب الذي كانت تحمله وراء ظَهْرها.

"لكنْ، حبيبتي، هو كذلك"، كانت الوالدة تعترض مرتبِكَة، "لقد رأيتُهُ والخَيّاطَة تخيطه. وقد صنعتْهُ لكِ مُطابِقاً".

كانت كلارا تبكي بقوّة حتّى إن المهندس أتى من غرفة مكتبه. ولدهشتي الكبيرة كان يرافقه مُغازلي، جويدو سورياني الذي جاء لزيارته. لكنْ، كان إحباط الطفلة عظيماً، وصرخاتها عالية حتّى إنه لم يكن بمقدورنا الاهتمام بشيء آخر عداها. ركع الوالد أمامها: "إذنْ، طفلتي الحبيبة، ما الذي يسوؤكِ؟ قولي لوالدك. كلُّ شيء يمكن إصلاحه".

"كنتُ أريده هكذا"، كرّرت كلارا بين شهقاتها مصوِّبة إصبعها إلى غلاف الكتاب.

"لكنه كذلك"، كانت الوالدة تُصرُّ.

تابع جويدو بنظره إصبع الطفلة، ووجد أنها لا تشير إلى الثوب، ولكنْ، إلى وجه القرصان. كَبَحَ ضحكة خافتة. "أنتِ مُحقَّة"، قال.

"لكنْ، كما يقول والدكِ يمكننا إصلاح الأمر"، وإلى الوالدة: "لو سمحتِ، هل لي بسدّادة من الفلّين وشمعة؟"

جلس على مقعد طاولة الزينة، وأخذ بين ركبَتَيْه كلارا التي توقّفت عن النحيب، وجفّف لها وجهها. "سترين أن كلّ شيء سيصبح على ما يرام الآن"، قال لها بنبرة مُطَمْئِنَة. كان يروق لي أن لديه طريقة تصرُّف جميلة هكذا مع الأطفال. كانت الوالدة، التي أدركت قَصْده، تُفحِّم لون السّدّادة على نار الشمعة. خطَّ جويدو في صبر برواسب الدخان، على وجه الطفلة الصغير، شاربَيْن جميلَيْن، ولحية دائرية كلحية كافور، وزاد من كثافة الحاجبَيْن. دفع كلارا نحو المرآة: "جيّد؟"

"لا" صرخت الطفلة. وبغضب خلَعَتْ عن رأسها العِمَامَة، وألقتْها على الأرض. نزعتِ الحذاء، وقذفتْهُ نحو المرآة، وهكذا فَعَلَتْ مع قطعَتَي الزِّيِّ الأخرَيَيْن في ثورة جنونية. ظلَّت بالمِشْمَل الدّاخليِّ، وخُصْلات شَعْرها الشقراء تتناثر على كتفَيْها، بينما تضمُّ إلى صدرها

بقوّة كتاب سالجاري. كان الشارب واللحية اللّذَيْن امتزجا بالدموع على البشرة الشقراء والرقيقة يتركان انطباعاً بالغ الغرابة.

"كلاريتا! ما الذي يسوؤكِ؟" كان الوالد يسأل فزعاً.

خطرت لجويدو فكرة. اقترب من الطفلة، وأخذ الكتاب من يدها، وأشار إليها على وجه القرصان، المرسوم بطريقة التمبرا كجميع رسوم السلسلة الملوّنة. كان وجهاً أسمر اللون، نحيفاً مُنهَكاً، له أنف معقوف، وعينان برّاقتان، وجه ناضج ومتوحِّش.

"هل كان هذا ما تريدين؟"

"هذا"، قالت كلارا.

"أي أنكِ اعتقدتِ أنه إذا ارتديتِ مثل ساندوكان سيكون لكِ أيضاً وجه يشبه وجهه؟"

أومأت الطفلة في صمت. قالت الوالدة: "لكن هذا رجل قبيح، يا حبيبتي. كيف يمكنكِ أن تعتقدي أنكِ تشبهينه؟"

"زِيِّ الكرنفال لا يمكنه أن يفعل هذه المعجزات"، أضاف الوالد. "ثمّ إنكِ أكثر جمالاً بكثير، أنتِ زهرتي الذّهبيّة الصغيرة".

بدأت كلارا في البكاء مجدّداً، بيأس هذه المرّة، وليس بغضب. ضمّها جويدو إلى صدره في صمت. كنّا نحن البالغين ننظر إلى بعضنا بعضاً في حَيْرة. كيف يمكن لأي منّا فَهْم أفكار طفل، ورغباته، وآلامه؟

"هَيّا، هَيّا. سترين أن الجميع سيمدحكِ في الحفل، سيكون قناعكِ أكثر الأقنعة التّنكُّريّة جمالاً"، قالت الوالدة.

"لا أريد أن أكون قناعاً. أريد أن أكون قرصاناً"، همست كلارا في صدر جويدو.

"أَلَا تُعجبكِ الطريقة التي زيّنتُ بها وجهَكِ؟ يمكنني أن أفعلَها بشكل أفضل، إذا كان لديكِ قليل من الصبر".

"لا أريد وجه القرصان. أريد أن أكون قرصاناً. مثل ساندوكان. قرصاناً حقيقياً. للأبد".

"عندما تكبرين يمكنكِ أن تصبحي قرصاناً، أعدكِ بهذا"، أجاب جويدو بصوت خافت.

بعد أن شهدْنا معاً مأساة طفولية غير مفهومة تماماً لنا نحن البالغين، لكنها عميقة للغاية على أيّة حال، بدا طبيعياً أن يرافقَني عند انصرافي، حاملاً بفروسية الحقيبة الصغيرة. لم أعد أخشى أن أُريَهُ أين أسكن. " غداً سأرحل إلى تورينو"، قال لي في الطريق. "أدرس هناك في الجامعة؛ هندسة. لكنْ، عندما أعود، آنستي، أرغَب في أن نلتقيَ مجدّداً. بل في تلك الأثناء، أودُّ أن أكتبَ إليكِ، إذا سمحتِ لي".

"أُفضِّل ألَّا تفعل"، أجبتُ بفطرية. كنتُ أخشى أن أبدوَ في مظهر سيِّئ بعباراتي الخالية من قواعد النّحْو. ثمّ إنه كان من الأفضل قَطْع تلك العلاقة التي لا تُنبئ بأيِّ خير في المستقبل، فوراً. كان لديّ كبريائي، لكنْ، في الوقت نفسه، كنتُ أخشى أن يفكِّر أنني لا أقبل بالكتابة له، لأنني لا أُجيدها، لأنني أُمِّيّة. يا لها من تناقضات! لم يصرّ هو. ولا حتّى كي أخبرَهُ باسمي. فلو أراد لأمكنَهُ أن يسأل عنه زوجة المهندس.

تبادلْنا التّحيّة أمام بوّابة بنايتي. وها هو وَهْم جديد يبرق في عقلي. كان عقارا راقياً. يمكنه أن يعتقد أنني أسكن في إحدى الشُّقَق في الطوابق العُلويّة، وليس في الطابق السُّفليِّ. لكنْ، ما الذي أفكِّر فيه! كان يظهر على الفور أنني مجرّد خَيّاطَة متواضعة، وليس من ثيابي فحسب، ومن أنني بدلاً من القُبّعة كنتُ أضع منديلاً، أعقده خلف رأسي أو أسفل ذقني، كان أوّل لقاء لنا بسبب ماكينة حياكتي. كيف يمكنني التظاهر بأنني آنسة، أنتمي لعائلة ميسورة؟ وكيف يمكنه هو أن يُعبِّر عن نوايا جادّة بشأني؟

لا، لا! كما صرختْ كلارا. ليست هذه قصّة الحُبِّ التي كنتُ أرغب فيها. كَذِبٌ وخداعٌ وإحباطٌ وهَجْرٌ. في تلك اللحظة نفسها، داخل قلبي، استسلمتُ. سأحتفظ إلى الأبد بذكرى لطفه معي.

"شكراً على كلِّ شيء"، قلتُ ببعض البرود. رفعتُ الحقيبة الصغيرة، وجذبتُ البوّابة من خلفي.

لم أعرف إذا كانت كلارا قد اقتنعتْ بارتداء زِيِّ ساندوكان لأجل حفل الأطفال الراقص الذي يُقام كلّ كرنفال في قاعة استراحة مسرح ماسكاني. كان لديّ عمل آخر يجب أن أُنهيَهُ بشكل عاجل، لوازم مولود جديد، يُفترَض أن يُولَد في أبريل، وتريد الجَدّة أن تهديها له كاملة يوم مولده.

ومن بينها كانت قِطَع القماش القطني المربّعة والمبطَّنة التي تُلفُّ فيها السّاقَان، لأنها كانت أسرة عصرية كآل أرتونيزي، وستلجأ لِلفائف البيكيه المبطَّنة والموشّاة بغُرز الخِياطَة عند لفِّ الصدر والجانبَيْن فقط لتدعيم الظَّهْر. كنتُ أخيط في المنزل، وأمكث

طَوَالَ اليوم بمفردي، ولديّ وقت طويل للتفكير. وبينما أنا أطرِّز تلك الأردية الصغيرة، وحاملات الأطفال، واللفائف، كنتُ أفاجأ بتخيُّلي لابنٍ لي، طفل سيكون له وجنتا الورد وعينان داكنتان وعذبتان كعينَي الغزال. لكنني كنتُ أطرد ذلك التفكير فوراً.

على أيّة حال، كنتُ أخصِّص يوماً في الأسبوع كالمعتاد لمفروشات ميس ليلي روز. أخبرتني تلك النّمّامَة فيلومينا أن الميس كانت مؤخّراً في مزاج سيِّئ للغاية، وأنها تُغلق على نفسها الغرفة، لتبكيَ، ولا تستطيع النوم إذا لم تأخذ دواء تدعوه الخادمة "مخدِّرها". كنتُ أنا أيضاً، عندما يتصادف أن أجدها في المنزل، أراها مهزومة وحزينة. فَقَدَتْ كثيراً من وزنها حتّى إنني اضطررتُ لأن أُضيِّق لها التنانير، وأنقل لها أزرار السترات. كانت تأكل قليلاً للغاية. كانت تبدو مريضة، وإن كانت تنهمك في أنشطتها المعتادة بنفس طاقتها.

ذات يوم لاحظتُ أنه توجد على وجنتها اليسرى بقعة تميل إلى الاصفرار، ككدمة شحب لونها. أدركت هي أنني أمعن النظر فيها،

فأسرعت بتبريرها: " إنه مكبح الدّرّاجة. لقد وقعتُ، دخل فرع شجرة بين أسلاك العجلة الأمامية. لحسن الحظِّ لم أخلع مِعْصَمِي، كما حَدَثَ معكِ". إنه حظٌّ حسن حقّاً: كانت في تلك الأيّام تُنهِي لوحة ذات موضوع دِينيٍّ، لوحة كبيرة، وبها كثير من اللون الأزرق، وكانت تعمل بسرعة بالمِلْوَقِ والفرشاة." طَلَبَهَا مِنِّي رئيس كاتدرائية ج."، فسّرت لي في لطف. "يجب أن أُسلِّمه إيّاها في موعد افتتاح المُصلَّى الجديد". كان لديها هي أيضاً مواعيد تسليم مثلي.

في شُقَّتها كان لا ينقطع مجيء الناس ورواحها المعتادين. بين الحين والآخر كان البارون سالاي يأتي بهيئة ربِّ العالم، ينتقد كلّ شيء، يُلاحِظ اللوحة عن مقربة بعدسة المونوكول، ويقول إن المنظور خاطئ تماماً، والألوان لا تتوافق فيما بينها. لكن الميس، على النقيض من عادتها، لم تكن تتقبّل النّقْد، وكانت تدافع عن عملها، وذات يوم سَبّتْهُ في حضوري.

عندما انتهت اللوحة، وبدلاً من أن ترسلَها في طرد بريدي، قرّرت الميس أن تحملَها بنفسها إلى ج.، وأن تحصل على إجازة قصيرة في تلك المدينة، حيثُ كان لديها صديقة يُربِّي زوجها الخيول. "قليل من ركوب الخيل في الهواء الطلق سيُفيدني"، قالت لنا وهي تعدُّ الحقائب.

في النهاية، لم تكن الإجازة قصيرة جدّاً. مكثت ميس بريسكوي بعيداً أكثر من شهر، وعندما عادت كانت مختلفة تماماً. كانت لا تزال نحيفة، لكنْ تلوّن وجهها من ركوب الخيل في الهواء الطلق، وصار ظَهْرها أكثر استقامة، وتحسّن مزاجها. اشترت قُبّعة جديدة، أنيقة للغاية، بها ورود من الحرير، وريش طاووس، وكرز وفاكهة أخرى من الشمع، لم يرَ أحدنا مثلَها بعد. توقّفت عن تناول الأدوية لتنام، هكذا أخبرتْني فيلومينا، ولأن الربيع كان قد حلّ لدينا نحن أيضاً، فقد كانت تخرج كلّ يوم في نزهات طويلة بالدّرّاجة. لكنها لم تكن تعود بحزم الأعشاب المزهرة المعتادة، بل طَلَبَتْ منِّي مساعدتها في وَضْع ألبوم الأعشاب، وبعض الكُتُب القديمة، وماكينة التصوير الفُوتُوغرافي، وكلّ لوازم الطباعة في صندوق كبير، ثمّ

طَلَبَتْ مِنِّي أن أحمل الصندوق إلى مكتب البريد، لأرسله إلى عنوان مصرفها في إنجلترا. كنّا، فيلومينا وأنا، نطرح آلاف الأسئلة حول نوايا الميس، وكانت دهشتنا أكبر عندما وجدتُ وأنا أفتح درج طاولتها الصغيرة بحثاً عن زرٍّ انفصل عن قميص نومها، مسدّساً بدلاً من الزّرِّ. مسدّس صغير، يمكن للمرء أن يحمله في جيبه أو في حقيبة يد نسائية صغيرة.

فاجأتْنا الميس ونحن نتناقل بين أيدينا مندهشَتَيْن ذلك الشيء الخطير، لكنها لم تغضب كما خشيْنا. قالت لنا إنه خطؤها، وإنها كان يجب أن تُغلِق الدرج بالمفتاح. لحسن الحظِّ كان فارغاً، لكنْ، إذا رأيناه مرّة أخرى في أيِّ مكان، يجب علينا ألّا نلمسه أبداً. لا يلزم سوى اليسير لإطلاق رصاصة وقَتْل شخص ما.

سألتْها فيلومينا، الأكثر جرأة منِّي: " لكنْ، ما الحاجة للاحتفاظ بمسدّس في المنزل؟"

"أنتِ مُحقَّة. وبالفعل لم يكن لديّ حتّى اليوم واحد قطُّ. اشتريتُهُ في ج. لأنني قمتُ مع صديقتي وزوجها بعدّة جولات في غابات تلك المنطقة، حيثُ يُقال إنه من الممكن أن تلتقيَ قطّاع طُرق. يا للحماقة!" ضحكت. "التقينا رجالاً بدائيّيْن إلى حَدٍّ ما، لكنهم كانوا رُعاة، وكلٌ ما أرادوه منّا هو أن نتذوّق ونشتريَ جبنهم اللذيذ للغاية".

"لكنْ، هل تستطيعين استخدامه؟" سألتْ فيلومينا مجدّداً.

"نعم، أعرف كيف أستخدمه منذُ صباي. يحمل الجميع في أمريكا عند سفرهم مسدّساً معهم. لكنْ، ربّما من الأفضل أن أُودِعَهُ المصرف، في خزانة أمانات".

ولم يلزم كثير من الوقت، كي نكتشف أنها لم تفعل ذلك.

بعد بضعة أيّام من اكتشاف المسدّس، دَعَتْني الميس جانباً، وسألتْني إذا كنتُ أريد درّاجتها هدية. "لا أستطيع إعطاءها إلى

فيلومينا، فقد لا يسمح لها زوجها باستخدامها. لكنْ، أنتِ بلا زوج، وأرى أنكِ غالباً ما تضطرِّين لقَطْع طريق طويل للوصول إلى مكان العمل. ستكون مفيدة جدّاً لكِ. كما أن بها حامل حقائب جيّد".

بحقّ الله، فكَّرتُ، سأجعل المدينة كلَّها تسخر منِّي. قد يظنُّون أنني فتاة غير جادّة. ثمّ هل سأضطرُّ لارتداء تلك التّنُّورة – السروال السخيفة؟ لكنْ، لم يكن باستطاعتي أن أخبرها بذلك. لا يمكنني مبادلة كرمها بإهانة.

"لا أعرف كيف أقودها" برّرت، على النقيض. " سأقع وأؤذي نفسي. أشكركِ كثيراً. لكنْ، معذرة، كيف قرّرت حضرتكِ التّخلُّص منها؟"

"لا تخبري أحداً الآن، لكنني سأرحل الشهر المقبل. سأذهب إلى أمريكا".

"كما حَدَثَ منذُ عامَيْن. ستذهبين حضرتكِ لزيارة شقيقتكِ، أليس كذلك؟ لكنكِ ستعودين بعد ذلك، يمكن للدّرّاجة أن تنتظركِ في المخزن في الأسفل ".

"هذه المرّة لن أعود، ينبغي عليّ إخلاء الشُّقَّة، لقد ألغيتُ عقد الإيجار بالفعل، أريد أن أتخلَّص من كلِّ ما لا يمكنني حَمْلُهُ معي".

شعرتُ بالإعياء حتّى إن الميس أخذت يدي، وأجلستْني إلى جوارها. "لقد مكثتُ أطول ممَّا ينبغي أيضاً"، قالت لي. "أكثر من عشرة أعوام، ولم تساوِ العناء. عاجلاً أو آجلاً كنتُ سأضطرُّ لأخذ هذا القرار. أقنعتْني صديقتي من مدينة ج. بأنه قد حان الوقت. لكنني سعيدة، أتعرفين؟ الرحيل من هنا هو كبدء حياة جديدة، إلقاء كلِّ الآلام خلف الظَّهْر".

لم أكن مقرّبة منها حَدّ أن أسألها عن ماهية هذه الآلام. ولم تخبرني هي عنها.

"يؤسفني كثيراً. سأفتقد حضرتكِ"، همهمتُ.

" يجب ألّا تقلقي بشأن العمل"، قالت الميس وهي تشد بقوّة أكبر على يدي. "لقد أعطيتُ أمراً لمصرفي هنا بمَنْحكِ المبلغ نفسه الذي أعطيه لكِ الآن كلّ شهر، كما لو أنكِ لا تزالين تأتين للعناية بمفروشاتي. أوصلتُهُ إلى أربعين ليرة، سيكون الحساب أبسط بالنسبة إليهم هكذا".

كان أكثر من ضعف ما تعطيني إيّاه. مالٌ كثير دون أن أفعل شيئاً! لم أكن أستطيع التصديق، لم يحدث لي من قبل أبداً.

"ولكم من الوقت؟" جرؤتُ على سؤالها.

"للأبد. معاشٌ صغيرٌ مدى الحياة. ووفَّرتُهُ لفيلومينا أيضاً. هكذا ستحتفظان بذكرى طيِّبة عنِّي".

لم أجد ما أقوله. وكنتُ أفكِّر في رأي جَدّتي أن الميس أكثر ثراء بكثير ممَّا يبدو عليها، وأنها سيّدة عظيمة.

ثمّ قالت لي: "المِشَدُّ الذي أرتديه عادة في السَّفَر، لأُخفي فيه المال والوثائق قديم، وتمزّقت جيوبه .."

"هل ينبغي أن أصلحه؟" سألتُ.

"لا. ينبغي أن تصنعي لي واحداً جديداً، أكثر متانة، وبجيوب داخلية أوسع. هذه المرّة يجب أن أحمل معي كلّ الدولارات والجنيهات الإسترليني التي أحتفظ بها في خزانة الأمانات نَقْدَاً".

لم أُفاجَأ. كان أحد قِطَع الثياب الدّاخليّة، إذا جاز أن نطلق عليه ذلك، التي صنعتُها لبعض السّيّدات العجائز اللّاتي اعتدنَ السَّفَر. كان يسهل نَزْع الحقيبة من اليد، وكان من الأفضل ألّا يُوضَع فيها سوى الفَكَّة، والمنديل، والأملاح العطرية والأشياء غير القيمة التي ينبغي الاحتفاظ بها في متناول اليد. بالنسبة إلى الأشياء القيّمة كان

المِشَدُّ هو الحلّ المثالي. لا بدّ من اعتداء جسدي مباشر، ونَزْع ثياب الضّحيّة للحصول على ما يوجد فيه. لكنْ، لا يمكن لهذا أن يحدث إذا انتبهت النساء لعدم البقاء بمفردهنّ أبداً في أماكن منعزلة.

كانت جَدّتي هي مَنْ صَنَعَتِ المِشَدّ القديم للميس منذُ أعوام طَوَالَ. رأيتُهُ بضع مرّات وأنا أرتِّب الأدراج، وكانت حالته سيِّئة فعلياً. وهكذا ذَهَبْتُ بالنقود التي دفعتْها لي الميس مقدّماً، لأشتري قماشاً متيناً، وشرائط قطنية، ومشابك جديدة، وأعواداً جديدة من عِظَام الحوت. أخرجتُ التصميم الورقي الذي كنتُ أحتفظ به مع تصميمات أخرى، قمتُ بالقَصِّ، وسرّجتُ، وحملتُهُ إلى ميس بريسكوي، كي تقيسَهُ.

"جيِّد. لكنني أريد به مزيداً من الجيوب"، قالت لي.

"إذا مَلأتِهِ، حضرتكِ، بما يزيد عن الحَدِّ سيصير في صلابة أحد الدروع" علّقتُ.

ضحكت. "درع محارب. سأحتاج إليه هذه المرّة. ستكون معركة جيّدة نجاحي في الانفصال عن هذا المكان، الانفصال عن ..."

بَتَرَتْ كلماتها. ثمّ نهضت، وبدأت في المشي بعصبية في الغرفة. "كفى!" كانت تقول دون أن تُولي وجهها نحوي، كما لو كانت تتحدّث إلى قِطَع الأثاث والجدران. "كفى! لقد انتهى الأمر. إلامَ أدّى صبري؟ لا يمكنه أن يتزوّجني، هكذا يقول. ولماذا؟ ما العائق؟ أَلَا يعتبرني كُفئة؟ لا يستطيع؟ ليمتلك الشجاعة ليقول إنه لا يريد، إنه يخجل مِنِّي. لكنْ، أنا مَن أخجل منه. ماذا يظنُّ؟! أننا لا نزال نعيش في العصور الوسطى، في زمن العبيد؟ أيريد مَحظِيّة يُبقيها سرِّيّة؟ لكنني سيّدة حُرّة. لا أحتمل تلك الغَيْرة. ولديّ ما هو أفضل من البقاء هنا لتلقِّي الإهانة. العالم كبير، ولا أزال شابّة. لديّ أشياء جميلة لأراها وأحقِّقها. ماذا يظنُّ؟! أنه قد قصّ جناحَيّ؟ آه، سيرى إذنْ إذا كنتُ لا أزال أستطيع التحليق!"

كنتُ أنظر إليها بعينَيْن مشدوهَتَيْن، وأنا أُمسك المِشَدّ في يدي. كانت الجَدّة مُحقَّة إذنْ. يوجد رجل خلف الأمر. لكنْ، مَنْ؟ هل

كنت ساذجة للغاية طَوَالَ تلك الأعوام حتّى إنني لم أكتشف ذلك؟ ربّما كانت فيلومينا تعرفه.

عادت الميس إلى الجلوس إلى جواري. هدأ البوح منها. كانت عيناها تضحكان. "لديّ كثير من تلك المشروعات، أتعرفين ذلك؟ أشياء طالما أجّلتُها، أصدقاء لم أرهم منذُ زمن طويل. قبل أن أرحل إلى أمريكا، أريد أن أزورَ سكوتلاند، ثمّ جزيرة وايت. ويوجد شيء مميّز، تنتظرني صديقتي إيلين، لتُريَني معمل صورها. تِقْنِيّة فنِيّة جديدة، صور كاللوحات، أريد أن أتعلّمها أنا أيضاً. كم أضعتُ من الوقت ...!!"

"لقد فعلتِ، حضرتكِ، أشياء كثيرة جميلة هنا أيضاً"، علّقتُ بخجل.

عانقتْني. لم تفعل أيٌ سيّدة هذا قطُّ. فقط الآنسة استر بضع مرّات. إنهما سيّدتان مميّزتان.

"أَنصِتِي لي"، قالت الميس بجدِّيّة. "أنت شابّة، وقد يحدث أن تقعي في الحُبِّ. لكنْ، لا تسمحي أبداً بأن يُقلِّل أيُ رجل من احترامكِ، أن يمنعَكِ من فعل ما يبدو لكِ صائباً وضرورياً، ما يروق لكِ. الحياة ملكٌ لكِ، ملككِ، تذكَّري هذا. ليس لديكِ واجب سوى نحو نفسكِ".

كلمات صعبة، تليق بأمريكية. يجب أن تضحِّي المرأة بنفسها، يجب أن تتحمّل، ولا يمكنها أن تدعَ الناس يلوكون سيرتها. هذا ما علَّمونا إيّاه دائماً، هذا ما نفعله كلُّنا. ألم تكن تضحية كبيرة منِّي أن أتخلَّى عن أحلامي حول السَّيِّد جويدو؟ كنتُ أفكِّر فيه آنذاك، كما أفعل مع جَدَّتي، بمحبّة كبيرة، وتحسُّر، كما لو كان شخصاً سأراه في الجنّة فحسب، إذا كانت موجودة.

زدتُ من كفاءة المِشَدِّ كما طَلَبَتِ الميس. أضفتُ إليه جيوباً. كانت قد فَقَدَتْ كثيراً من وزنها مؤخّراً حتّى إنها كانت تحتفظ، بعد أن حشوتُ المِشَدّ تماماً بالأوراق النَّقْدِيّة والعملات، بمظهر نحيف. قمْنا بتجارب قياس عدّة. بمجرّد ارتدائها السترة لن

يحدسَ أحد أنها قد تحمل كلّ ذلك المال معها. كانت قد سَحَبَتْ من المصرف كلّ النّقْد الذي تملكه، وكان مبلغاً كبيراً. كنتُ أشعر بالدهشة من أنها، مع كلِ تلك الأموال في المنزل، لم تكن تُغلِق الباب بالمفتاح، وتستمرُ في الاكتفاء بالمزلاج.

يوماً بعد يوم كانت تهدي أشياءها إلى الأشخاص الذين يأتون لزيارتها. ذاع خبر رحيلها النِّهائيِّ في المدينة. كان كلُّ مَنْ تردّد عليها في كلِّ تلك الأعوام يأتي لتحيّتها. جاء أيضاً البارون سالاي ذات يوم وأنا أساعد الميس في وَضْع الثياب في الصندوق الأُفقيِّ الكبير الذي سيسافر معها. كان هناك أشخاص آخرون في الغرفة، لكنْ، عندما بدأ البارون في الحديث العُنْجُهِيِّ، صَمَتَ الجميع احتراماً. كان هو يعرف أنهم يُنصِتون إليه، فكان يتحدّث مشدِّداً على كلماته، كما لو أنه ممثِّل مسرحي. كانت الميس تسمع بشرود، متابعة عملها.

"وإذنْ، لقد قرّرتِ، حضرتكِ"، قال سالاي متطلِّعاً بعدم رضا إلى الجدران العارية من اللوحات، التي تَرَكَتْ أثرها عليها. " قرار خاطئ. ستندمين عليه".

"لا أظنُّ"، أجابت الميس هادئة. "سأسعد برؤية منزلي وشقيقتي وأصدقائي مجدّداً".

"أفضلُ أصدقائكِ هم مَنْ تتركينهم هنا"، قال البارون.

"لم يتّضح أنهم كذلك. هذا ما فهمتُهُ أخيراً".

"أنتِ لا تفهمين شيئاً. أنتِ غبية".

"إذا كان هذا ما تظنُّه، فلن تفتقدَني".

"لا، حقيقة. جئتُ لأُحيّيكِ، لأنني سأرحل أنا أيضاً. قبل رحيلكِ بثلاثة أيّام. سأذهب إلى باريس".

"أتمنّى لكَ رحلة سعيدة. لتستمتع".

لم أستطع عدم التفكير في لو شاباني. بعد فضيحة نساء بروفيرا لم يعد لبراءتي في هذه الموضوع وجود. بالتأكيد، فكَّرتُ، لن تعوزَ البارون الخمسمئة فرانك مبلغ الرسوم الأساسية.

جاءت ليلة رحيل الميس. كانت الحقائب قد أُرسلت بالفعل إلى المحطَّة. لم تبقَ في الشُقَّة إلَّا قليل من قِطَع الأثاث، تلك الخاصّة بغرفة النوم وقاعة الاستقبال، والتي كان المالك يريد أن يحتفظ بها لنفسه. كنّا فيلومينا وأنا قد انتهيْنا من كَنْس أرضية الغرف الخاوية، وانصرفتْ هي لمنزلها، على أن تعود قبل الفجر برفقة زوجها وعربة مستأجرة لاصطحاب الميس إلى المحطَّة. مكثتُ أنا لمدّة أطول قليلاً، لأتحقَّق من أن كلّ شيء مرتّب وعلى ما يرام. تجوّلتُ مرّة أخرى في الغرف. كانت الميس حريصة على تسليم الشُقَّة كما استلمتْها. في النهاية صَرَفَتْني بعناق، وبقشيش جيّد كريم، وبطاقة كَتَبَت عليها ميس ليلي روز عنوانها في نيويورك. "إذا فكَّرتِ في أن تهاجري ذات يوم، اكتبي لي"، أوصتْني. بكيتُ قليلاً، ولم تفعل

هي. كانت سعيدة للغاية ومتحمِّسة تماماً لأن يطالها التّأثُّر. كان الثوب ذو السترة الخاصُ بالرحلة جاهزاً، وكذلك المِشَدُ، المَحشوُ بالأوراق النّقْدِيّة والعملات.

"فلتعدينني أنكِ الليلة على الأقلِّ ستُغلقين الباب بالمفتاح"، توسّلتُ لها.

"حسناً، أعدكِ. لكنْ، انصرفي الآن. لقد تأخّر الوقت. حظّاً سعيداً". نزلتُ السُلَّم وأنا أُجفِّف عيني بالمِئْزَرِ. حتّى وإن كانت هي لا تريد، قرّرتُ أن أذهب في اليوم التالي لأنتظرَها في المحطَّة، كي أُحيّيها للمرّة الأخيرة.

لم أستطع النوم تلك الليلة. غفوتُ لبضع دقائق، وبدأتُ أحلم، وعلى الفور استيقظتُ لاهثة. حلمتُ بجَدّتي التي تنظر لي بتعبير قَلِقٍ، كان يبدو أنها تحاول تحذيري من خطر ما. "أعرفُهُ، أعرفُهُ"، كنتُ أريد أن أجيبَها. " لا تقلقي، لن أفكِّر في جويدو سورياني مجدّداً". لكنني استيقظتُ قبل أن أتمكَّن من الحديث. قرّرتُ أن

أنهض. أضأتُ الشمعة، وأخذتُ كتاباً. كان المنزل بارداً، تدثّرتُ بالشال، وجلستُ إلى جوار النافذة، أنتظر ضوء الفجر، لأرتديَ ثيابي، وأخرجَ كما قرّرتُ.

لكنْ، لم تكن الشمس قد بزغت بعد عندما سمعتُ طَرْقاً خفيضاً على مصراعَي النافذة الخشبيّيْن اللّذَيْن يطلّان على الطريق، كانت فيلومينا.

"هَيّا! أسرعي!" قالت لي بصوت منخفض وحزين. " حَدَثَت مصيبة. جاءت الشرطة. يريدون التّحدُّث إليكِ".

"لكنْ، أين؟ ماذا حَدَثَ؟"

"في منزل الميس. لقد ماتت".

شعرتُ بقلبي يُعتَصَر. على الفور ارتديتُ فوق قميص النوم تنُورةً وصِدَارَاً، وتدثّرتُ بالشّالِ، لأنني كنتُ أتجمّد من الأسى، وهُرعتُ خلف فيلومينا.

وجدوها، هكذا كَتَبَ رجال الشرطة في المحضر، مرتديةً ثوب السّفَر، ذي السترة، من الجبردين الرّماديِّ، وتحته مِشَدٌّ غريب مَحشوٌّ بأوراق النّقْد الإيطالية والأجنبية، دولارات على وجه الخصوص. كان يوجد أيضاً في أحد الجيوب، في الجانب الأيسر تحديداً، عدد كبير من الجنيهات الإسترليني الفضِّيّة. بقليل من الحظِّ، كان يمكن لأحد تلك العملات أن يُوقِف الطلقة التي أصابتْها في القلب. لكنه لم يحدث. كانت الميس ليلي روز بريسكوي تعيسة الحظِّ في الحياة، وفي الموت.

في الشُّقَّة، عندما وَصَلْتُ، كان هناك العديد من شرطِيِّي الأمن العامِّ والطبيب بونيتي، الذي يسكن في الناحية المقابلة. اصطحبَني الشّرطيُّ الأكبر سنّاً لرؤية الميس. كانت في الغرفة، ممدّدة على الفراش، ومغطَّاة حتّى ذقنها بمُلَاءَة، وشَعْرها مصفَّف.

كانت تبدو نائمة. على الأريكة المجاورة وُضِعَ ثوب الجبردين والمِشَدُ والقميص الدّاخليُ.

"هل تتعرّفين عليها؟" سألني الرجل بلطف، وهو يمسك بمَرْفِقِي متأهِّباً ليتلقّاني في حال فَقَدْتُ وعيي. رأيتُ نفسي في مرآة الكومود، كنتُ أكثر شحوباً من لون المُلَاءَة. لكنني لم أفقد الوعي. كان يبدو لي أنني داخل فُقاعة من الزجاج، وأنني في مكان آخر، أراقب المشهد، بمَنْ في ذلك شخصي أنا، من مسافة بعيدة للغاية.

"بالتأكيد أعرفها"، قلتُ. "إنها ميس ليلي روز بريسكوي. أنا أعمل، أقصد كنتُ أعمل، لديها منذُ عشرة أعوام".

"الخادمة تقول إنكِ آخرُ شخص رآها حَيّة أمس. هل هذا صحيح؟ متى انصرفتِ؟"

"في الثامنة والنصف. لكنْ، ماذا حَدَثَ؟ كانت في خير حال. هل أصابتْها أزمة؟ امرأة في ريعان شبابها هكذا. القلب؟"

"القلب. أجل. لكنْ، ألم تخبركِ الخادمة بأيِّ شيء؟ لقد أطلقتْ على نفسها الرصاص".

انهرتُ جالسة على الأريكة، فوق ثياب الميس، وشعرتُ خلف ظَهْري بامتلاء المِشَدِّ المكتظِّ بالنقود، وبصلابة العملات.

"مُحال"، قلتُ. "لا أُصدِّق. بالتأكيد دخل أحد اللصوص. كان يوجد الكثير من المال في المنزل".

"ولا يزال. لم يُفقَد شيء، هكذا تقول الخادمة. هَلُمِّي إلى هنا، لتتحقَّقي أنتِ أيضاً".

تبعتُهُ إلى قاعة الاستقبال. كانت هناك فوضى عارمة. حقيبة السَّفَر مفتوحة، وحاجيات الميس مبعثرة في كلِّ مكان، على الأرض،

فوق المقاعد، في كلِّ مكان. صفحات كتاب ممزّقة. أوراق نَقْدِيّة من فئات كبيرة وصغيرة. مقاعد منكفئة. وعلى الأرض أيضاً السّجّادة المُخْمَلِيّة ذات العقد المدلّاة، التي تغطِّي الطاولة عادة، والمزهرية الكريستالية مع النرجس البرِّيِّ، والماء الذي شكّل بقعة صغيرة. وعند قَدَم الأريكة، المسدّس.

"لا تلمسيه!" أمرني الشّرطيّ. "نحن في انتظار وصول المُفَوّض". كانوا قد رسموا حوله، على الأرض، مخطّطاً بالطَّبْشُور الأبيض.

"لكنْ، من الواضح أن شخصاً ما قد دَخَلَ، لقد تعاركا"، علّقتُ. كان يبدو لي غريباً حقّاً أن تتمكّن الميس، قبل انتحارها، من أن تصنعَ حولها، وبمفردها، مصيبة كتلك.

"كان الباب مغلَقاً بالمفتاح. ولا يوجد على النوافذ أيُّ أثر لاقتحام. لقد تفحّصْنا كلّ شيء"، قال الشّرطيّ.

"كانت تنتاب الميس عادة نوبات، أزمات هيستيرية. كانت تُلقي كلّ شيء في الهواء، تمزِّق الكُتُب، وتحطِّم الأكواب"، قالت فيلومينا التي كانت تقف إلى جوار الباب وهي تفتلُ يَدَيْهَا. نظرتُ إليها مذهولة. لم أشهد قطُّ خلال أعوام طَوَالَ إحدى تلك الأزمات، ولم أسمع أحداً يتحدّث عنها. "لم أخبركِ عن ذلك، لأنها كانت تخجل منها فيما بعد"، فسّرتْ لي. "كانت تنتابها عندما تُفرِط في تناول مخدِّراتها".

"كفِّي عن ذلك. كان دواء منوِّماً. ولم تعد تتناوله منذُ أشهر".

"وماذا تعرفين أنتِ؟ وَجَدَ الشّرطيّ على الكومود كوباً مستعمَلاً والزجاجة مفتوحة".

لم يتفوّه الطبيب في تلك الأثناء بكلمة. كنتُ أعرفه، كنّا قد ذهبْنا أنا وجَدّتي بضع مرّات لزوجته لقلب أحد المعاطف. أناس طيِّبون هم آل بونيتي، لكنْ، لديهم أطفال كثيرون بما لا يسمح لهم عادة بشراء ثياب جديدة.

"هل كانت الأمريكية مضطربة أمس عندما انصرفتِ؟ هل كانت تشكو من شيء؟" سألَني رجال الشرطة.

"لا. كانت مطمئنّة. سعيدة. لم يكن لديها ما يدفعها لقَتْل نفسها".

"لم تكن لتقصّ لكِ ذلك"، قاطعتْني فيلومينا. لم أنجح في فَهْم كلِّ تلك العدائية. أصابَني دوار. أحضر لي أحدهم كوباً من الماء.

في تلك الأثناء وَصَلَ المُفَوّض برفقة أحد مصوِّري الشرطة. طَلَبَ إعادة رواية الأحداث. كانت فيلومينا هي مَنْ وجدت الميس. قصّتْ أن موعدها مع ربّة المنزل كان في السادسة صباحاً: القطار يصل في السابعة. لكنها استيقظت بغتةً في الرابعة، بسبب حُلْم مزعج كانت الميس تناديها فيه باكية. "عادة لا أؤمن بذلك، لست من معتنقي الخرافات. لكن هذا الحُلْم كان غريباً للغاية. كما لو كان حقيقة تحدث في يقظتي. نهضتُ، ودون أن أُزعج زوجي، جئتُ لأرى؟ أنا أسكن خلف الزاوية تماماً". عادت إلى مخيّلتي الجَدّة بوجهها القلق في الساعة ذاتها. لم تأتِ لتُحذِّرني من

الطالب، بل جاءت لأجل الميس، فكَّرتُ. سرعان ما شعرتُ بالخجل، لم تكن تلك خيالات تُقصُ إلى مُفَوّض شرطة.

هُرِعَتْ فيلومينا إلى منزل الميس، وبخلاف المعتاد، وَجَدَتِ الباب مغلقاً بالمفتاح. لكنْ، كان معها نسخة منه، فَتَحَتْ، ودَخَلَتْ، ولاحظتِ الفوضى على الفور. كان أحد أحذية ربّة المنزل مُلقَى على الأرض، مقلوباً، عند عتبة حجرة المعاطف. كانت الميس في قاعة الاستقبال، جالسة على الأريكة، ورأسها مُلقَى إلى الوراء، وعيناها مغلقتان، فاقدة للوعي. كانت تحتضر.

"هل كانت ترتدي قميص النوم؟" سأل المُفَوّض.

"لا. كانت ترتدي ثوب سَفَرها".

"ألم تكنْ قد آوت إلى الفراش في الرابعة صباحاً؟! أم أنها نهضت، وارتدتْ ثيابها؟"

ضمّت فيلومينا كتفَيْها. لم تكن مسؤولة عن عادات الميس الغريبة. لقد رأتْ منها كثيراً، هكذا أوضحتْ. فَزِعَتْ، وبدلاً من أن تُسعِفَ ربّة المنزل، هُرعَتْ إلى الطريق لتستدعيَ الطبيب بونيتي، وعادت برفقته.

لم يكن يبدو أن الميس لا تزال تتنفَّس، لكنْ، لم تكن توجد دماء حولها، أفاد الطبيب، وهكذا ظنّ أنه إغماء، أو أزمة قلبية، لا يزال يمكنه التّصرُّف معها. رفعاها هما الاثنان، وحملاها إلى الفراش، خَلَعَ عنها الطبيب السترة، ليُيسِّر لها التّنفُّس، ورأى المِشَدّ. حلّ أربطته هو أيضاً، وبدهشة كبيرة، اكتشف ثقب الطلقة في الجانب الأيسر من الصدر. قرب ريشة من فم ميس بريسكوي. لم تتحرّك. لكن الجسد لم يكن بارداً، ولا متصلِّباً، شرح الطبيب. لهذا فكَّر سابقاً أنها قد فَقَدَتِ الوعي فحسب. منذُ كم من الوقت ماتت الأمريكية؟ يصعب تحديد ذلك. خمس دقائق؟ عشر؟ عشرون؟ ليس أكثر من ثلاثين، لكنْ، لم يكن بمقدوره تأكيد ذلك حتّى لأن الموقد الكبير من البورسلين كان يعمل، وكان الجوُّ حارّاً للغاية.

"عندما وجدتُها كانت لا تزال تتنفَّس، كانت تُحشرِج"، كرّرتْ فيلومينا. "ولم تستغرق حضرتكَ أكثر من خمس دقائق لتأتيَ".

"لكنْ، كيف يكون عدم وجود الدماء ممكناً؟" سأل المُفَوّض.

"يمكن أن يحدث" فسّر الطبيب. "إذا اخترقت الطلقة الرِّئة أيضاً، فربّما تتجمّع الدماء هناك بالداخل. سيُحدِّد التشريح ذلك. لكنّ هذا لن يُغيّر من الأمر كثيراً".

بالرغم من أن فيلومينا، المقتنعة بأن الأمر لا يتعدّى كونه انتحاراً، كانت تُصرُّ على عدم التصريح بذلك حماية للميس من الفضيحة، ومن إدانة الكنيسة، إلّا أن الطبيب بونيتي أرسلها لتستدعيَ رجال الشرطة من أقرب مركز. وعندئذ فقط، انتبه أحد الرجال، وهو يدخل إلى قاعة الاستقبال، إلى وجود مسدّس الأمريكية، أرضاً، عند قَدَم الأريكة، بالقرب من النرجس البرّيِ. طَلَبَ المُفَوّض منّا، أنا والخادمة، أن نشهد بأننا قد رأيناه من قبل، وأن الميس قد اشترتْهُ مؤخّراً، وأنها كانت تحتفظ به في درج الكومود. "كي

تُطلقَ على نفسها الرصاص عندما تُراودُها الرغبة فيِ ذلك"، علَّقت فيلومينا بنبرة حقد، أَشعرَتْني بالإهانة. لو كانت ربّة عملها على قيد الحياة، لم تكن لتجرؤ على ذلك. لا أعرف كيف كانت واثقة هكذا من أن الأمر لا يعدو كونه انتحاراً. فقط لأن الباب كان مغلَقاً بالمفتاح؟

لم يكن الطبيب هو أيضاً مقتنِعاً بذلك. رافق المُفَوّض إلى غرفة النوم. تناول الثوب والمِشَدّ من على الأريكة، وأراهما إيّاه. تبعتُهما أنا أيضاً، ورأيتُهما. لم يُمسّا. ليس بهما ثقب، ولا بقعة دم، أو حتّى حَرْق بسيط. كيف استطاعت الطلقة اختراقهما والوصول إلى القلب؟

"كانت الميس تحرص كثيراً على تلك السترة"، تدخّلت فيلومينا. "لا بدّ أنها قد حَلَّتْ أزرارها، وخلعتْها قبل أن تطلق النار على نفسها".

" لتُزرِّرَها بعد ذلك مرّة أخرى؟ والمِشَدُّ؟ إنه متين للغاية، ويُغلَق بصفٍّ من المشابك. لقد عانيتُ، لأفتحَهُ"، قال الطبيب.

"لكنها كانت متمرِّسة. ولم تمتْ على الفور، عندما وجدتُها كانت لا تزال تتنفَّس. كان باستطاعتها أن تُحكِمَ ثيابها مرّة أخرى"، أصرّت فيلومينا. كان المُفَوّض يُدوِّن كلّ شيء. طَلَبَ منّا أن ننظر جيّداً في كلِّ مكان، وأن نخبره إذا كان هناك شيء مفقود. أراد أن يعرف مَن أيضاً يمتلك المفاتيح. لم يكن ينقص شيء، والمفاتيح كانت بحوزة فيلومينا فقط.

كان أمر الثياب التي لم تُمَسّ غريباً بشدّة. رَفَضَ الطبيب التوقيع على شهادة الانتحار. قرّر المُفَوّض أن يفتحَ تحقيقاً. أمر بوَضْع الأختام على الشُّقَّة. كانت فيلومينا تعترض، تريد إنقاذ سمعة ميس بريسكوي، وتخشى القيل والقال. قرّر المفتِّش، ليس إرضاء لها، بل رغبة في عدم تنبيه المجرمين المحتملين، إشاعة خبر أن ميس بريسكوي قد ماتت، عشية سَفَرها، على إثر أزمة قلبية، وطَلَبَ منّا الصمت.

بهذه الطريقة أصدرت الكنيسة شهادة إبراء لأجل إقامة الجنازة الدِّينيّة التي شاركت فيها أكثر الشّخصيّات أهمِّيّة في مدينتنا، والعائلات رفيعة المنزلة، مَن كان يعرفها جيّداً، ومَن كان يعرفها عَرَضَاً، بدافع الفضول، كما أعتقد، أكثر ممَّا هو بدافع التعاطف، وليتحقَّق كلٌّ منهم من وجود الآخر، ليروا مَنْ حَضَرَ ومَنْ غاب. لم يحضر البارون سالاي بالطبع. كان الجميع يعرفون أنه قد رَحَلَ إلى باريس. أجل، كان واحداً من أكثر المتردِّدين على منزل الميس مداومةً، لكنْ، لم يتوقَّع أحد أن يعود من مكان بعيد هكذا لحضور الجنازة. وفي نهاية الموكب، مجموعة كبيرة من الفقراء مثلي، أشخاص متواضعون، أناس من عامّة الشعب عملوا في خدمة ميس بريسكوي، وعاملَتْهم هي بمودّة وحميمية، دون أن "تحافظ على المسافات" كما كان البرجوازيون يرغبون. دُفِنَت الميس المسكينة في جبّانتنا.

لا أحد يذهب اليوم لزيارتها، ولا حتّى فيلومينا، التي تتلقَّى شهرياً مثلي تماماً معاشَها الذي لا ينبغي أن يكون صغيراً كمعاشي، لأنها لم تعد تعمل الآن خادمة، وترتدي ثيابها من مشغل بيلّى

دامى، وإن كان يُرَى من مَبْعَدَة ميل أنها ليست سيِّدة راقية. في الواقع، أنا لا أجهل فقط مبلغ معاشها، لكنني لا أعلم حتّى كم كان الراتب الذي كانت الميس تدفعه لها في حياتها، وإذا كانت قد تركت لها شيئاً في وصيّتها. أمّا أنا، ففي كلِّ المرّات التي أذهب فيها لزيارة جَدّتي، أحمل زهرة إلى الأمريكية أيضاً. أتوقّف أمام شاهد القبر، وأخصُّها بتفكير يمتلئ بالمحبّة، وأُردِّد: "آه، لو كان الموتى يمكنهم الحديث!" لأنني لا أزال، وبعد أعوام عدّة، لا أُصدِّق أمر انتحارها.

بعد شهرَيْن من موتها أُغلِقَت التحقيقات. كانت الشاهدتان الأكثر أهمِّيّة هما فيلومينا وأنا. وأقلّ أهمِّيّة بقليل كان الطبيب بونيتي الذي لم يكن يتردّد كثيراً على الميس قبل موتها، ولم يكن بمقدوره أن يقول إنه عَرَفَهَا جيّداً.

كانت أقوالنا أنا وفيلومينا متضاربة. كنتُ أنا أؤكِّد أن الميس مرّت، أجل، ذات وقت، بأزمات حزن وضيق، وأنها في تلك اللحظات كانت تحتاج دواء منوِّماً لتنام. لكنها لم تُصَبْ بالهياج قطُّ

في وجودي، ولم تُصَبْ بأزمات هيستيرية، وأنها تصرّفت دوماً بطريقة متّزنة. وعلى أيّة حال، تعود تلك الأزمة إلى الماضي. منذُ عودتها من مدينة ج.، كانت الميس في حال جيّدة، هادئة، بل أكثر من هادئة؛ كانت سعيدة وممتلئة بالطموحات. كانت تفكِّر بحماس وشوق في الرحلة المقبلة، في العودة إلى الوطن، واحتضان شقيقتها. كنتُ متأكِّدة، وعلى استعداد لأُقسمَ على ذلك أمام الله، أنه لم يراودْها أيٌ تفكير في الانتحار. من وجهة نظري، كنتُ أُصرُّ: قَتَلَهَا شخص ما. فاجأها شخص ما وهي في قميص النوم، أطلق عليها الرصاص، ثمّ أَلبسَها ثيابها. لم يجدوا القميص، هكذا كانوا يُعارضونني. أجبتُهُم أن الأمر لن يستلزم كثيراً، لِطَيّه ودَسِّهِ في الجيب والانصراف به، لأنه كان مصنوعاً من الباتيستا الخفيف.

لكن الباب كان مغلَقاً بالمفتاح. ربّما كانت هي مَن فتحتْهُ، كان شخصاً تعرفه. أو ربّما كان زائراً مداوِماً، وموثوقاً به، حتّى إنه كان يمتلك نسخة أخرى من المفاتيح.

"هذه افتراضات، ليست وقائع. لتقولي فقط ما تعرفينه بالتأكيد، ما رأيتِهِ"، نَبّهُوني.

أقرّتْ فيلومينا تحت القَسَم أن الميس كان لديها دائماً مزاج عصبي، وأنها كانت تتشاجر بصوت مرتفع، وتتناول المخدِّرات دائماً، حتّى آخر يوم. وأنها هدّدت أمامها أكثر من مرّة بالانتحار لأتفه المضايقات، ولدوافع عاطفية، على وجه الخصوص. كان لديها دائماً علاقات جنسية غير مشروعة. لا، لم تكن سيِّدة فاضلة كسيِّداتنا. كانت أمريكية. لديهم هناك أخلاق تختلف عنّا. كانت الميس تُغرَم عادة برجال، لا يستحقُّونها، من طبقة اجتماعية أدنى، وتدفع لهم، وتغمرهم أيضاً بالهدايا. ثمّ كانت تندم، وتشعر بالخيانة، وتخجل من نفسها، وترغب في الموت. اشترت المسدّس لهذا الغرض، وصرّحتْ لها بهذا. "كان ينبغي عليّ أن أنتزعَهُ منها، أُدرِكُ هذا. أُلقيهِ بعيداً، أُخفيه. لكنني لم أكن أصدِّق تلك التهديدات، ثمّ إنها كانت ربّة عملي". سألوها إن كانت تستطيع أن تذكر أسماء هؤلاء العُشّاق. أجابت: "ليس جميعهم. ثمّ إنهم قد يُنكرون. ولم يكن أيٌّ منهم يمتلك المفاتيح. أنا واثقة من هذا". أقرّتْ أن

الميس كان لديها هَوَسٌ حقيقي بنظافة الثياب، وأنها قد تفعل أيّ شيء كي لا تُلوِّثها بالبقع أو تُدنِّسها، حتّى إنها قد تخلعها، وتُطلق على نفسها النار، وترتديها مجدّداً. وأنني لا يمكن أن أعرفها حقّ المعرفة، لا يمكن أن أعرف كلّ شيء عن الميس. في نهاية الأمر، كنتُ أراها مرّة واحدة في الأسبوع، ولم أكن أحيا بالقرب منها كلّ يوم مثلها.

لكنْ، كيف لم يستطع المحقِّقون إدراك أن فيلومينا تكذب؟ ثمّ لماذا؟ لتحميَ شخصاً ما؟ لكنْ، مَنْ؟ لم أستطع أنا نفسي تخمينه، ولا على سبيل الافتراض. كنتُ واثقة من شيء: أن تلك القصص عن العُشّاق، وأن الميس كانت تدفع لهم، افتراء. كيف كان بمقدورها أن تصيغ اتهامات مشينة هكذا لشخص لا يمكنه الدفاع عن نفسه؟ وهي مَنْ جادت عليها دوماً؟ لكنْ، كيف أستطيع أنا تكذيبها؟

أقرّ الطبيب أنه عند وصوله كانت الميس قد ماتت، ولا يمكنه أن يحدِّد بالضبط منذُ كم من الوقت. وأنها كانت مرتدية ثيابها من رأسها حتّى قَدَمَيْها، وسترة ثوب السّفَر مُزرّرة حتّى عنقها، وأن السترة والثياب الدّاخليّة كانت سليمة، دون أيِّ أثر لطلقة المسدّس. وهكذا كان المال الذي يحتويه المِشَدُّ. وأنه يعتقد أنه من غير المحتمل أن تكون المسكينة قد حظيت بالوقت والقوّة اللّازمَيْن لارتداء ثيابها مجدّداً، أو حتّى لعَقْد الأزرار فقط بعد إصابتها بطلقة في القلب. لكنه لا يمكنه استبعاد ذلك بطريقة نهائية. فالناس على حافّة الموت يمكنها فعل أكثر الأشياء غرابة. كان يعرف ذلك بخبرته.

صدّقوا، أرادوا أن يُصدِّقوا، فيلومينا وشكوك الطبيب. قالوا لي إنني متحمِّسة بشكل مبالَغ فيه قليلاً، وإنهم قد تحرّوا عنِّي. يعرفون أنني أقرأ الروايات. نَصَحُوني بالسيطرة على خيالي.

حُفِظ التحقيق كواقعة انتحار. تصرّف الأسقف بكرم عند ذلك الحَدِّ، ولم يطالب بإزالة القبر مع رفات ميس بريسكوي من المقبرة. إذا ذَهَبْتُم للبحث عنها، فهي لا تزال هناك.

أُزيلَت الأختام من باب الشُّقَّة، وطَلَبَ المالك من فيلومينا ومنِّي القيام بأعمال النظافة الأخيرة، وترتيب كلِّ شيء مرّة أخرى، وإخفاء آثار ما حَدَثَ. وبعد ذلك سيقوم بطلاء الغرف باللون الأبيض، وسيبحث عن مستأجر جديد.

ولكي نكنس بشكل أفضل، حرّكْنا قِطَع الأثاث القليلة المتبقِّية، وغسلْنا الأرضيات. كان من بين الأماكن التي تولَّيتُها الحجرة الصغيرة المجاورة لغرفة النوم. كانت قد أُخليَت منذُ وقت طويل، وقد تحقَّقتُ منها عشية المأساة للمرّة الأخيرة، ورأيتُ أنها خاوية. دُهشتُ عندئذ لرؤية شيء يلمع على الأرض، في إحدى الزوايا، وسط الزغب الذي تكوّن بفعل الحرارة في شهرَي الإغلاق الأخيرَيْن. دنوتُ لأتناوله. كان عدسة مونوكول، في إطار ذهبي، بسلسلة من المُخْمَل، أَفسدَها الغبار.

دعوتُ فيلومينا، وأريتُها إيّاها في راحة يدي. لم أكن أدري فيما أفكِّر. "كان أناس من كلِّ نوع يجولون في هذا المنزل"، قالت لي، "أسوأ ممَّا هو الحال في أحد المواخير. مَن يدري منذُ متى كان ذلك الشيء هنا، ولم ننتبه نحن إليه".

"كنتُ سأنتبه له أنا. في الليلة الأخيرة وقبل أن أُودِّع الميس، رأيتُ جيِّداً جدّاً أنه لا يوجد شيء هنا في الداخل"، اعترضتُ.

"أنتِ تقرئين قصصاً بما يزيد عن الحَدِّ، واغتررتِ بقدراتكِ، مَنْ تظنّين نفسكِ؟ أَلَا تذكرين ما قاله لكِ الرقيب؟ حاولي السيطرة على خيالكِ أو ستكون نهايتكِ مؤسفة".

انتزعتْ من يدي المونوكول وأَلقَتْهُ في سلَّة المهملات مع النفايات الأخرى.

"ينبغي تبادُل العون بين الفقراء"، كانت جَدّتي تكرِّر لي دوماً، "لأننا لو انتظرْنا أن يهبّ الأغنياء لنجدتنا وقت العَوَز، فسننتظر إلى الأبد". من جانبها، لم ترفض قطُّ أن تقتسم قطعة خبز، وإن كانت آخر ما تبقّى لدينا، مع جارة تمرُّ بأزمة، أو أن تتخلّى عن النوم، كي تسهر على طفل مريض بينما تُنهي والدته عملاً لا بدّ من تسليمه في اليوم التالي. كان لديها في الحَيِّ دائرة من الصديقات، سيِّدات وحيدات مثلها، متقدِّمات في العُمُر، فَقَدْنَ أُسرهُنّ في الوباء، أو أرامل شابّات يُعِلنَ أطفالاً صغاراً، أو والدات شابّات لديهنّ زوج، لكنْ، لا يمكنهنّ الاعتماد عليه، لأنه سِكّير، أو لأنه لا يستطيع الاحتفاظ بعمل. لم تبخلْ قطُّ على أيٍّ منهنّ بمقدار من الفحم المشتعل، أو نصيحة، أو طبق من العصيدة، أو قُصَاصَة من القماش لترقيع التّنُّورة التي تمزّقت. أمّا عند احتياجها هي المساعدة، فكانت تتردّد قليلاً، كانت تعرف بؤسهنّ، كما أنه كان لديها كبرياؤها. حرصت دائماً، منذُ شبابها، على أن تفي باحتياجاتها هي وأهلها. وقد تعلّمتُ منها تلك الحاجة إلى الاستقلالية، بل يمكنني

أن أقول إنني قد اقتديتُ بها دون أن أعيَ. إذا اضطررتُ لطَلَبِ معروف، كنتُ أردُّه في أسرع وقت ممكن. على سبيل المثال، مع الكاوية التي كانت تسكن في الجهة المقابلة تماماً، والتي كنتُ أضطرُّ بين الحين والآخر، في حال وجود عمل كثير للغاية لديّ، أن أطلب منها أن تطهوَ لي العصيدة، أو تقوم بنظافة السُّلَّم، أو تبعث بابنتها لتسليم ثوب، كنتُ أحاول، إذا لم أستطع أن أدفع لها مقابلاً، أن أوفِّر لها زبائن، أو أن أعطيَها بعض الثياب المُستغنَى عنها، والتي تهديني إيّاها زبوناتي.

كانتا فقيرَتَيْن حقّاً، زيتا وأسونتينا. لم يكن لديهما معيل في المنزل، منذُ قُتل قبل وقت قليل مضى زوج الأولى ووالد الثانية في شجار بين السُكارى. كانت الوالدة والابنة تعيشان في قبو رطب بدون نوافذ، يدنو عن مستوى الطريق، ويمكن الولوج إليه بنزول ثلاث درجات. لم يكن من اليسير في تلك البيئة شبه المظلمة دائماً كَيُّ مفروشات السادة المنزلية، وتسليمها بيضاء ناصعة دون أن تلوِّثها رواسب الدخان، أو تحرقها الشرارات التي تُطلقها المكواة التي تُسخّن على لهب الفحم. كما كانت القِطَع

التي يجب أن تُنشّى، كالقمصان الرِّجاليّة، مشكلة حقيقية. كانت زيتا تضطرُ للاحتفاظ بثلاث مكاوٍ على الأقلِّ متأهِّبات فوق الفحم المتّقد، بما يجعلها غير مُجبَرَة على إضاعة الوقت انتظاراً لأن تسخنَ من جديد تلك المكواة التي تستخدمها، عندما تبرد. لو كان لديها فناء به صَنْبُوْر مياه، حيثُ يمكنها أن تقيم حجرة للغسيل، لاستطاعت تقديم الخدمة كاملة، والربح أكثر قليلاً، لكنها، على العكس، كانت تضطرُ إلى الاكتفاء بأَخْذ المفروشات رطبة من عاملة الغسيل.

كان لديها بعض الزبونات الثابتات، جئتُ أنا لها بأغلبهنّ، مثل الميس الأمريكية، التي كانت زبونتها الأكثر كرماً، واعتماداً على أولئك كانت تستمرُ في الحياة. في شَظَف من العيش في أغلب الأحوال، لأنه لم يكن بمقدورها هي وابنتها أن يُوفِّرا لأنفسهما غالباً سوى بعض الخبز الجافِّ، دون حتّى قطرة زيت واحدة. بالنسبة إليهما، كانت البقول الجافَّة مع الكرنب، أو الباذنجان المشوي، التي تُدعى في المدينة "لحم الفقراء" رفاهية لا تسمحان لنفسَيْهما بها إلَّا يوم الأحد. وإذا لم أكن قد أعطيتُها، كما قلتُ،

بعض الثياب التي تخلَّت عنها ربّات عملي، وقمتُ أنا بمواءمتها لهما، كانت الوالدة والابنة ستسيران مرتديتان أسمالاً.

عندما ماتت الميس، أصبح الوَضْع بيننا غير مريح، نوع من عدم الاتِّزان؛ حُرمت زيتا من ذلك المبلغ الضئيل الذي كانت تعتمد عليه، رغم ضآلته، وبدأتُ أنا، مع انقضاء الوقت الذي تطلَّبَتْه الإجراءات البيروقراطية، أتلقَّى معاشي الشّهريّ الذي يبلغ أربعين ليرة من المصرف، والتي لم تكن، بالطبع، تكفيني لأعيش، لكنها كانت تمنحني سَعَة، متنفَّساً لم أتخيّله قطُّ، خاصّة وأنه لا ينبغي عليّ بذل الجهد، لا ينبغي عليّ أن أفعل شيئاً، لأكسبها.

وَصَلَتْني رواتب الأشهر الثمانية الأولى، التي كانت متأخِّرة، معاً في نهاية شهر ديسمبر، ثلاثمئة وعشرين ليرة، ثروة حقيقية، دفعتْني إلى تَرْك نفسي نهباً لأكثر الأحلام عَبَثِيّة. سأبتاع اشتراكاً في الموسم الغنائي، في المقصورة العلوية دائماً بالطبع، لكنْ، في كلِّ العروض. لن تفلت منِّي ولا أوبرا واحدة، ولن ينبغيَ عليّ أن أنهك تفكيري في اختيار عرض واحد أو عرضَيْن، يمكنني تحمُّل

تكلفتهما. أو سأتمكَّن من تسجيل نفسي في مدرسة ليلية، وتعلُّم الكتابة جيّداً، كي لا أضطرّ للشعور بالخجل إذا حَدَثَ وطُلب منِّي كتابة خطاب، وتعلُّم قليل من التاريخ أيضاً، والجغرافيا، والجبر. ربّما سأحصل على شهادة استيفاء التعليم الإلزامي، وإن كانت لن تفيدَني في عملي بشيء.

لم أكن أعرف إذا كان المعاش سيكفيني لأجل المدرسة، إذا أُتيح لي وقت للتّردُّد عليها، كان هذا افتراضاً غير واقعيٍّ تماماً. لكن تلقِّي كلّ ذلك المال دفعة واحدة أَذْهَبَ عقلي. كانت لديّ أيضاً رغبات أكثر تواضعاً. رحلة على متن قطار، على سبيل المثال. لم أستقلّ واحداً أبداً، وإن كنتُ رأيتُهُ مرّات عدّة يصل وينطلق. رحلة واحدة، قصيرة أيضاً. ربّما حتّى ج. فقط. كنتُ أعرف أنه يمكن الذهاب والعودة خلال اليوم، دون أن أضطرّ لقضاء الليل بعيداً. هل ستكفي النقود لحجز فندق متواضع؟ كنتُ أخشى من تلك النُّزُل الصغيرة التي سمعتُ الآنسة جيمّا تتحدّث عنها، ولم أكن أثقُ في الذهاب إليها وحدي، وإذا دخل الغرفة شخص لا أعرفه؟ لكنْ، ربّما، كنتُ أتخيّل، يوجد في ب. دَيْر، يمكنه استضافتي في أثناء

الليل. وإذا كان، كيف سأجعل تلك الأخوات هناك يفهمنَ أنني شابّة صالحة، ولست غريبة الأطوار أسعى خلف المغامرات؟ وبين قلعة في الهواء وأخرى وَرَدَ على ذهني أيضاً أنني لا أستحقُ ذلك المال، لأنني لم أبذل جهداً لأربحه، وأنني يجب أن أقتسمه مع زيتا. لكنني أعترف أنني قد طَرَدْتُ ذلك الخاطر فوراً، ولم تَعُزْنِي الحجج. تركت الميس تلك الأموال لي، وإعطاؤها إلى امرأة أخرى سيكون بمنزلة إهانة لها. كانت تعرف أن هناك مَن يغسل ويكوي ثيابها، ولستُ أنا مَنْ تقوم بذلك. لماذا لم تترك معاشاً لهما هما أيضاً؟ لأنها لم تكن تعرف أسماءهما، كان يجيبني صوت داخلي خفيض، لأنها لم ترهما قطُّ وجهاً لوجه، ولأنني قمتُ دائماً بكلِّ شيء. وإذنْ؟ تمتلئ المدينة بالفقراء. هل أنا مضطرّة الآن لاقتسام كلِّ ما ربحتُهُ بالعمل الشّاقِّ مع بعض الغرباء؟ أَلَا يكفي أنني كسوتُ الوالدة والابنة من رأسَيْهما حتّى أقدامهما موائمة عليهنّ الثياب المُستغنَى عنها التي أعطتها لي زوجة المهندس كاريرا، والتي تخصُّها هي وكلارا؟ ثياب ثقيلة ودافئة. لم تعد أسونتينا مضطرّة لأن تحتميَ من البرد بالوشاح الخفيف المَحُوك بالتريكو مثل صغيرات الزُّقاق الأخريات، بل حظيت بمعطف من الصوف،

له ياقة من المُخْمَل مثل بنات السادة. في الأصل، كانت شرائط جميلة للغاية تشدُّ الأزرار الأمامية، لكنني أَزلتُها وأنا أُضيّق المعطف، فقد كانت تبدو لي ذات أناقة غير مناسبة لابنة كاوية. كان يروق لها ذلك المعطف كثيراً حتّى إنها، في أغلب الأحيان لم تكن ترتديه، كي تُوفِّره. كانت تُفضِّل أن تتدثّر بوشاح قديم يخصُّني، ربّما كي لا تبدو أيضاً مختلفة للغاية عن صغيرات الزُّقاق الأخريات. كنتُ قد تدبّرتُ لها حذاء شَتَوِيّاً في حال جيِّد، يكبر قَدَمَيْها بمقاسَيْن فقط ، وكان، في وجود جورَبَيْن صغيرَيْن من الصوف، يناسبها تماماً سيبقى معها للعام المقبل أيضاً. لم تكفّ زيتا عن شُكري، كانت ترغب في أن تدفعَ لي على الأقلِّ مقابل الساعات التي عملتُها في فكِّ الخِيَاطَة، وتضييق المقاس، وإعداد الحوافِّ، ونَقْل الأزرار. لكنني كنتُ أعرف أنها لا تملك قرشاً، وكنتُ أؤَدِّي دَوْر المحسنة. " أدينكِ بواحدة"، كنتُ أقول لها. كنتُ آمل في إقناع زوجة المهندس بأن تعهد إلى صديقتي بكَيِّ مفروشاتها، بطريقة تُعوِّض العمل الذي فُقد بوفاة الميس. لكن السِّيِّدة كان لديها في ذلك الوقت عاملة غسيل تقوم بالكَيِّ أيضاً، وكانت راضية عن عملها. لم يكن لديها نِيّة لتغييرها.

كان ذلك الشتاء طويلاً وبارداً. مرضت أسونتينا بالتهاب رئوي، نجت منه بأعجوبة كما قال الطبيب. والآن مع عودة الجوِّ المعتدل، كانت تخرج مجدّداً لتلعب على الرصيف بينما يحيط الوشاح الأحمر الذي كان يخصُّ كلارا بعنقها بشكل مُحكَم. كانت تقوم نيابة عنِّي ببعض مهامِّ التسليم، وكنتُ أدفع لها عشرة قروش. اشتريتُ لها من سوق السبت هدية، برطمان عسل لأجل السعال.

كانت في رأسي فوضى عارمة حول كيفية استخدام معاشي حتّى إنني قرّرتُ تأجيل حسم الاختيار، وطَلَبَ النُّصح من الآنسة استر عندما تعود من إحدى رحلاتها التي لا تنتهي. أغلقتُ على الثلاثمئة وعشرين ليرة، وعلى المبالغ الأخرى التي تصلني الآن بانتظام كلّ شهر، في علبة الحليب، التي صرتُ أدعوها آنذاك علبة الرغبات، وانهمكتُ في العمل. لحسن الحظِّ لم تكن تعوزني التكليفات، واتّسعت شريحة زبائني شيئاً فشيئاً، كانت زوجة المهندس كاريرا قد أذاعت الأمر، وكانت تُطلب منِّي ثياب أطفال كثيرة، ليس أزياء الكرنفال أو الأداء المسرحي فحسب، بل مآزر صغيرة وقمصان وسراويل قصيرة وسترات صغيرة بالأشرطة، ثمّ ثياب

داخلية عدّة، دائماً للأطفال. لو أردتُ، لأمكنني التّخصُّص فيها. لكن التجربة التي مررتُ بها مع الجَدّة حين تركْنا كلّ عمل آخر للتّفرُّغ لجهاز آل أرتونيزي، كانت تُثبطني عن المتابعة في ذلك الطريق. كانت هناك عائلات أقدِّم لها خدماتي منذُ أعوام، عائلات تتألَّف من كهول فقط، وكانوا يدفعون لي جيِّداً، وبانتظام. آل ديلسوربو، على سبيل المثال. أناس غريبو الأطوار، لم يكونوا يروقون لجَدّتي، وإن لم ترد قطُّ البوح بالسبب. عملتُ في خدمتهم منذُ أعوام طَوالَ مضت، عندما لم أكن أنا قد وُلدتُ، لكنْ، لأشهر قليلة فقط. اكتشفتُ شيئاً لم يرقْ لها، وفضّلت الرحيل. لكنها كانت تقبل أعمال الخِياطَة، لم يكن بمقدورها أن ترفضَها. معي أنا، يجب أن أعترف بذلك، تصرُّف آل ديلسوربو جيّد دائماً. ليس كأولئك السّيّدات اللّاتي يفضنَ تكلُّفاً وابتساماً، واللّاتي يقلنَ لي بنهاية العمل: "لأجل ما أدين لكِ به، مُرِّي الأسبوع المقبل". وعندما كنتُ أعود، كنّ يتضجّرنَ: " يا للإلحاح!" وكنّ يحملنَني على العودة ثلاث أو أربع مرّات أخرى قبل أن يدفعنَ لي. كنتُ أعرف أنهنّ سيفعلنَ ذلك في النهاية، لكن دكّان البقالة لم يعد يعطيني شيئاً بالآجل، ويجب أن أشتريَ الكاز والشموع، ثمّ إنني

كنتُ واثقة من أنهنّ يملكنَ ذلك المبلغ في المحفظة، فلماذا إذنْ يجعلنني ألهث خلفه؟ لماذا يتعاملنَ معي كشحّاذة مزعجة، تلحُّ عليهنّ بطَلَبَاتها؟ ربّما كي لا أغترّ بنفسي؟ كي أتعلَّم البقاء في موقعي؟

آل ديلسوربو لم يفعلوا هذا. كانوا يعطونني في اليوم ذاته الذي أُنهي فيه العمل المبلغ الذي اتّفقنا عليه. كانت كويريكا تسلِّمني المال ملفوفاً في قُصاصُات القماش المتبقِّية، تلك لم يكن الكثيرون يمنحونني إيّاها: كانت تلك القُصاصَات ثمينة بالنسبة إليّ، ويمكن أن تُصنَع منها عدّة أشياء، من أبسط الرُّقَع، وحتّى وسائد الدبابيس الصغيرة، والجيوب المُخفاة أسفل التّنُّورة، وصولاً إلى الوسائد، والأغطية، وأغطية الفُرش، إذا حيكت معاً بصبر، مع مواءمة الأقمشة والألوان بذوق. " خذيها، خذيها!" كانت كويريكا تقول لي. "ماذا تريدين أن نفعل بها، نحن العجائز البائسات؟ أَلَا ترين كيف هي أصابعنا؟" كانت أصابعها مشوّهة بفعل التهاب المفاصل، لكنها كانت لا تزال تعمل في المطبخ كشابّة، وتكوي قمصان دون أوربانو أفضل ممَّا تفعل زيتا في أحسن حالاتها. كانت كويريكا هي

"الخادمة العجوز". كانت هي مَنْ تستخدم تلك التسمية التي لم أكن لأنطقَ بها قطُّ في وجودها احتراماً لها، لتعرِّف عن نفسها. لا أعرف كم كان عُمُرها. كانت تعمل بالفعل منذُ عدّة أعوام قبل إتمام الوحدة الإيطالية. ثمّ إنه كانت توجد في منزل ديلسوربو "خادمة شابّة"، رينونشيا، التي كانت تبلغ خمسين عاماً على الأقلِّ، ولها يدان مشوّهتان، لا يمكنهما هما أيضاً العمل بالإبرة.

في الشُّقَّة كانوا جميعاً يحافظون على انفصال "جغرافي" دقيق بين الخادمَتَيْن والسادة، كما لو كانوا يعيشون على كوكَبَيْن مختلفَيْن. كانت الخادمتان تعبران بالطبع الحدود بين العالَمَيْن لأداء أعمال النظافة، وخدمة المائدة، وفتح المصاريع وغَلْقها، لكنْ، ما إن تتمّ تلك المهامّ، كانت المرأتان تنسحبان بسرعة كبيرة إلى ما وراء رواق المرافق، حيثُ توجد حجرة المعاطف، وبها خزائن المفروشات وطاولة الكَيِّ وغرفة نومهما، والمطبخ ومخزن المؤن. كانتا تقضيان حياتهما في المطبخ الذي يفوح برائحة اللحم المدخّن والخشب المحترق وزيت النعناع، لأن كويريكا كانت تعاني من أزمة تنفُّسيّة، وتدخِّن باستمرار نوعاً من السجائر،

يعاونها على التّنفُّس. لم تكونا تخرجان من المنزل قطُّ إلَّا لقدّاس يوم الأحد، وكانت المشتريات اليومية وأيٌ سلع أخرى تصل إلى المنزل مع صِبْيَة المحالِّ.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن سادة المنزل يعبرون ذلك الرواق أبداً. كان لديهم قاعة استقبال فسيحة، وقاعة طعام، وغرفة مكتب لدون أوربانو، وغرف نوم عدّة، وحمَّام به مياه جارية، ومجهّز بأكثر المعدات عصرية. نجا اثنان فقط من الأسرة: الوالدة العجوز جدّاً التي كانت تبلغ من العُمُر آنذاك مئة عام، دونّا ليتشينا، الأرملة منذُ زمن بعيد، والابن، دون أوربانو، في آخر العقد السابع من عُمُره. في وقت مضى كانت توجد أيضاً ابنة وُلدت بعد أخيها بأعوام كبيرة، لكنها تزوّجت من غريب، وذَهَبَتْ لتعيش في مكان آخر. لم تقاس الوالدة من انفصالها عنها – كما كانت كويريكا تقصُ عليّ – لأن نجلها المفضّل كان الذّكَر، الوريث، الذي لم يستطع الزواج، كي لا يتركها بمفردها. كان لدون أوربانو خطيبات متعدِّدات، تضيف كويريكا، لكنْ، في كل مرّة كانت دونّا ليتشينا تلغي الزواج، وهكذا تمكَّنت من إبقائه في المنزل إلى الأبد.

"والأحفاد؟" سألتُ. "ألم تهبهما الابنة أحفاداً؟"

"تزوّجت دونّا فيتوريا – لترقدَ في سلام – متأخِّراً، وكان يُولَد لها أطفال جميعهم مَرضَى، لم يستطيعوا الحياة"، كانت الخادمة العجوز تُكمل القصّة. "لكنها لم تكن تستسلم، أو ربّما هو الزوج". في الواقع، حملت دونّا فيتوريا مرّة أخرى وهي في الأربعين، وماتت في أثناء الوَضْع. وُلد الطفل، معافَى على النقيض من إخوته، وتمكَّن من النُمُوِّ. كانت الجَدّة، دونّا ليتشينا، تريده معها لتُنشئه كأحد آل ديلسوربو، لكن والد اليتيم اعترض، وهنا نشأ شقاق أَبْعَدَ الأسرتَيْن. لكن الصّبيّ، ما إن كبر، حتّى اعتاد المجيء بين الحين والآخر لزيارة الجَدّة والخال، كان ودوداً، جميلاً، مهذّباً وذكياً، وكان العجوزان فخورَيْن به كثيراً. وكذا كانت كويريكا، وكانت واثقة أن الجَدّة والخال قد كَتَبَا هما الاثنان وصيّتهما لصالحه. من جانب آخر، كان هو وريثهما الوحيد.

كان آل ديلسوربو أرستقراطيّيْن، يتحدّرون من نسل شديد العراقة. لم يكن لديهم ألقاب مثل الكونت أو البارون أو الماركيز،

وكان بمقدورهم أن يحظوا فقط بمُسمّى "السّيّد النبيل" و"السّيّدة النبيلة" و"الدون" قبل أسمائهم، لكنهم كانوا يتفوّقون على كلِّ النبلاء الآخرين في المدينة في عراقة النّسْل والثراء. كانت كويريكا، أيضاً، مقتنعة بذلك، وفخورة به، بالرغم من أنها قد وُلدَت في بلدة قريبة شديدة الفقر، وأتت لخدمة آل ديلسوربو في عُمُر الخامسة عشرة. كان ولاؤها للعائلة أقرب للعبادة، وكانت تعدِّد لي هذه الأنساب، وكأنها صفحات في كتاب صلاتها.

لم يستدعني آل ديلسوربو قطُّ للخِيَاطَة في منزلهم. كانت كويريكا تُسلِّمني قماش المُلَاءَات والمفروشات الأخرى، كي أحملَهُ إلى المنزل، حيثُ سينبغي عليّ إتمام العمل، لأُسلِّمه بمجرّد الانتهاء منه. في بعض الأحيان، طَلَبُوا منِّي بعض أعمال النجادة البسيطة، أغطية للأرائك والوسائد وكرانيش للستائر، وغطاء فراش من القماش الدِّمشقيِّ لغرفة الضيوف. لم يكونوا يخشون إعطائي أقمشة ثمينة كتلك، كانت الثقة التي اكتسبتْها جَدّتي بأمانتها ومهارتها في الخِيَاطَة، يتدخّلان لصالحي بعد أعوام طويلة. في تلك المناسبات، ولكي أحصل على المقاسات، اضطررتُ لعبور حدود الرواق،

والتّسلُّل إلى غرف السادة. غرف مظلمة، دُرَف الأبواب مواربة دائماً، كساء من المُخْمَل الأحمر الداكن، مزهريات من الفضّة الثقيلة، لوحات ضخمة في أُطُر من الذهب العتيق. لمحتُ عبر أحد الأبواب المواربة دونّا ليتشينا مرّتَيْن، كانت جالسة على أريكتها، متصلّبة كتمثال، نحيفة، جافّة، ترتدي السواد. لم تخلع الأسود قطُّ منذُ صارت أرملة، هكذا قصّت عليّ كويريكا، وقد مرّ أكثر من خمسين عاماً. لكنّ دونّا ليتشينا، وإن لم تخرج قطُّ من المنزل، فقد كانت ترتدي كلّ صباح طقم حلْيها من اللؤلؤ، المجوهرات الوحيدة التي تلائم ثياب الحِدَاد: قرط متدلٍّ، قلادة عريضة بمشبك من الجمشت، دَبُوس على الصدر، لتثبيت وشاح العنق الرقيق، وسوار من أربعة صفوف. كانت تبدو أشبه بإحدى صور العذراء المتألِّمة في الكاتدرائية، والتي تُعرَض يوم الجُمُعة المقدّس فحسب، تخترق السيوف السبعة قلبَها، وتزيّنها كلُّ النِّعَم التي يقدِّمها المؤمنون.

كان دون أوربانو على النقيض- التقيتُهُ هو أيضاً، وحيّاني بمودّة رغم أنه لم يكن يعرفني. كان سيّداً كهلاً، كبير البطن، متوسِّط

الطول، يرتدي على أحدث طراز، يعتمر في المنزل قَلَنْسُوَة من المُخْمَل على طراز جاريبالدي، ويستبدل بها عند الخروج قُبّعة من القشِّ صيفاً، وقُبّعة دائرية سوداء شتاء. وعلى خلاف الوالدة والخادمَتَيْن، كان يمكث دائماً خارج المنزل، جالساً في مقصورة كريستال بالاس الزُجاجيّة، يُدخِّن السيجار، أو في زيارة العائلات الأكثر أهمِّيّة، أو في كازينو النبلاء يلعب الورق، أو في حلبة السباق يتابع سباقات الخيل، أو في المسرح، أو مقهى الاستعراضات. إنه ما كان الفرنسيون يطلقون عليه، كما تعلّمتُ فيما بعد، اسم الباحث عن الملذّات(). كانت الوالدة، بعد أن أصبح هو أيضاً عجوزاً الآن، ولم يعد يتحدّث عن الزواج، تترك له حُرِّيّة كاملة، ولم تكن تعترض حتّى عندما كان الابن يبيت خارج المنزل. أين؟ في أحد الفنادق الفخمة؟ في منزل أحد الأصدقاء؟ هل كانت لديه علاقة سرِّيّة؟ كانت كويريكا تغمز بعينها وهي تقصُّ هذا عليّ، كما لو أن المكان الذي يقضي فيه السيِّد لياليه معلوم بالضرورة، لكنني لم أستطع تخيُّله، ولم يكن الأمر يعنيني حتّى. "كلَّما ازدادوا ثراء، ازدادوا جنوناً"، هكذا علَّمتْني جَدّتي، وأيضاً:

"لكلِّ مجنون هَوَسُهُ". فلماذا أُجهِدُ نفسي في فَهْم أمر إذا كان لا يعنيني؟

بانتهاء الكرنفال، كانت الآنسة استر قد عادت، وأرسلتْ في طَلَبِي، لتُعطيَني الهدية الصغيرة التي تحملها لي كلّ مرّة. ليس شيئاً ثميناً، بل هو تذكار، يُبيِّن لي أنها قد تذكَّرتْني خلال الرحلة. هذه المرّة كان ألبوماً يضمُّ صور أكبر آثار أوروبا ملوّنة يدوياً. تحدّثْنا في شتّى الأمور، استدعت إنريكا، لتُريَني كم كبرتْ، ولتُخبرَني أنه سرعان ما سينبغي عليَّ أن أطيل لها كلّ مآزرها المنزلية. استجمعتُ شجاعتي، وتحدّثتُ معها عن رغبتي في القيام برحلة إلى ب.، فقط إذا وجدتُ مكاناً آمناً، أقضي فيه الليل بتكاليف زهيدة. قالت لي الآنسة استر إنها تجدها فكرة رائعة، وإن إحدى بنات عمومتها البعيدات راهبة تعمل في معهد لسلِّ الغدد اللِّيمفاويّة، أسّسْهُ رهبانيّتها على شاطئ البحر تماماً. ستطلب منها استضافتي، ليس لليلة واحدة فقط، بل لثلاث أو أربع ليال، إذا رغبتُ في ذلك. مجّاناً. لا يمكن لراهبات ب. أن يرفضنَ أداء هذا

المعروف لها. كان والدها لمعهدهنّ يقدِّم هبة كريمة للغاية كلّ عام.

لم تكن الآنسة استر، عندما تقرِّر شيئاً، تتردّد طويلاً. كتبت في الحال إلى ابنة العمِّ، وبعد عشرة أيّام استدعتْني، لتُريَني الرّدَّ. ستستضيفني الأخوات بسرور، وبرفقة صديقة لي أيضاً. "ربّما يعتقدنَ أن السَّفَر دون رفقة بالنسبة إلى فتاة هو أمر غير متعقِّل"، علّقت استر ضاحكة. كنّ يضعنَ تحت تصرُّفي ولمدّة أسبوع غرفة الضيوف الصغيرة، وبها فراشان. وفي حال رغبتُ، كان يمكنني أن أتناول الوجبات بصحبة المتعافيات في قاعة الطعام الخاصّة بهنّ. هكذا، لم أكن سأُنفق سوى ثمن تذكرة القطار.

صديقة؟ لم يكن لديّ أيُّ صديقة في مثل عُمُري، يمكنها أن تتغيّب عن عملها أو تدفع نفقات الرحلة، وبالتفكير في الأمر جيّداً، كنتُ أريد أن أستمتع بالتجربة وحدي. كنتُ أريد أن أتنزّه على الشاطئ وأنا أتأمّل الأفق، وأجمع الأصداف، كما رأيتُ في إحدى اللوحات، وأحلم بينما طيور النورس تخطُّ السماء. بماذا أحلم؟

بمَن؟ كان الحلم خطيراً للغاية. كنتُ أعلم ذلك، لا يمكنني أن أسمحَ لنفسي به. ثمّ، ألم تكن رؤية البحر وحدها تحقيقاً لأحد الأحلام؟

كان لديّ عمل أسلِّمه، سيتطلَّب منِّي بضعة أيّام أخرى. قرّرتُ أنني سأغادر يوم الاثنَيْن التالي، وسأعود الخميس، وكتبتُ هذا المضمون للأخوات. ببعض الانفعال، أعددتُ حقيبة القشّ ذات المقبض، حيثُ أضع حاجياتي: مُلَاءَة إضافية، مشط وماسكات شَعْر، صابون، شال ثقيل يصلح كغطاء أيضاً، حافظة الخِيَاطَة وبعض المناديل، لأخيطَ حوافَّها، كي لا أظلّ عاطلة عن العمل، في حال كان الجوُّ ماطراً. يجب أن أعترف أنني وضعتُ في السَّلَّة أوّلاً إحدى الروايات بدلاً من المناديل. ثمّ فكَّرتُ أنها لن تترك انطباعاً جيّداً لدى الأخوات، الخِيَاطَة أفضل. وللقراءة سأقنع بكتاب الصلاة. وكي لا أذهب بيد خاوية، حملتُ أيضاً مفرشَيْن لظَهْر المقعد، ملفوفَيْن في ورق تغليف، كنتُ قد طرّزتُهُما لأتدرّب على غُرْزَة جديدة، رأيتُها في إحدى المجلّات.

جاء يوم الأحد. كنتُ منفعلة، ونافدة الصبر، تحقَّقتُ مئات المرّات من موعد القطار، كنتُ قد اشتريتُ التذكرة منذُ ثلاثة أيّام. رتّبتُ المنزل، ونظَّفتُ حوض المياه جيّداً، وكنستُ أسفل الفراش. بغتةً أدركتُ أنني في غمار انشغالي بالاستعدادات، لم أتدبّر أمر مَنْ يحلُّ محلّي في نظافة السُلَّم. آخر ما ينقصُني هو أن تُكلِّفني الرحلة إلى البحر طرداً من المنزل! لحسن الحظِّ، كان الوقت لا يزال متاحاً لإصلاح الأمر: لا يمكن أن ترفض زيتا ذلك العمل وذلك الدّخلَ غير المتوقَّع.

هُرعت إلى منزل الكاوية. كان الباب المطلُّ على الطريق مفتوحاً، كي يسمحَ بدخول بعض الهواء. كانت أسونتينا التي التحقت بالمدرسة ذلك العام، وإن لم تتردّد عليها إلَّا نادراً بسبب داء الرئة، تجلس على درجة السُلَّم وسط تيّار الهواء، ورأسها محاط بالوشاح الأحمر، وتخطُّ بمشقَّة خطوط الأحرف المستقيمة في الكرّاسة. وكانت تسعل.

بَرَقَتْ في ذهني عبارة سمعتُها من زوجة المهندس كاريرا بينما كانت تُخرِج السترة الصُوفيّة من رأس كلارا قبل أن تغمرَها في حوض الاستحمام. " أنتِ نحيفة كفقير هندي"، قالت لها وهي تُدغدغُها في بطنها. عطست كلارا. "أترين؟ أتفهمين ما أقول لكِ؟ في نهاية الشهر، في وجود المدرسة أو عدمه، سنذهب لزيارة الجَدّة. تحتاجين لاستنشاق قليل من هواء البحر، سيفيدكِ".

وسيفيد أسونتينا أيضاً. ودون أن أمنحَ نفسي وقتاً لأعيد التفكير في الأمر، قلتُ لها بتعجُل: " غداً أذهب إلى ب. لبضعة أيّام. هل تريدين المجيء معي؟" لن تعترضَ الأخوات، كانوا قد عرضوا عليّ استضافة شخصَيْن. وفي القطار كان الأطفال يدفعون نصف تذكرة.

لم تعرف زيتا كيف تُعبِّر لي عن امتنانها، لأجل أعمال النظافة والدعوة التي وجّهتُها للابنة. لم تسافرا هما أيضاً بالقطار قطُّ، ولم تر أيٌّ منهما البحر قطُّ. كان سيروق للوالدة أن تأتيَ معنا هي أيضاً، كنتُ أقرأ هذا في عينَيْها. لكنها لم تكن تستطع تَرْك العمل، وعدم

الوفاء بمواعيد التسليم، كانت ستخسر زبائنها. ثمّ مَنْ سيغسل السُّلّم ومدخل العقار بدلاً منِّي؟ لم تكن مالكته تعبأ إذا كنتُ أجد في بعض الأحيان مَنْ يحلُّ مكاني، لكنها إن وجدت أثر قَدَم موحِل واحداً على الدرجات الرُّخاميّة، أو عنكبوتاً واحداً على سقف المستراح .. لم أكن أجرؤ على التفكير في ما سيحدث.

ثمّ، في النهاية، ثمن تذكرة القطار. كانت زيتا تعلم أنها لا يمكن أن تطلب منِّي أن أدفعَهُ لها هي أيضاً إضافة إلى ما يخصُّ الابنة.

شكرتْني والدموع في عينَيْها، وجهّزت صُرّة بحاجيات أسونتينا القليلة، وضعتْها في غطاء أحد الوسائد، فلم تكونا تمتلكان سلَّة من القشِّ كتلك التي تخصُّني. لم تدعها تأخذ المعطف ذا الياقة المُخْمَلِيّة، كي لا تُفسدَهُ، أعطتْها شالها الثقيل حتّى لا تجذب إليها الأنظار في أثناء سَفَرها معي أيضاً. فطنتْ أيضاً لأن تُعدّ لنا لِفافَتَيْن من الخبز ومسحوق الحمُّص والبصل لنتناولهما في القطار. كانت الرحلة ستستمرُّ أكثر من خمس ساعات، ولم أكن قد فكَّرتُ في زاد المعدة.

يوم الاثنَيْن رحلنا في الثامنة صباحاً. وَصَلْنا مبكِّرَتَيْن نصف ساعة، وأخذنا مكانَيْنا على مقاعد الدرجة الثالثة الخشبية، التي كان يشغلها جميعاً تقريباً أناس يسافرون لأجل العمل. كنّا نحن على خلافهم نذهب في إجازة كالسادة، هكذا كنتُ أفكّر في فخر. مَن يدري إذا كانت جَدّتي، في أعماق نفسها، قد تجرّأت على تمنّي أو تخيُّل شيء مماثل؟

في انتظار الرحيل، شغلتُ المكان بحقيبتي، وأطللتُ من النافذة، أراقب آخر المسافرين المتأخِّرين الذين يُهرعون صوب العربات. تعرّفتُ بدهشة على فيلومينا وزوجها، في ثياب السادة، وهي ترتدي قُبّعة كبيرة، ويتبعهما حمَّال يحمل حقيبَتَيْن كبيرَتَيْن وثقيلَتَيْن، جديدَتَيْن تماماً. أين يذهبان؟ رأيتُهما يصعدان باعتداد إلى عربة الدرجة الأولى. لطالما أدركتُ أن فيلومينا تعشق الرفاهية، وتحسد الأغنياء الذين يمكنهم التّمتُّع بها. هل من الممكن أنها قد قرّرت أن تُنفق مالها كلّه في هذا التّنكُّر؟ هذا لا يعنيني. كما أنه لا يعنيها أنني قد قرّرتُ مَنْحَ نفسي تلك الإجازة الوجيزة على البحر.

رفع رئيس المحطَّة عصا الإشارة. أطلقت مقصورة القيادة صافرة طويلة. عدتُ للجلوس. عندما تحرّك القطار مُنفِثاً البخار، شدّت أسونتينا بقوّة على يدي. منذُ أيقظتْها والدتها في الصباح لم تفهْ بكلمة واحدة، لم تبكِ عند الوداع، وكانت تتظاهر بأنها مستغرقة في التّحقُّق من أن صُرّتها تحوي كلّ ما يلزم، وأن كتاب مبادئ القراءة والكرّاسة بعيدان عن لِفافَة الطعام، كي لا يتّسخا.

وهكذا كنّا في خضمِّ الرحلة الآن. كان الريف ينسل على الجانبَيْن: أشجار، أبقار في المرعى، صخور من الجرانيت ذات أشكال غريبة، حمير محمّلة بسلالٍ وأَخْرَاجٍ، حقول الخُرْشُوْف والبِطّيخ وفلّاحون يعملون. كانت رفيقة رحلتي الصغيرة تنظر خارجاً بعينَيْن مشدوهَتَيْن، وأنف ملتصق بزجاج النافذة. كان كلُّ شيء، بالنسبة إليها، وهي طفلة مدينة، وُلِدَت ونَمَت في الأزقَّة، جديداً، خاصّة تلك السماء الواسعة الممتدّة فوق الحقول، وتلك السُحُب البيضاء التي تسافر هي أيضاً، ولكنْ، على مسافة أعلى منّا بكثير، وتلك الطيور التي تنعق، وذلك الضوء، وأجمات العَرْعَر التي أَحْنَتْها الرياح. كنتُ أنا قد خَرَجْتُ من المدينة بضع مرّات، وإن لم

أكن قد ذَهَبْتُ بعيداً قطُّ، ودائماً ما كنتُ أخرج سيراً على قَدَمَيّ أو فوق عربة، يجرُّها حمار لزيارة بعض معارف جَدّتي الذين يسكنون في الريف، ولزيارة نساء بروفيرا بعد ذلك. لكنْ، كانت هذه المرّة مختلفة بسبب السرعة وتلك الأشجار التي تبدو وكأنها تجري من حولنا، وكذلك تبدُّلات المنظر الطَّبيعيِّ السريعة للغاية، حتّى إنه لا يمكن رؤية تفاصيله جيّداً، فما إن تتعرّف على زوج من الثيران المقيّدة أو أَجَمَة من الزُّعْرُوْر،حتّى يختفوا بالفعل. كنتُ سعيدة أنني استجبتُ لنزوتي، لم تكن تلك نقود مُهدَرة، فالسَّفَر يُوسِّع المدارك. كانت الآنسة استر مُحقَّة.

ممَّا كان بمقدورنا رؤيته من النوافذ عرفْنا أننا وَصَلْنا إلى ج.، لم تكن المدينة تختلف كثيراً عن مدينتنا. أمّا كونها أكبر، فربّما كان باستطاعتنا إدراكه إذا تجوّلْنا في شوارعها قاطعين إيّاها من أقصاها لأقصاها. لكننا لم ننزل من القطار الذي توقَّف في المحطَّة لعشر دقائق فقط، لم يخرج خلالها أحد من مقصورتنا، ولم يدخل إليها أيُّ مسافر جديد. تفحّصتُ من النافذة فيمَنْ يترجّل، كنتُ أشعر بالفضول لمعرفة أين تتّجه فيلومينا، لكنني لم أرها. وبينما تطلق

البخار - كانت أسونتينا تراقب ذلك الدخان الأبيض والكثيف كما لو كان أعجوبة - استأنفت القاطرة رحلتها، وخلال بضع دقائق، صرْنا في الريف مجدّداً.

بعد بضع ساعات، وَصَلْنا إلى مشارف البحر الذي كان يبدو كشريط رفيع أزرق داكن بامتداد الأُفق فحسب. كنتُ أعرفه، لأنني تأمّلتُهُ كثيراً في اللوحات الموجودة في منزل الآنسة استر، ولدى الميس، والسّيّدات الأخريات، حيثُ كنت أذهب للعمل، وفي الرسوم الملوّنة وصور المجلّات. مَن يدري إذا كان أزرق هكذا حقّاً عن مقربة، أو إذا كان يتحرّك، إذا كانت به أمواج، وإذا كان على قمّتها زبد أبيض، كما في لوحات المعارك الحربية، أو إذا كانت توجد شواطئ رملية بها أصداف؟! كنتُ قد وعدت أسونتينا بها، تلك الأصداف. قلتُ لها إنها يمكنها أن تجمع منها ما تشاء، وتحملها معها إلى المنزل. كان الناس الجالسون إلى جوارنا في المقصورة معتادين على ذلك المشهد، لا ينظرون خارجاً تقريباً، ويحاولون قَهْر المَلَل بوَصْل أطراف الحديث مع مَن يجاورُهم. كنتُ أُجيب عن أسئلتهم بكلمات مقتضبة، كي أُحبط أيّة أُلفة. كنتُ الآن سعيدة

بالسّفَر بوجود رفقة، فوجود أسونتينا يحميني من المتطفِّلين، حتّى وإن كانت هي، المستغرقة تماماً في التّطلُّع خارج النافذة، تتصرّف وكأنها لا تعرفني، وكأنها صمّاء خرساء. سألتْني إحدى النسوة إذا كانت هي ابنتي، وأنا - كي لا أستفيض في الشرح - أجبتُ بنعم، ولم تُبدِ أسونتينا أيّة ردّة فعل، ولا حتّى ابتسامة متواطئة.

لم تبتسم حتّى عندما وَثَبَ البحر أخيراً أمامنا، في إحدى انحناءات القضبان، دانياً للغاية، ضخماً، أخضر اللون في أغلبه، نابضاً بفعل أشعّة الشمس. لم أتخيّله هكذا، حَيّاً كظَهْر حيوان ضخم، حتّى وإن كانت الرياح قد تبدّدت، والسطح يبدو بالكاد متموِّجاً. قالت لي أسونتينا دون أن تلتفت، بصوت خفيض: "لا أرى الأسماك". لكن المرأة الجالسة إلى جواري سمعتْها، وضحكت: "ليس الآن. لكنْ، عندما تستقلِّين مركباً سترينها، بالتأكيد سترينها. ثمّ إذا غطستِ، سيمكنكِ أن تمسكي بين يَدَيْكِ ببعض من كثير منها يوجد هنا. لكنْ، هل تعرفين السباحة، أنتِ، أيّتُها الشّابّة الصغيرة؟"

لم تجبْها أسونتينا، لكنها وجّهتْ لي فقط نظرة متسائلة، بعينَيْن كبيرَتَيْن كَطَبَقَي فنجان. مَركِب؟ غَطْس؟ سِبَاحَة؟ لم نتحدّث عن هذا قطّ، تحدّثْنا عن رؤيته فقط، البحر. فهمتُ أنها لا تريد لأحد أن يُدرِك ذلك، وأنها كانت مضطربة، فَزِعَة ومُنبَهِرَة في الآنِ نفسه. أَجلَسْتُها على ركبَتَيّ، وشعرتُ كم كانت نحيفة وصغيرة تحت طبقات الفستان الصُوفيِّ والشال، فكّرتُ أن الرياح على الشاطئ ستحملها بعيداً عنّي.

"لا يزال الجوُّ بارداً جدّاً على النزول إلى الماء"، قلتُ لها، "اطمئنِّي". وأخذتُ من سلّتي لِفَافَة الطعام، داعية إيّاها لأَخْذ ما يخصُّها.

وَصَلْنا ما بعد الظهيرة. عندما نزلتُ من القطار، بحثتُ بفضول عن فيلومينا، ورأيتُها تتّجه مع زوجها نحو عربات الخيل التي تنتظر المسافرين، لتُقلَّهم إلى الميناء. ستستقلُّ السفينة إذنْ، وترحل بعيداً، ربّما إلى الخارج. فلتمكثْ هناك أيضاً، لن أشتاقَ إليها، لم

يرقْ لي تصرُفها خلال التحقيق والافتراءات التي قصّتْها عن الميس. ثمّ لماذا؟ لتبدوَ مثيرة للاهتمام في عينَي المُفَوّض؟

فيما يخصُّني أنا وأسونتينا، وعلى الرغم من مخاوفي، سار كلُّ شيء بشكل سلسٍ. جاءت إحدى الأخوات إلى المحطَّة، لتأخذنا، ورافقتْنا إلى المعهد الذي يقع على الشاطئ تماماً. من غرفة الضيوف الصغيرة المطلَّة على الشاطئ، كنّا نسمع، حتّى مع إغلاق النافذة البابية، ذهاب ورواح المياه على الشاطئ كتَلاحُق الأنفاس. رافقَنا ذلك الصوت طَوَالَ ليالي الإجازة كلّها. نهاراً، وطالما كان الضوء موجوداً، كنّا نمكث دائماً في الخارج، أمّا عندما يحلُّ الظلام، فكنّا نجلس في صالون القاعة النِّسائيّة، لنتدفَّأ بالقرب من الموقد الكبير بصحبة الأخوات والمتعافيات. كنّ ينتمين إلى جميع الأعمار، ومن بينهنّ صغيرات كثيرات، كانت هؤلاء النسوة جميعاً يرتدينَ مآزر متماثلة من اللون الرّماديّ المخطَّط، ورؤوسهنّ، لا أدري لماذا، حليقة.

وَجَدَتْ أسونتينا، بعد أوّل وجبة جماعية، لسانَها. أَمْطَرَتْني بأسئلة عن كلِّ ما ترى، وكانت تجيب بتهذيب إلى حَدٍّ ما على الأخوات والنسوة البالغات، أمّا مع الصغيرات الأخريات، فلم تستغرق وقتاً طويلاً، فمنذُ صباح اليوم التالي، عادت متشرِّدة الأزقَّة الوقحة، صاحبة ألعاب الأرصفة التي لا تنتهي، والعَدْو، ووَثْب الحبل، وإلقاء الحصى والبَصْق والشتائم أيضاً. اضطررتُ لأن أُغلق علينا الغرفة وألومها بجدِّيّة، وأُحذِّرها بأنها إذا تسبّبت في إحراجي مع مضيفاتنا، فسنعود فوراً إلى ل. وَعَدَتْ وبَكَتْ قليلاً أيضاً، لكنْ، كان الأمر أقوى منها، فقد أذهبت المساحة الكبيرة الممتدّة أمامها والهواء الشديد عقلَها.

كنتُ، بين الحين والآخر، وأنا أراها منفلتة هكذا وعَصِيّة على السيطرة، أندم على أنني أتيتُ بها معي. كانت الأخوات، اللّاتي طَلَبْنَ من الآنسة استر قبل استضافتي معلومات عنِّي، وكنّ يعرفنَ أنني غير متزوِّجة، يعتقدنَ أن أسونتينا هي مساعدتي الصغيرة، متدرِّبة اصطحبتُها معي. كانت آثار الحروق التي تظهر على يَدَي الطفلة تحملهنّ على هذا الاعتقاد. فقد كانت عاملات مشاغل

الخِيَاطَة الصغيرات يقمنَ، من بين مهامِّهنّ الأخرى، بالحفاظ على المكاوي جاهزة دائماً. عندما رأينَها تظهر في قاعة الطعام الكبرى مع كتاب القراءة والكرّاسة، اندهشنَ. اضطررتُ أن أحكيَ لهنّ عن زيتا وجيرتنا الطِّيّبة، وكيف أن أسونتينا، التي لا تربطها بي صلة قرابة، تحتاج للتعافي من داء الرئة. "عملٌ صالح حقّاً" أثنت عليّ الأُمُّ الرئيسة. "لكنْ، هذه الأيّام القليلة لن تفيدَ كثيراً. يمكنكِ أن تُخبري الوالدة أنها إذا قدّمت طَلَبَاً إلى منزلنا في ل.، إضافة إلى الشهادة الطِّبِّيّة وشَرْح الحالة، سيمكنها أن تُتيح لها العلاج لدينا مجّاناً طَوَالَ الموسم كلِّه. لقد فحصتُ عنقها جيّداً، ليس لديها سلّ الغدد اللِّيمفاويّة، لكنها في سبيلها لذلك. بل، انتظري، يمكنكِ أن تتركيها هنا مباشرة دون أن تدعيها تقوم بالرحلة مرّتَيْن، أثق بكِ. أرسلي لي الأوراق بالبريد".

كنتُ أرى أسونتينا سعيدة، وتأكل الوجبات الوفيرة التي تُقدّم في قاعة الطعام بأكملها، وتنام سعيدة في الفراش اللَّيِّن والدافئ إلى جواري، واكتسبتْ صديقات كثيرات. أخبرتُها عن اقتراح الأُمِّ

الرئيسة، وسألتُها إذا كانت تريد البقاء. كنتُ سأشرح أنا لزيتا لماذا تركتُها في ب. نظرتْ إليّ متبرِّمة: "قلتِ إننا سنعود يوم الخميس".

"أجل. لكنْ، يمكننا أن نُغيّر البرنامج".

"لا. لا أريد. أريد أن أعود إلى منزلي. أريد أن أعود لأُمِّي".

"ستكون أُمُّكِ سعيدة إذا بقيتِ. سيفيدكِ هذا، لن يأتيَكَ داء الرئة مرّة أخرى".

"إذا مكثتُ، سيقصُّون شَعْري. أريد العودة لأُمِّي".

لم يكن هناك من سبيل لإقناعها، ولم أكن أريد تحمُّل مسؤولية إجبارها دون أن أتحدّث مع زيتا أوّلاً. وهكذا ذَهَبْتُ إلى المحطَّة، واشتريتُ تذاكر العودة عصر يوم الخميس، كما خطَّطتُ مُسبّقاً.

بالنسبة إليّ، باستثناء شعوري بالقلق الدائم، بسبب تصرُّف أسونتينا غير المتوقَّع، سارت الإجازة بشكل طيّب، وإن لم تكن مثيرة للغاية كما حلمتُ بها. تنزّهتُ على الرمال، استنشقتُ ذلك الهواء ذا الرائحة المختلفة تماماً عن هواء المدينة، وجمعتُ الأصداف أيضاً. لكنني لم أشعر لأجل هذا بسعادة خاصّة، لم يتغيّر شيء في داخلي. كان هناك دائماً ذلك الهاجس الذي يطلُّ خجولاً، والذي أتعجّل أنا طَرْدَهُ. بالتأكيد لم يكن السّيّد الشّابُّ جويدو يفكِّر بي، ولا يجب أن أفكِّر به، لا يجبُ، لن يتسبّب هذا سوى في إيذائي فحسب.

في يوم السَّفَر استيقظتُ قبل الفجر بقليل، وثباً كما لو أن أحداً قد أمسكَ بكتفي. كان الفراش إلى جواري شاغراً، وكانت النافذة البابية المطلَّة على الشاطئ مواربة، وتسمح بدخول تيّار هواء بارد. أسونتينا! نزلتُ من الفراش، تدثّرتُ في الشال، هُرعتُ إلى الخارج، حيثُ المِدْوَسَة الخشبية التي تفصل المبنى عن رمال الشاطئ، ونظرتُ صوب البحر. ها هي هناك، تلك الطفلة الملعونة العاصية التي تتظاهر بعُمُر أكبر من عُمُرها، سأُحطِّم عظامها عندما

تعود إلى الشاطئ، سأُشبعها ضرباً. لم تصدر عنِّي قطُّ من قبل ردّة فعل عنيفة هكذا، ولا حتّى عندما اضطررتُ للدفاع عن نفسي أمام البارون سالاي. إحساس بالفجعة والحَتْمِيّة. "هذه المرّة ستمرض حقّاً وتموت"، فكَّرتُ غاضبة، "ماذا سأقول لزيتا؟"

رأيتُ قميص النوم من قماش الفلانل، والذي ضيّقتُهُ من أحد قمصان كلارا الواسعة ليناسبَ مقاسها، متروكاً على الرمال. لا يوجد حذاء، كانت الصغيرة الذاهلة قد خَرَجَتْ حافية القَدَمَيْن، وتتخبّط الآن في الماء المنحسر، وشَعْرها ينبسط حول كتفَيْها كمروحة. كان ضوء آخر نجوم الليل ينعكس على مياه البحر السوداء.

ألقيت الشال أرضاً، كي لا أُغرقه بالماء، رفعتُ التّنُّورة إلى الأعلى، ودخلت أنا أيضاً بثورتي الشديدة إلى المياه التي كانت تصل لرُكبَتَيّ. أمسكتُ أسونتينا من شَعْرها. "أتريدين الموت؟ ستُصيبكَ بلوى". كان الجوُّ بارداً، وذراعا الطفلة المبتلّتان والزّلِقَتان تتملّصان من قبضتي، لكنني كنتُ أشعر بقُشَعْرِيْرَةِ جِلْدِها. جَرَرْتُها إلى الشاطئ، ودثّرتُها بالشال. "ما الذي خَطَرَ على ذهنكِ؟"

"كنتُ أريد أن أرى إذا كان صحيحاً أنه يمكنني الإمساك بالأسماك". لم أستطعْ صَفْعَهَا، لأن كلتا يَدَيّ كانتا مشغولَتَيْن في الإمساك بها.

حملتُها حَمْلاً إلى الغرفة، وألقيتُ بها على الفراش، ولأن الشال صار رطباً، بدأتُ في تمسيدها بمُلَاءَات الفراش. ظلَّت صامتة. كان أكثر ما يُقلقني هو شَعْرها المبتلُ. لحسن الحظِّ، كانت الأخوات في المُصلِّى بالفعل لأجل أداء صلاة الصباح. في المطبخ كانت النار مشتعلة في الموقد. سمحتْ لنا الأخت المسؤولة عن المطبخ بالدخول، وأَجْلَسَتْنا بالقرب من طاقة اللهب، ولفَّت حول رأس الطفلة قطعة من القماش الدافئ، وحملتْها على شرب الحليب المغلي. " ليست أوّل مرّة يحدث هذا فيها"، قالت لي بصوت خفيض لِتُطَمْئِنِّي، أعطتْني أنا أيضاً كأساً من الحليب.

"قمتِ بمغامرة جميلة"، قالت بقسوة لأسونتينا. " جيّد أنكِ سترحلين من هنا بعد الغداء، وإلّا كان في انتظاركِ أسبوعٌ من

العقاب في الغرفة مع الخبز والماء فقط. ثمّ ما الجميل في تلك المياه السوداء، لنسمع؟"

"لا شيء"، أجابت أسونتينا متبرِّمة، "لم تكن توجد أسماك".

"بالطبع!"، قالت لها الأخت. " في هذه الساعة هي لا تزال نائمة".

بانتهاء الشعائر المقدّسة، لحقت بنا الأخوات الأخريات. أرادت الأُمُّ الرئيسة أن تفحصَ الطفلة، طمأنَتْني. "إنها دافئة، لكنْ، ليس لديها حُمّى. لا تكحُ ولا ترتجف. لقد انتشلتِها في الوقت المناسب، نأمل هذا. ثمّ إنكِ مُحقَّة، يُفضّل أن تأخذيها معكَ. أُفضِّل ألّا أتحمّل مسؤولية كبيرة كهذه".

وُضِعَت أسونتينا في الفراش أسفل تلٍّ من الأغطية مع زجاجَتَيْن من الماء الساخن عند قَدَمَيْها، ومِرْجَلٍ متّقدٍ إلى جوارها، وظلّت هكذا حتّى وقت الرحيل. حتّى الغداء حَمَلْنَهُ إليها في الفراش،

وأتت إحدى الأخوات لتُطعِمَها. كنّ يقسنَ لها الحرارة كلّ ساعَتَيْن، لكنها لم تكن مرتفعة. كنتُ غاضبة حتّى إنني لم أُوجِّه لها الحديث، وكانت هي أيضاً تتصرّف كَمَنْ يشعر بالإهانة. كانت الجملة الوحيدة التي قالتْها لي عندما اقتربتُ منها لألمس جبهتها: "لا أريدكِ. أريد أُمّي".

عندما حان الوقت، نهضتْ، وارتدتْ ثيابها في صمت، وملأتْ صُرّتها، وتبعتْني في صمت إلى المحطَّة. وفي القطار، جلستْ أبعد ما يمكنها عنّي، واتّكأتْ إلى مَسْنَد الظَّهْر الخشبي، وتظاهرت بالنوم. كنّا وحدنا في المقصورة. كنتُ أُنصتُ بقلقٍ لصوت تنفُّسها، لكنْ، بمرور الدقائق، وبسماعه منتظَماً دون كُحّة أو حَشْرَجَة، هدأتُ شيئاً فشيئاً. لكنني فقدتُ الرغبة في مشاهدة المنظر من النافذة.

وَصَلْنا إلى ج. والظلام يهبط تقريباً. وكانت المصابيح مُوقَدَة بالفعل في المحطَّة. فتحتُ النافذة، وأطللتُ لأنظرَ خارجاً. كان الزحام هذه المرّة أكبر، حمَّالون مع الحقائب يتنادون صارخين،

مسافرون من كلِّ الطبقات، يُحيُّون أصدقاء وأقارب، بائعو الفطائر المَقليّة الساخنة المُحلّاة بالسُّكَّر، يعرضون بضاعتهم بصوت جَهْوَرِيٍّ. كانت الأخوات قد أعطينَ لنا شطائر بالجُبن وزجاجة من الحليب بالعسل لأسونتينا. فكَّرتُ أنه يمكنني أن أشتريَ لها فطيرة مَقليّة ساخنة، لأُصفِّي الأجواء. أطلَّيتُ أكثر، لأُنادي على البائع. لكنني كنتُ قد تأخّرت، وعاد القطار بالفعل للتّحرُّك. كومضة برق، صَعِدَ أحدهم بقفزة واحدة بالفعل إلى عربة الدرجة الأولى؛ شابٌّ يرتدي معطفاً جميل اللون، يشبه السّيِّد الشاب جويدو تماماً. لكنْ، بالتأكيد ليس هو. ماذا يفعل هنا في ج.؟ أَلَا يجب أن يكون في تورينو؟

كان قلبي يدقُّ بجنون. أغلقتُ النافذة، وجلستُ. شعرتُ بالبرد. تدثّرتُ بالشال، وحاولتُ أن أهدأ. وإن كان جويدو؟ أكثر من أيِّ مكان آخر، كانت المسافة التي تفصلنا تبدو جَليّة على متن القطار: درجة أولى، درجة ثالثة. أبعد من المسافة التي تفصل الأرض عن القمر. يجب ألّا أنسى ذلك أبداً، أبداً، أبداً.

عندما استعاد قلبي نبضه الطَّبيعيّ، ألقيتُ نظرة على أسونتينا التي كانت تستمرُ في إغلاق عينَيْها، ربّما كانت تنام حقّاً. انزلقتُ أنا أيضاً في النوم، دون أن أعيَ ذلك، وقد هَدْهَدَتْنِي حركة القطار.

بعد وقتٍ لا أعرف كم استمرّ أَيقظنَي صوتٌ رقيق مألوف يقول لي: "هل يمكنني أن أفعل لكِ شيئاً، يا آنستي؟ هل أنتِ مرتاحة بما يكفي؟" رأيتُ يداً تمتدُ لي بوسادة سَفَر من تلك الوسائد التي تُؤجّر في الدرجة الأولى. رفعتُ بصري. كان السِّيِّد الشّابّ جويدو جالساً إلى جوار أسونتينا في المقعد المواجه لي.

"لحسن الحظِّ، رأيتُ حضرتكِ في المحطَّة، مُطلَّة من النافذة. لم أكن لأتخيّل قطُّ أنه يمكن أن تكوني على مَتْن هذا القطار. هل تأتيان من ب.؟ هل كنتُما على الشاطئ؟ لقد اكتسبتُما لوناً جميلاً. هل هي ابنة شقيقتكِ هذه الطفلة؟"

كنتُ ممتنّة أنه لم يقلْ: "هل هي ابنتكِ؟" كانت أسونتينا صغيرة الحجم وواهنة بما لا يُظهِر عُمُرها الحقيقي في حدود معرفة

جويدو، كان يمكنني أن ألدَها وأنا في السادسة عشرة، لن أكون أوّل مَنْ تفعل هذا. أمّا كوني قد حفظتُ قلبي وجسدي مصونَيْن لأجله هو حتّى تلك اللحظة، فلا يمكن لأحد أن يعرفه إلّاي. ولن أعترفَ له به أبداً.

"لا"، أجبتُ، "إنها ابنة صديقة". لم أسأله لماذا هو على متن ذلك القطار، ولماذا لم يمكث في الدرجة الأولى. لم يكن من حاجة لذلك.

"أُصيب خالي بسكتة"، شَرَحَ على الفور، "وأرسلتْ لي جَدّتي تلغرافاً تسألني المجيء. لقد فزعتُ. أتمنّى ألّا يكون الأمر خطيراً. إنهما وحيدان تماماً، عجوزان مسكينان، ليس لديهما سواي".

"يؤسفني هذا"، قلتُ. "أتمنّى أن يتعافى خال سيادتكِ". كنتُ لا أزال بعيدة تماماً عن الشّكّ في هُوِيّة ذلك الخال وتلك الجَدّة. كنتُ آمل، دون أن أعترف لنفسي بهذا، أن يكونا من صغار البرجوازيّيْن، تاجرَيْن، موظَّفَيْن يُقدِّمان آلاف التضحيات للإبقاء

على الحفيد في دراسته، وإلباسه بطريقة، لا تُسبِّب له حرجاً بين رفاقه الأكثر ثراء.

"هل يمكن أن أُكمل الرحلة معكما هنا؟" سأل السِّيِّد الشاب جويدو.

"لستُ مالكة القطار"، أجبتُ بجفاء، "لكن الدرجة الأولى ستكون أكثر راحة بكثير".

"لن أنالَ فيها بهجة رفقة حضرتكِ".

ماذا كان باستطاعتي أن أقول له؟ "إنها بهجة لي أنا أيضاً"؟ أم "لتُبهجني سيادتكَ بالانصراف من هنا"؟ ظللتُ صامتة. كنتُ ممزّقة بين الفرحة التي أصابني بها ذلك اللقاء غير المنتظَر، والتّوجُس. ماذا يريد منِّي؟ لماذا أتى يبحث عنِّي؟ هل كان يعرف أنه لا يوجد آخرون في المقصورة؟ هل يريد استغلالي؟ ينصب لي مكيدة ما؟ جيّد أن أسونتينا كانت موجودة.

استراح هو على المقعد بثقة ظاهرة، ووَاصَلَ الحديث دون أن يُبديَ انزعاجاً من صمتي. " لحسن الحظِّ، انتهت المحاضرات الشهر الماضي، لا يزال لديّ عشرة أيّام قبل حلول آخر الشهر. خلال أربعة أشهر سأتخرّج. أقوم بإعداد فصول البحث الأخيرة، ويجب أن أعمل عليها باجتهاد. في منزل جَدّتي لن يتركوني وشأني. وهكذا إذا وجدتُ أن حالة الخال ليست خطرة كما يكتبون، وأنه محاط برعاية جيّدة، سأذهب بدءاً من الغد، ولبضع ساعات على الأقلِّ، لأعمل في قاعة المطالعة في مكتبة المدينة. من التاسعة حتّى الثانية عشرة. ألن تأتي حضرتكِ لزيارتي؟ هل تعرفين أين هي؟ الدخول متاح للجميع. يمكننا النزول إلى الباحة والتّحدُّث في هدوء".

"ليس لدينا ما نتحدّث عنه".

"لا تتصرّفي، حضرتكِ، بهذه الطريقة. لماذا لا تثقين بي؟ لن أُسيءَ لكِ أبداً".

لم تكن باحة المكتبة، وكنتُ أعرف هذا، مكاناً منعزلاً، بل كانت تشهد غدواً ورواحاً دائماً. إذا أراد أن ينصبَ لي مكيدة، فلن يكون ذلك بالتأكيد مكاناً يعطيني فيه موعداً. ثمّ إنهم سيروننا معاً. أَلَا يخجل منِّي؟ طالب مع خَيّاطَة متواضعة؟ سيذهبون فوراً لإخبار الجَدّة والأسرة. كانت كلُّ هذه الأفكار تزدحم في عقلي.

"إذنْ؟ هل ستأتين؟" سألني مادّاً إحدى يَدَيْه، ليلمسَ يدي. لم أسحبها. حتّى وإن كنتُ أخجل من جِلْدي الخشن الذي أفسدتْهُ الإبرة وحروق المكواة. نظرتُ إلى أسونتينا. كانت لا تزال تُغلق عينَيْها، لكنني كنتُ واثقة أنها مستيقظة، وتُنصت لنا.

"لم أفكّر إلّا في حضرتكِ خلال كلِّ تلك الشهور"، قال جويدو.

ستغفر لي، أيُّها القارئ، إذا بدأتُ أنا أيضاً التفكير فيه شيئاً فشيئاً ببساطة كجويدو فقط، متناسية المسافة التي يفترضها لقب "السّيِّد الشّابّ"، أو راغبة في إلغائها.

"وحضرتكِ؟ هل فكَّرتِ فيّ، ولو قليلاً؟" لم أعرفْ بما أجيبه، كانت شَفَتَاي ترتعدان، ولم أكن أريد الانفجار في البكاء.

"أرجوكِ، أرجوكِ"، قال جويدو. "لتأتِ حضرتكِ. بعد غد صباحاً. ستكونين أقلّ انشغالاً يوم السبت، أليس كذلك؟ وإذا لم تستطيعي، فلتأتِ وقتما تشائين. سأنتظركِ كلّ يوم، كلّ لحظة".

لم أُعطِ وعداً. لكنني لم أسحبْ أيضاً اليد التي كان يشدُّ عليها دائماً بقوّة أكبر. ظللْنا صامتَيْن بينما القطار يسافر في الليل آنذاك. لكم من الوقت؟ لم يكن بمقدوري حسابه. لم يكن بمقدوري التفكير في أيِّ شيء، سوى في مَنْع الدموع التي كانت تحرق مُقلَتَيّ.

وها هي من بعيد أضواء ل. تلوح. كنّا على وشك الوصول. انتفضتُ، ونهضتُ. أيقظتُ أسونتينا، دثّرتُها تماماً بالشال، وعقدتُهُ لها عند الظَّهْر. لَفَفْتُ لها مرّتَيْن الوشاح الأحمر حول رأسها. تركتْني

هي أُلبِسُها في وداعة، بصمت، بينما كانت عيناها تخترقان جويدو بنظرة متفحِّصة.

" يجب ألَّا تتعرّض للبرد"، فسّرتُ له. " سَقَطَتْ مساء أمس في البحر، وهي لا تزال في فترة نقاهة عقب التهاب رئوي شديد". أدركتُ أن هذه هي أوّل عبارة مترابطة إلى حَدٍّ ما أنطقُها منذُ تركت ب.

"إذا أذنتِ لي حضرتكِ، سأرسل غداً طبيب خالي أدريانو"، قال جويدو. حتّى تلك اللحظة، لم يشرْ لي هذا الاسم بشيء. صحيح أنه لا يوجد أصمّ أكثر ممَّنْ لا يريد أن يسمع، كما كانت جَدّتي تقول.

في المحطَّة أصرّ جويدو على اصطحابنا إلى المنزل في عربة خيل من بين تلك التي تنتظر في الميدان آخر مسافري الليل. كانت حقيبته الجِلْدِيّة الجميلة تتناقض بغرابة مع سلَّة القشِّ خاصّتي وصُرّة أسونتينا. لم أكن بحاجة لإخباره بعنواني، كان

يتذكَّره منذُ ذلك اليوم الذي رافَقَني فيه بحقيبة ماكينة الخِيَاطَة الصغيرة.

ساعدَنا على التّرجُل. خَرَجَتْ زيتا على ضوضاء العربة إلى الطريق، ونَظَرَتْ إليه بقليل من الدهشة. " ماما! لا تترك الأسماك أحداً يمسك بها، لكنني أحضرتُ لكِ ثلاث أصداف"، علّقت أسونتينا بصوت أجشّ قليلاً بفعل الصمت الطويل. أو ربّما، ارتجفتْ، بفعل تبعات الحمّام المثلَّج.

شدّ جويدو على يَدَيّ بقوّة، وقال لي بصوت خفيض باحثاً عن نظراتي التي كانت تهرب منه: "إذنْ، بعد غد سأنتظر حضرتكِ في المكتبة". ثمّ صَعِدَ مجدّداً إلى العربة، وقال للحُوذيِّ: "والآن إلى بناية ديلسوربو، في شارع تشيزارى باتيستي. بأسرع ما يمكنكَ، إذا سمحتَ. ستكون جَدّتي قلقة من التأخير".

"ومن يقف أمامها، إذا كانت غاضبة، دونّا ليتشينا"، علق ضاحكاً الحوذي الذي يبدو بجلاء أنه يعرفها.

رنّ ذلك الاسم في أُذنَيّ كطلقة مدفع، كحُكْم بالموت ينطقه أكثر القضاة قسوة، كلعنة أنزلتْها بي مشعوذة متجبِّرة قاسية. أمن الممكن أنني لم أفهم هذا في كلِّ تلك الشهور؟ لم أرد الاستعلام عن أسرة جويدو، لأنني كنتُ أتحصّن أمام الحقيقة، وأخدع نفسي بذلك اللقب الغريب، سورياني. لم أرد أن أفهم أن " سيّدي الشّابّ" لم يكن يُدعَى ديلسوربو إلَّا لأنه ابن دونّا فيتوريا، اليتيم الذي حَكَتْ لي عنه كويريكا، الحفيد الوحيد، والوريث الوحيد لتلك الأسرة الفخورة والمتكبِّرة التي لا ترى أحداً يماثلها في المقام، لا كونتات ولا بارونات ولا أمراء ولا ملوكاً. ولا خَيّاطَة متواضعة تعمل بأجر يومي مثلي بالتأكيد. كان يعرف تمام المعرفة أنه لا يوجد لدينا مستقبل معاً. لماذا خَدَعَني؟ لماذا كَذب عليّ؟ كم هو ماهر في التمثيل! كان يريد أن يُطفِئ نزوة معي؟ هل هو شهواني أناني مثل خاله دون أدريانو؟

أجبتُ باقتضاب على عبارات شُكر زيتا، فتحتُ البوّابة، دخلتُ إلى المنزل، وألقيتُ بنفسي على الفراش باكية. بكيتُ، وبكيتُ، وبكيتُ حتّى فَقَدْتُ قواي، وتشوّش ذهني، وسَقَطْتُ في نوم

مضطرب وقَلِق، تتخلَّله أحلام وصور مظلمة وملتبسة، تشبه ظلالاً مقلقة ومهدّدة تحت الماء.

ما إن استيقظتُ، بعينَيْن متورِّمَتَيْن، لا أكاد أستطيع فتحهما، وثياب السّفَر لا تزال على جسدي، حتّى عاد كلُّ شيء إلى ذهني، وأقسمتُ أنني لن أذهب للبحث عنه في المكتبة، لا غداً، ولا في أيِّ يوم آخر.

غسلتُ وجهي بماء بارد، حَلَلْتُ شَعْري، ومرّرتُ فيه المشطَ منتزعةً تشابكاته بلا رحمة، وذَهَبْتُ لأنظر إلى نفسي في المرآة. كنتُ أجاهد لأتعرّف على نفسي. كان اللون الذي أضفتْهُ الأيّام القليلة من البحر والهواء على وجنَتَيّ يبدو لي غريباً، شيئاً لا ينتمي إليّ، كقناع فُرض عليّ ارتداؤه. في قلبي لا يوجد سوى شحوب الأشباح، الموتى. مات شيء في داخلي إلى الأبد. الثقة؟ الأمل؟ كان يبدو لي كلُّ هذا كابوساً. هل قضيتُ أربعة أيّام حقّاً في ب.؟ هل سافرتُ بالقطار حقّاً، وفي القطار التقيت وشَدَدْتُ على يد مَنْ حسبتُهُ غرامي، غرامي الصادق، المخلص، كما تقول الأُغنيّة؟

انتفضتُ لسماع طَرْق على الباب. كنتُ مرتدية ثيابي، وإن كنتُ سيّئة الهندام، وذَهَبْتُ لأفتح. كانت زيتا، وابنتها في يدها، وخلفهما سيّد كهل ذو لحية رمادية، وياقة معطف من الفراء.

"جاء لعيادة أسونتينا"، قالت الكاوية. "أرسلَهُ ذلك الشّابُّ الذي كان هنا أمس".

"صباح الخير. أنا الطبيب ريتشي"، قال لي الغريب، " كان ديلسوربو الشّابُّ، الحفيد، هو مَن طَلَبَ منّي الحضور. لا يُدعَى ديلسوربو، أعرف هذا، لكنه بالنسبة إليّ كما لو كان ابن دونّا ليتشينا".

شعرتُ برغبة شديدة في أن أُجيب: " ماذا يريد منّي السّيّد الحفيد؟ قل له أن يذهب إلى الشيطان! لا أريد أيّ شيء يربطني به". لكن التربية التي تلقَّيتُها على يد جَدّتي كان لها الغَلَبَة، أجبرتْني على أن أتمالك نفسي، وأسأل باحترام: "كيف حال دون أوربانو؟"

"سيِّئ. أخشى أن أمامه قليل من الوقت. دون جويدو لا يمكنه الابتعاد عن فراشه. وقد طَلَبَ منِّي أن أخبركِ بذلك. لن يتمكَّن من الذهاب للدراسة في المكتبة. فقد يتوفَّى خاله بين لحظة وأخرى".

"يؤسفني هذا"، قلتُ، حتّى وإن كنتُ لا أهتمُ كثيراً بذلك العجوز الثّريِّ المتكبّر الذي استمتع بالحياة حتّى الثُّمَالَة، دون أيِّ تضحية أو ضيق.

"لكنه"، شَرَحَ الطبيب، "طَلَبَ منِّي المجيء لأُلقي نظرة على هذه الطفلة".

"آه، فعلاً؟" علَّقتُ، وقد دُهشتُ رغماً عنِّي من أن الكاذب قد أوفى بوعده. "وكيف وجدتَها؟"

كنتُ أرى من جانبي، وبراحة كبيرة، أن أسونتينا في حال طيِّب، لا تسعل، واكتسبتْ لوناً جميلاً. كانت تلتصق بجانب والدتها، فَزِعَة

قليلاً، وتتفحّص في ريبة، من أسفل لأعلى، ذلك الغريب الذي، كما قصّت عليّ زيتا، رَفَعَ ثيابها عند ظَهْرها، ووَضَعَ أُذنه، ليستمع لأصواته، وطَرَقَهُ بمفاصل أصابعه، وطَلَبَ منها أن تسعل وتتكلَّم، وتحسّس عنقها، وضغط على بطنها. كانت المرّة الأولى التي تخضع فيها الطفلة في حياتها لكشف دقيق كهذا.

"جيّدة إلى حدٍّ ما، باعتبار الظروف. وفِّرا لها بيئة دافئة"، أجاب الطبيب ريتشي. ثمّ أضاف: "أرغب في أن أتحدّث إليكِ بمفردكِ".

رسالة خاصّة من طَرَف جويدو، فكّرتُ وقلبي يثبُ إلى حَلْقي. لكنني كنتُ قد اتّخذتُ قراري آنذاك، لن أترك نفسي نهباً لاهتمامه الزائف. "أهل تورينو الزائفون المحترمون"، كانت جَدّتي تقول دائماً، ينبغي أن يكون الكاذب قد تعلَّم في تلك المدينة. لكن التهذيب كان يقتضي عليّ أن أصرف زيتا وابنتها، وأن أبقى لسماع ما جاء الطبيب، ليُخبرني به.

عندما أُغلِقَ الباب علينا، نَظَرَتُ إليه متحدِّية، ومتأهِّبة لرفض أيِّ عرضٍ منه أو طَلَبٍ. لم أتوقَّع أنه يريد أن يتحدّث لي عن زيتا.

"سمحتُ لنفسي بعيادة الوالدة أيضاً، صديقتُكِ بحسب ما فهمتُ"، قال، " وعلى النقيض، تُقلِقُني حالتها كثيراً. لقد تلفتْ رئتاها تماماً، أتعرفين هذا؟ إنه سلٌ في مراحله الأخيرة".

لم يكن هذا التفكير قد استوقَفَني من قبل. كنتُ أعرف زيتا منذُ الأزل، ومنذُ الأزل رأيتُها هكذا، يستهلكها العمل، شديدة النحافة، ومُتعَبَة دائماً. كنتُ أعرف أيضاً أنها تسعل، وأنها تبصق بين الحين والآخر دماً، لكنني كنتُ أراها تعمل بنشاط، ولم تمكثْ يوماً واحداً في الفراش، بعيداً عن طاولة الكَيِّ. كنتُ أظنُّ أن تلك هي متاعب الشتاء. شعرتُ بإحساس مرير بالذنب. بدلاً من أن أحلم بالمسرحيات الغنائية، والمدارس المسائية، والرحلات، كان ينبغي عليّ أن أعطيَ لها هي نقود المعاش كلّها، بل كلّ تلك التي تحويها علبة رغباتي، كي تتمكّن من أن تحصل على قليل من

الراحة، وأن تأكل لحماً في كلِّ الشهور، وألَّا تسير في الطريق حافية القَدَمَيْن.

"ينبغي عليكِ إقناعها بتلقِّي العلاج في المستشفى"، وَاصَلَ الطبيب. "ليس لأن باستطاعتهم مداواتها، في تلك الحالة التي وَصَلَتْ إليها، لكنْ، لتوفير قليل من الراحة لها، ثمّ إنه من الأفضل إبعادها عن الابنة، إن لم تكن قد نَقَلَتْ لها العدوى بالفعل".

"لن ترغبَ أبداً في الذهاب إلى المستشفى"، عارضت. ولم يكن بمقدوري لومها. كان الفقراء يذهبون إلى المستشفى ليموتوا، لم أسمع قطُّ عن شخص خَرَجَ منها حيّاً. كان الأغنياء يعرفون هذا جيِّداً، وكانوا يتداوون في المنزل، مثل دون أوربانو، أو يذهبون إلى المصحّات الفخمة في سويسرا أو في الفنادق الكبرى في الريفييرا.

حرّك الطبيب ريتشي كتفَيْه، وأعطاني بضع ورقات. "كتبتُ هنا طَلَبَ علاج. استخدِمُوه كيفما تشاؤون. وهذه روشتة للصّيدليِّ.

اجعلوها على الأقلِّ تتناول الدواء. يجب إبعاد الطفلة عنها، إرسالها إلى الريف أو البحر، إذا كان ممكناً. إنها معجزة أنها لم تُصَبْ بمرض الصّدْر هي أيضاً رغم عيشها في ذلك الجُحْر الرطب".

كم من الناس يعيشون في مساكن أرضية في المدينة! كم من الأطفال! هل كان الطبيب ريتشي يعرف؟ ليس بمقدور الجميع السّكَن في شقق صحِّيّة، جميلة وجافَّة، في شارع تشيزارى باتيستي، هكذا كنتُ أرغب في الرّدِّ عليه.

كان يمدُّ لي الآن ظرفاً مغلَقاً. رسالة؟ لم أكن أريد قراءة أيّة رسالة. لكنه كان يضمُّ بعض الأوراق النّقْدِيّة. " لشراء الدواء"، شرَحَ الطبيب. " إنه غالي الثمن جدّاً، وينبغي إعطاؤه لها مرّتَيْن في اليوم. يقول دون جويدو ..."

قاطعتُهُ رافضةً أَخْذ المظروف. " ليهتمّ دون جويدو بأمر خاله"، علّقتُ، " سنتدبّر نحن أمرنا بمفردنا. أشكر سيادتَكَ". مَنْ كان

يرغب في إحسان ذلك الكاذب؟ ليحتفظَ بنقوده لنفسه، وبأنسابه النبيلة.

"كما تفضِّلين"، قال الطبيب بنبرة باردة، تعكس شعوراً بالإهانة من كلِّ هذا الجحود، "أخبرتكِ بهذا. هنا توجد روشتة الدواء وطَلَبُ العلاج. لتفعلوا ما تريدون".

ألقى التّحيّة، وانصرف منتبهاً ألّا يلوِّثَ حذاءَهُ الفرسانيّ اللّامعَ بوحلِ الطريق.

وعلى النقيض من كلِّ توقُّعاتي، وافقت زيتا على تلقِّي العلاج في المستشفى. لم أُلاحظْ هذا: بينما أنا مستغرقة في قصوري التي أبنيها في الهواء، لم أنتبه أنه في الآونة الأخيرة كانت صديقتي مُجهَدَة، وضعيفة للغاية حتّى إنها تُكابد للوقوف على قَدَمَيْها، وأنها نحلت أكثر وعيناها تلمعان، ولديها بقعتان حمراوان على وجنَتَيْها.

كان قلقها الأعظم فيما يخصُّ الذهاب إلى المستشفى هو أن تترك الابنة وحيدة، لكنْ، عندما أخبرتُها أنني سأستضيف خلال غيابها أسونتينا في منزلي، رَضَخَتْ. وضعتْ بعض الماء ليسخنَ، واغتسلتْ في وعاء الغسيل الخشبي، وارتدتْ أفضل ثياب تملكها، تلك التي تخلو من ثقوب وتمزُّقات كثيرة. أعرتُها قميص نومي من الفلانل. اصطحبناها، أسونتينا وأنا، إلى المستشفى، حيثُ أعطوها في الاستقبال، وبعد أن قرؤوا شهادة الطبيب ريتشي، فراشاً على الفور في قسم مرضى السِّلِّ. لا يمكن لأحد زيارتها. قبل أن تعبر ذلك الباب الزُّجاجيِّ الذي لم تكن تعرف إذا ما كانت ستخرج منه أم لا، أوصتْ زيتا الابنة بأن تكون مطيعة، وأن تساعدَني في تنظيف السُّلَّم، وأن تتصرّف جيّداً في المدرسة. لم ترد تقبيلها. أَخافَها الطبيب من خطر العدوى. لم تُبدِ أسونتينا إيماءات تأثُّر أو أسف. كانت ترمق الوالدة بنظرة جادّة، لكنها لم تبكِ. كانت تتعلَّق بيدها اليمنى بتنُّورتي، وباليد اليسرى تدير بعنف أحد أزرار الصِّدَار. أمّا أنا، فبكيتُ قليلاً. ربّما يكون ندماً أكثر منه أسفاً. فيما بعد فقط، وبعد أن أعددتُ العشاء لأسونتينا، وأدخلتُها الفراش، ذاك الصغير الذي كان لي عندما كانت جَدّتي على قيد الحياة، مكثتُ

أفكِّر، وانتبهتُ للمسؤولية التي تحمّلتُها. إذا ماتت زيتا، بل عندما تموت زيتا، هل سأمتلك شجاعة أن أحمل الطفلة إلى ملجأ الأيتام؟

في طريق عودتي من المستشفى، برفقة أسونتينا المتعلِّقة بتنُّورتي، مررتُ على الجزّار، لأشتريَ فخذَ دجاجة للحَساء، ثمّ على بائع الحليب، حيثُ ملأتُ دورق الحليب الضخم الذي يتّسع لترَيْن، وفي النهاية على بائع الخبز. ولأن المظروف في الدرج الأوّل من خزانة الأدراج كان فارغاً، كان ينبغي عليّ أن أسحب، قبل أن أخرج، من علبة الرغبات، التي كان من الأفضل أن أدعوَها الآن علبة الأوهام، ولاحظت أن العملات والأوراق النّقْدِيّة المخصّصة للنّثريّات لم تكن كثيرة، كما صوّرتْها لي أحلامي العَبَثِيّة.

في اليوم التالي، نهضتُ مبكِّراً كعادتي لأغسلَ السُّلَّم والمدخل، وعندما خَرَجَتْ أسونتينا لتذهبَ إلى المدرسة، وقد أمسكتْ بيدها بقوّة إحدى طفلات الزقاق الأكبر منها، رتّبتُ المنزل قليلاً، وذَهَبْتُ لأتحقَّق من أن باب حجرة زيتا الأرضية مغلَق بالمفتاح،

وأخرجتُ بعض المُلَاءَات التي التزمت بتطريز حوافِّها، لكنْ، لم يكن هناك عجلة لتسليمها. بينما كنتُ أُدخل الإبرة، وأُخرجها من القماش عاقدة الخيط عند كلّ غُرْزَة بأعلى طرف الفستون، كانت أفكاري تتدافع في غير نظام محدّد. كان يبدو لي أن حياتي قد تغيّرت تماماً في ذلك الأسبوع الأخير. لكنْ، في الحقيقة كانت التغييران الوحيدان الحقيقيان هما تلوُّن بشرتي، الذي سرعان ما سيزول، ووجود أسونتينا. كان من المقرّر ألّا يدوم هذا أيضاً طويلاً، وإن لم أكن قادرة على توقُّع مداه. كلُّ ما عدا ذلك كان ببساطة خيالاتٍ مُحبِطة، أوهاماً، أحلاماً تتلاشى مع بزوغ الفجر.

(□) Viveur: الباحث عن المتع والملذّات.

مكتبة telegram @t_pdf

منذُ ماتت جَدّتي عشتُ دوماً بمفردي. لكنْ، لم يكن هذا يضايقني. عندما كنتُ أُغلق الباب بالمفتاح ليلاً، وأخلع حذائي، كنتُ أشعر بأنني حُرّة، مالكة أمر نفسي. لم أفكِّر، ولا حتّى في اللحظات التي كان يبدو فيها أن مواردي تنفد تماماً، ولا يلوح في الأفق أيٌ تكليف بالعمل، في تأجير إحدى الغرفَتَيْن الصّغيرَتَيْن، وجَلْب ضيف مدفوع الأجر. كما أنني لم أكن واثقة من أن مالكة المنزل ستوافقني في هذا. وعلى النقيض، لم يردْ بذهني أن أسألها إذناً لأجل استضافة أسونتينا. ربّما لأنها كانت صغيرة جدّاً، أو ربّما لأنه بدا لي أنه لا يوجد بديل. كانت السّيّدة العجوز تعرف كلاً من زيتا وابنتها. كانت تعرف أنهما شخصان صالحان، مهذّبان ونظيفان، بالرغم من أنهما يقطنان مسكناً أرضياً، كانت هي نفسها مالكته، وطالما دفعت لها زيتا الإيجار بانتظام. أثنت أكثر من مرّة على الجهود التي تبذلها الكاوية للحفاظ عليه مرتّباً، بالرغم من أنه كان ينبغي عليها الذهاب لإحضار المياه من الصُّنْبُوْر العمومي في

الميدان القريب. شهدت ميلاد أسونتينا. والآن، كنتُ أظنٌ أن قلبها لن يحملَها على أن تطلب مِنّي طَرْدها، وتَرْكها في الشارع.

كان حضور ابنة زيتا يمثِّل لي تغييراً حقيقياً، أشعر بثِقَلِهِ، وبالانزعاج منه في بعض الأحيان. لم أكن معتادة بعد على ألّا أظلّ بمفردي ولا للحظة واحدة، كما أنني لم أكن أعرف كيف أعتني بطفل، حتّى وإن كانت أسونتينا، بفعل عُمُرها، مستقلّة تماماً، وتحاول ألّا تخلق مشاكل لي. لطالما راق لها منزلي، خاصّة تلك الحجرة التي كانت جَدّتي تدعوها "غرفة الجلوس"، حيثُ كانت تستقبل زبوناتها. كانت أسونتينا منبهرة بالأريكَتَيْن الصّغيرَتَيْن المَكسوّتَيْن بقماش الشينتز، بالمرآة الطويلة والمستطيلة التي يمكن إمالتها، وبماكينة الخِيَاطَة على وجه الخصوص. كان مكوثها لديّ، مقارنة بالقبو الخالي من النوافذ والجدران الفاصلة، حيثُ عاشت دائماً، أشبه بانتقالها إلى بلاط مَلَكِيٍّ. كانت تتسلّى بفَتْح وغَلْق الزجاج والمصاريع، وإغلاق باب المطبخ لعَزْل الرائحة عندما كنّا نطهو القرنبيط، واستخدام دورة المياه في كشك الفناء مرّة تلو الأخرى، مُلقِيةً فيها دِلاء من الماء الذي لا ينبغي عليها أن تذهب

لتُحضرَهُ من الصُّنْبُوْر العمومي. فيما يخصُ الماء، كان يتوفَّر لشُقَّتي الصغيرة ماسورة، في الفناء أيضاً، تعلو حوضاً من حصى الرخام، سطحه مائل، منحوتاً في قنوات أفقية، حيثُ كنتُ أغسل المفروشات. كان هذا أيضاً بالنسبة إلى أسونتينا شيئاً يثير إعجابها كثيراً، وكانت تطلب منِّي باستمرار مناديل، تغسلها، وتفركُها بحيوية مفرِطة كافية لتمزيقها.

مرّت بضعة أيّام. بينما الطفلة في المدرسة، كنتُ أمكث أنا في المنزل لأخيطَ ولأُعيد تأمُّل ما حَدَثَ على متن القطار. كنتُ لا أزال غاضبة من جويدو، حتّى وإن كان تذكُّر نظرته ونبرة صوته يُذيبني من الحنان.

كنتُ أوشك على الانتهاء من تطريز آخر مُلَاءَة بالفستون، عندما طُرق الباب، نحو الواحدة والنصف. تعرّفتُ ببعض الانزعاج على رينونشيا، "الخادمة الشّابّة" لآل ديلسوربو. تجمّدتُ متأهِّبة لرَفْض أيِّ رسالة. وكانت الرسالة حاضرة، لكنها من طَرَف دونّا ليتشينا.

"دون أوربانو يحتضر"، أبلغتْني رينونشيا. فهمتُ من النبرة التي تحدّثتْ بها أنها تجهل وجود أيِّ علاقة لي مع جويدو، وأنني أعرف بالفعل بمَرَض سيِّدها. "كويريكا لا تبتعد عن فراشه للحظة، إنها يائسة". "خادمة طيِّبة ومخلصة" فكَّرتُ تلقائياً متذكِّرة التعاليم المقدّسة. لكنْ، لماذا كانت رينونشيا تُحدِّثني عن ألم كويريكا؟ ما أهمِّيّة تلك التفصيلة؟

"لا بدّ أن دونّا ليتشينا يائسة"، ردّدت. "سيِّئ جدّاً أن تفقد ابناً، خاصّة في عامكِ المئة تقريباً".

"تريد دونّا ليتشينا منكِ أن تأتيَ لخِيَاطَة الشريط الحريري على البساط الجنائزي. تمزّقت الحافَّة منذُ وقت وفاة دونّا فيتوريا. سينبغي عليهم غداً، إن لم يكن هذه الليلة، عرض الجثمان، ويجب أن يكون كلُّ شيء جاهزاً".

كانت تنتظر واقفة، ويَدَيْها أسفل المِئْزِر، أن أدعَ ما أخيطه، وأتهيّأ لمرافقتها. لم يكن لديها أدنى شكٍّ أنني يمكن أن أرفض. فلطالما

ذَهَبْتُ كلَّما استدعوني. وهذه المرّة كانت الحاجة المُلحّة حقيقية.

كيف كان بإمكاني أن أُخبرَها أنني لا أريد الذهاب إلى هناك دون أن أشرح ما حَدَثَ بيني وبين جويدو؟

"استضفتُ طفلةً في منزلي"، قلت. "يجب أن أنتظر عودتها من المدرسة. لا يمكنني التّحرُّك".

"لن تكون دونّا ليتشينا سعيدة إذا تَركتِها تنتظر"، علّقتْ رينونشيا متبرِّمة ومندهشة من عدم تنفيذ أمر سيّدتها في الحال. كنتُ أنا في تلك الأثناء أفكِّر بمشقَّة في عُذر آخر أدفع به، كي لا أذهب. سأتّخذ لي، برَفْضي غير المبرّر، عدوّة نافذة للغاية. ستشيع دونّا ليتشينا أنني غير موثوق بي، وأنني مزاجية، ولا يمكن الاعتماد عليّ. ستجعلني أفقد زبائني، ويعلم الله مدى حاجتي للعمل الآن، وأنا أتولّى أمر أسونتينا.

"هَيّا، تحرّكي"، حثّتْني رينونشيا بغلاظة، " ربيبتكِ في طريقها للعودة، أَلَا تسمعينها؟" وفي الحقيقة كانت تتردّد في الزُقاق أصوات الصِّبْيَة الذين يغزون الرصيف جماعة، وبعضهم يصيح بصوت مرتفع: "ماما، أنا جوعان!"

اجتازت أسونتينا عتبة الغرفة بالوشاح الأحمر ملفوفاً حول رأسها، والمعطف الأنيق مزرّراً حتّى عنقها. اتّبعتُ حَرْفِيّاً توصيات الطبيب، وفي الواقع كان المعطف يكسوها أكثر من الشال. وضعتْ على المقعد كتاب القراءة والكرّاسة، وألقت نظرة متسائلة على رينونشيا.

"يجب أن أخرجَ لأجل عمل ما"، جمعتُ أمري، وأخبرتُها، "يوجد بعض الخبز والجبن في خزانة المؤن. هل تستطيعين تدفئة كأس من الحليب لنفسكِ؟ امكثي في المنزل حتّى أعود". واحتياطاً ألبستُها حول رقبتها الخيط الذي أحتفظُ فيه بنسخة المفتاح. "لا تفتحي لأحد، ولا تلمسي ماكينة الخِيَاطَة".

جَذَبْتُ خلفي باب المنزل، وتبعتُ رينونشيا. كنتُ أفكِّر طَوَالَ الطريق إلى شارع تشيزارى باتيستي كيف ينبغي عليّ التّصرُّف إذا رأيتُ جويدو. قرّرتُ أنني سأتظاهر بعدم معرفته. بالتأكيد لن يجرؤ هو على الحديث معي أمام الجَدّة. لم أعد يائسة، استعدتُ شجاعتي. كنتُ، في الأغلب، مستاءة، غاضبة تقريباً. انظروا في أيِّ موقف كان عليه أن يضعني ذلك السَّيِّد الشّابُّ الكاذب، دون نبيل بلا قيمة.

كما المعتاد، أَدْخَلتْني رينونشيا من باب الخَدَم، وقادتْني مباشرة إلى المطبخ. هنا وجدْنا كويريكا تبكي وهي تفرك بين يَدَيْهَا البساط الدِّمشقيّ الأحمر الداكن الكبير الذي كان ينبغي عليّ خِيَاطَة حافَّته. "لقد أخرجتْني"، كانت تقول منتحبة، "قالت لي دونّا ليتشينا إنه يجب عليّ الانصراف، وإنه في اللحظات الأخيرة ينبغي أن تبقى العائلة فقط إلى جوار دون أوربانو". لم يبدُ لي تفكيراً يفتقد إلى المنطقية تماماً، قلتُ لها محاوِلة مواساتها. "لكنْ، يوجد أبناء العمومة من ف."، أصرّت كويريكا، "وَصَلُوا مساء أمس، كالنسور. وهم لم يرهم أحد منذُ عشرة أعوام. لطالما لم يأبهوا له،

لدون أوربانو. لكنها تركت أولئك يمكثون. كما يوجد الطبيب إلى جوار فراشه. والكاهن. أنا فقط، أكان يجب أن تطردَني أنا فقط ككلب أجرب؟"

"توقَّفي، سيسمعونكِ هناك"، قالت لها رينونشيا بحدّة. لكن الباب الذي يفصل منطقة السادة عن تلك الخاصّة بالخَدَم كان مغلَقاً، ولا يدع أيّ صوت يمرُّ. بدأ الأمل يراودني في أنه ربّما أنجح في إنهاء العمل والانصراف دون أن ألتقيَ أيّاً من أرباب المنزل. بقليل من الحظِّ، لن يعرف جويدو أبداً بمجيئي. على أيّة حال، إذا مكثتُ في المطبخ لن أغامر بلقائه، كما يمكن أن يحدث إذا ذَهَبْتُ للعمل وحدي في غرفة الخِيَاطَة. كان وجود الخادمَتَيْن يُطمئِنُني.

انتزعتُ من يَدَي كويريكا قطعة القماش المستطيلة الكبيرة الثمينة، وتفحّصتُ حافَّتها، التي انفصل عنها الشريط الحريري في مواضع كثيرة، وبَلِيَ في مواضع أخرى. لم يكن من الممكن إصلاحه، كان لا بدّ من استبداله. كانت المرأتان قد انتبهتا لذلك،

لأنهما اشتريتا شريطاً جديداً، كما كانت توجد أيضاً بَكَرَةَ خيط من اللون المناسب، ووسادة الإبر الصغيرة. جلستُ مُولِيةً ظَهْري للباب، وبدأتُ في فَصْل التّوْشِيَة القديمة بحَذَر، منتبهةً لعدم إتلاف الحرير الدِّمشقيِّ الذي كان قديماً للغاية هو الآخر. لم يكن عملاً صعباً، لكنه كان طويلاً، ويستلزم تركيزاً عالياً. كان لا بدّ من خِيَاطَة الشريط يدوياً بغُرَز صغيرة، لا تُرى بالعين. في تلك الحالات، لم تكن ماكينة الخِيَاطَة بذات فائدة. كنتُ أعرف، لأنني رأيتُ جثامين معروضة في عائلات أخرى مُهِمّة، أن فراش دون أوربانو سيُنقَل إلى الصالون، وسيُغطَّى بذلك البساط. وسيُسجّى عليه الجثمان، بعد أن يُغسَل ويُلبّس بأفضل الثياب، على مَرأى ممَّن سيذهب لإلقاء التّحيّة الأخيرة عليه.

كنتُ أخيط، والوقت يمرُّ. نامت كويريكا، وقد أنهكَها البكاء الغزير، ورأسها يستند إلى الطاولة. كانت رينونشيا تُسبّح بصوت خفيض. كان عقربا الساعة المعلّقة إلى جوار الباب يتحرّكان ببطء شديد. بين الحين والآخر كان فكري يتّجه إلى أسونتينا، وأنا آمل أنها لم تخرج لتلعب في الطريق، وأنها بعد أن انتهت من واجباتها،

انشغلت في بعض الألعاب الهادئة، أو ربّما في تصفُّح المجلّات القديمة المصوّرة التي أحتفظ بها في الدرج.

انتهيتُ، قطعتُ الخيط بعد أن عقدتُهُ، وأخفيتُ أطرافه جيّداً، ووضعتُ الإبرة جانباً، وطويتُ البساط على ظَهْر أحد المقاعد، وكانت رينونشيا تُسخِّن المكواة، لتمرّ بها عليه مجدّداً، عندما طُرِقَ الباب بخفَّة. ارتعدتُ خشية أن يكون جويدو، ولأنني كنتُ بالقرب من باب خزانة المؤن، تسلَّلتُ داخلها.

لكنه كان الطبيب ريتشي. "لقد انتهى كلُّ شيء"، أعلن. "يمكنكما الذهاب إلى غرفة النوم، لتُجهِّزا الجثمان". رفعت كويريكا رأسها عن الطاولة، ووضعت يداً على فمها لتخنق صرخة. قالت رينونشيا: "السلام عليكم، يا مريم".

بمجرّد أن خَرَجَ الطبيب، وضعت رينونشيا وعاء كبيراً مملوءاً بالماء على الموقد، ليسخنَ، حتّى وإن كان الاغتسال بماء بارد لن يزعج آنذاك دون أوربانو. أعادت كويريكا هَنْدَمَةَ ثيابها وشَعْرها،

وجفّفتْ عينَيْها، وذَهَبَتْ إلى الحمّام، لتُحضِر ماكينة الحلاقة والمعجون والفرشاة. "يجب أن تكون الوجنتان ناعمَتَيْن كالحرير"، قالت. كانت فكرة استطاعتها أن تكون ذات فائدة لسيّدها للمرّة الأخيرة قد هدّأت من روعها قليلاً. تدثّرتُ أنا في الشال. "وإذنْ سأنصرف"، حيّيْتُهُما.

"أَلَا تريدين الدخول لرؤيته؟" سألت رينونشيا. "لو انتظرتِ قليلاً، ربّما يمكنكِ مساعدتنا في إلباسه ثيابه".

"لا، يصيبني الموتى بالغثيان. ثمّ إن لديّ طفلة في المنزل، أتذكرين؟ أَبلِغا دونّا ليتشينا تعازيّ".

"انتظري لحظة، إذنْ". لم نكن قد تحدّثنا عن الأجر، وكنتُ سأنصرف دون أن أطلب شيئاً في غمار تعجُلي. لكنْ، كانت كويريكا قد فكَّرت في الأمر منذُ الصباح. وكالمعتاد، طَوَت الورقة النّقْدِيّة في شكل أسطواني، ووضعت داخلها العملات المعدنية، ولفَّت حولهم ما تبقَّى من الشريط الحريري الجديد، وكلّ قِطَع

الشريط القديم الذي حَلَلْتُهُ. "إذا مررتِ صباح غد، يمكنكِ توديعه، وسيكونون قد قرّروا تاريخ وساعة الجنازة". كانت متيقِّنة من أنني سأرغب في الخروج فيها.

شكرتُها، وتسلَّلتُ بخفَّة في الرواق متّجهة صوب باب الخَدَم، في راحة كبيرة، لأنني نجحتُ في تجنُّب اللقاء الذي كنتُ أخشاه كثيراً. لكن الوقت كان مبكِّراً على الاحتفال. كان الرواق طويلاً، يأتي ضوؤه الواهي من نافذة صغيرة، تطلُّ على السُلَّم، كما كان ممتلئاً بالتجاويف، حيثُ كانت توجد ذات يوم خزائن في الجدار. كنتُ أسير متعجِّلة حتّى إنني لم أنتبه للظِّلِّ شبه المختفي في أحد التجاويف، وعندما تحرّك للخروج منه، ارتطمتُ به.

"أعتذر"، قلتُ آليّاً متراجعةً للوراء، وتعرّفتُهُ على الفور.

"ماذا تفعلين هنا، يا آنسة؟" سألَني جويدو مذهولاً. كان وجهه قد فَقَدَ ملامحه من البكاء، وعيناه حمراوان من السهر الطويل. علمتُ فيما بعد أنه قضى ليلتَيْن دون أن يمسّ جسُدُه الفراشَ. جالساً إلى

جوار الخال، ممسِكاً بيده حتّى النَّفَس الأخير، وهو يكابد لكَبْح دموعه. عندما قضى دون أوربانو نحبَهُ، خَرَجَ من الغرفة، كان يحتاج لأن يبقى بمفرده، ألّا يتحدّث إليه أحد، كان يحتاج ليُفرِّج عن نفسه، يحتاج للبكاء. ذَهَبَ ليلتجئ إلى رواق الخَدَم ظنّاً منه أنه لن يجد أحداً فيه.

"ماذا تفعلين حضرتكِ هنا؟" كرّر متشكِّكاً. لم أشرح له.

"أنا آسفة لأجل خال حضرتكَ"، قلتُ على النقيض.

حاول أن يجفِّف دموعه. "كان رجلاً طيّباً. سأفتقده كثيراً. في البداية والدي، ثمّ ..." تهدّج صوته من النحيب.

لا أعرف كيف حَدَثَ. كان كلٌ منّا في مواجهة الآخر، متقاربَيْن، بين النور والظلمة. أنا أُمسك بإحدى يَدَي طَرَفَي الشال مجتمعَيْن عن صدري، وبالأخرى أشدُّ على لِفَافَةِ أجرَي. لم أكن أعلم ماذا أقول، ولم يطلب هو مِنِّي شيئاً، بل كان ينظر إليّ فقط. كان ألمه

يبدو لي صادقاً، عاجزاً، كألم طفل. مددتُ تلقائياً، والشفقة تملؤني، يداً لأتحسّس وجنته، فَتَحَ هو ذراعَيْه. وجدتُ نفسي مضمومةً إلى صدره، ووجهي في تجويف عنقه المبلّل بالدموع. لم أتراجع. بل تركتُ الشّال يقع، وضممتُهُ بقوّة بدوري. "لا تبكِ، من فضلكَ، لا تبكِ". قَبّل هو رأسي من جانبه، على إحدى صدغَي. رفعتُ وجهي.

في تلك اللحظة، فُتِحَ الباب الذي يفصل بين منطقَتَي المنزل، وظَهَرَت دونّا ليتشينا على العتبة. كان جويدو يُولِيها ظَهْره، لكنني رأيتُها جيّداً، ورأتْني هي أيضاً، رأتْنا. لم تفه بكلمة، تراجعتْ، لكنها أغلقت الباب بقوّة. انتفض جويدو، أطلق سراحي.

"اعذريني"، قال، "لم أكن أريد".

التقطتُ الشال، وأنا أخجل من النظر إليه مباشرة. "سأنصرف"، همهمتُ بصوت واهٍ للغاية، بدا وكأنه لا يخصُّني، وتوجّهتُ نحو الباب. تبعني هو.

"بعد الجنازة"، قال، "يجب أن أمكث في ل. لبضعة أيّام. أريد أن أراكِ. سأنتظر حضرتكِ في المكتبة كلّ صباح".

خَرَجْتُ، ونَزَلْتُ السُّلَّمَ عَدْوَاً. بالخارج كانت الدنيا ظلاماً، لكن منزلي لم يكن بعيداً، وقطعتُ الطريق بخُطى سريعة دون أن أنتبه لذلك تقريباً. بداخلي كانت تتصارع أكثر المشاعر اختلافاً، شفقة وعطفاً على ألم جويدو، كشعور بالمعاناة، وابتهاج غريب، وفرح مجهول وأمل مرتبك أيضاً. إضافة إلى الريبة، والخشية، والشكوك وخوف بارد من تلك الهيئة السوداء الواقفة عند العتبة.

هل تعرّفتْ عليّ؟ ماذا ظنّتْ بي؟ كنتُ منفعلة للغاية حتّى إنني لم أتذكَّر أسونتينا التي كانت في منزلي، ويجب أن تتناول العشاء، ربّما شيئاً ساخناً، والتي ربّما ارتكبت في غيابي مصائب.

دخلتُ متعبة. وعندما صرتُ داخلاً، وخلعتُ الشال، انتبهتُ إلى أنني لم أعد أمسك في يدي بلِفَافَة المال المربوطة بالشريط الحريري. بالتأكيد أوقعتُها في رواق منزل ديلسوربو. شعرتُ

بالضيق، ثمّ خجلتُ على الفور من شعوري بالأسى بسبب تفصيلة تافهة كهذه. لم يكن مبلغاً كبيراً. لكنْ، كان لكلِّ قرش أهمِّيّته الآن، خاصّة في وجود أسونتينا، وعلبة الحليب في سبيلها لأن تفرغ.

أدركتِ الطفلة أن شيئاً ما غير مألوف قد حَدَثَ، وجّهت لي نظرة متفحِّصة، لكنها لم تسألني عن شيء. كانت قد جهّزت المائدة، وقسمت الخبز، وقشّرت البطاطس، وقطّعتْها مع الكرفس والجَزَر لأجل الحَساء. " لم أتمكّن من إشعال النار"، اعترفتْ، " هذه الشعلات تختلف عن تلك التي تخصُّ أُمِّي".

"سأُعلِّمكِ الآن". قد تأتي مرّات أخرى أضطرُّ فيها لتركها وحدها. إذا استدعوني للخِيَاطَة في أحد المنازل لن أتمكَّن من اصطحابها معي. أضفتُ بعض الهِنْدِبَاءِ والعَدَس الذي كنتُ قد نقعتُهُ إلى مكوِّنات الحَساء، وصنعتُ منها طنجرة كبيرة، ممتلئة، ستكفي لثلاثة أيّام على الأقلّ. أخرجتُ من خزانة المؤن بيضَتَيْن، وقليتُهما مع قليل من البصل.

عندما جلسْنا إلى الطاولة بذلتُ جهداً للحديث مع أسونتينا، سألتُها عمّا تعلَّمتْهُ في المدرسة صباحاً، وإذا ما كانت قد أدّت واجباتها. كانت تجيب بكلمات مقتضبة، كما لو أنها مُتعَبَة للغاية. يا لاختلافها عن المتشرِّدة المنفلتة في الإجازة على البحر، كنتُ أفكِّر. فقدت تلك الأساليب الوقحة، ذلك الأمان، وتلك الحيوية. بالتأكيد فكَّرت طَوَالَ اليوم في والدتها، وتساءلت حول مستقبلها. لكنها لم تكن توجِّه أسئلة، أو تطلب تفسيرات." يا للطفلة المسكينة!"، لم يكن بوسعي إلَّا أن أفكِّر،" مَن يدري ماذا ينتظرها؟" على الأقلِّ تبقَّت لي أنا جَدّتي.

رغم أنه كان يؤسفني إضاعة أجر نصف يوم من العمل، إلَّا أنني حاذرتُ في اليوم التالي من العودة إلى منزل ديلسوربو. لم أكن أريد رؤية المتوفَّى، ولا الإنصات لثرثرة الزائرين، لم أكن أريد إحراج جويدو، ولا مواجهة نظرات جَدّته. لم أردْ حتّى معرفة يوم وساعة الجنازة. سيكون بها حشد كبير للغاية، من الأصدقاء، والأقارب، كنتُ أعرف هذا، أناس من كلِّ الطبقات، حتّى أكثرها تواضعاً، بدافع الفضول، ليس إلَّا، لرؤية دونّا ليتشينا التي لم تخرج

من المنزل منذُ وفاة الابنة. لكنْ، أنا لم يكن لديّ أيُ نِيّة للذهاب إليها.

في الأيّام التالية، مكثتُ في المنزل للخِيَاطَة. كان يجب أن أنتهيَ من تطريز المُلَاءَات بغُرْزَة الفستون، ومن إطالة أربعة مآزر منزلية، تخصٌ إنريكا. كانت عملية بسيطة للغاية، لأنه كان يكفي فَكُّ خِيَاطَة واحدة أو اثنَتَيْن من تلك الطَّيّات الأفقية الصغيرة التي توجد على الحافَّة، والتي صُنِعَت بالأساس للتزيين، ولتلك الضرورة على وجه الخصوص. كانت الآنسة استر، رغم ثرائها، تُطبِّق قواعد الحكمة والتوفير العامّة. كانت مآزر ابنتها تُستخدَم طالما كان هذا ممكناً، حتّى يُستهلَك القماش تماماً، أو يتمزّق عند أطراف الجيوب، أو حتّى تضيق، لدرجة أنه لا يعود بالإمكان عقد أزرارها عند الظَّهْر.

كانت الخِيَاطَة في المنزل تُتيح لي أن أُعنى بأسونتينا بشكل أفضل، أن أعدّ لها وجبات ساخنة، وأتابعها في الواجبات. كنتُ قلقة على صحّتها، ألمس كلّ يوم جبهتها، لأتحقَّق من حرارتها،

وأستيقظ ليلاً، لأُنصتَ لتنفُّسها. لكنْ، من هذه الناحية كانت ضيفتي الصغيرة في حال جيّدة، حتّى إن الكُحّة قد تلاشت، كما لو أن ثلاثة أيّام على البحر والحمّام البارد الذي أفزعَني كثيراً كانت علاجاً سِحْرِيّاً. كان ما يشغلني هو سلوكها الذي تغيّر تماماً، صارت الآن طفلة عاقلة، مطيعة وصامتة، صامتة أكثر ممَّا ينبغي.

تحدّثتُ عن هذا مع الآنسة استر عندما ذَهَبْتُ لأحمل لها المآزر التي أُطيلَت، وطَلَبَتْ هي منِّي المكوث لتناول القهوة والثرثرة قليلاً. لم أكن قد أخبرتُها شيئاً عن جويدو، لكنها حَدَسَتْ أن بمزاجي شيئاً مختلفاً. كانت رقيقة ومراعية للمشاعر بما يمنعها من سؤالي بشكل مباشر، كانت تنتظر أن أتحدّث أنا، ولم تكن لديّ الشجاعة. كانت بعيدة للغاية عن الارتياب في هُوِيّة موضع تفكيري، حتّى إنها، بعد أن شاركتْني قلقي على أسونتينا، وكَتَبَتْ بطاقة لإحدى رئيسات الممرِّضات في المستشفى، إحدى معارفها التي يمكنني أن أطلب منها أن تتابع باهتمام أكبر زيتا المسكينة، بدأت تحكّي لي، كواقعة مثيرة للفضول، عن جنازة ديلسوربو وردة فعل دونّا ليتشينا عند قراءة الوصية. حَضَرَ الجنازة، كما كنتُ

أفترض، كلُّ المواطنين، كان الموكب طويلاً للغاية، والكاتدرائية ممتلئة عن آخرها. احتشد أرستقراطيو المدينة في الصفوف الأولى، ثمَّ، شيئاً فشيئاً باتِّجاه الباب، ضبّاط الوحدة العسكرية، رجال الصناعة، البرجوازيون النافذون، كبار موظَّفي المملكة، صغار الموظَّفين، أصحاب المحالِّ، الخَدَم وأناس بسطاء يعملون بأجر يومي. كان الهمس يدور - أخبرتْني الآنسة استر بهذا وفي عينَيْها بريق استمتاع - أنه من بين الحشد الواقف بالقرب من الباب كانت توجد بعض نزيلات أفضل منزل متعة في مدينتنا، برفقة قوّادتهنّ التي سَمَحَتْ لهنّ بالخروج في هذه المناسبة. كان دون أوربانو حتّى الرَّمَق الأخير أحد أكثر زبائنهنّ وَلَعَاً.

"سيجد سبيلاً للاستمتاع بوقته حتّى في الجنّة"، علّقت استر ضاحكة، وإن كانت عادات المتوفّى تخالف مبادئها. "إلّا إن ذَهَبَ إلى الجحيم. ليس لحياته التي قضاها كباحث عن الملذّات، بل لتلك المكيدة التي نَصَبَها لوالدته. يبدو أن دونّا ليتشينا كانت شديدة الغضب، وأنها طَرَدَت كويريكا في الحال".

"وما شأن كويريكا؟"

"لم يترك دون أوربانو في وصيته كلّ شيء للوالدة وابن الشقيقة كما كان متوقَّعاً. ترك جزءاً معتبراً من ثروته الشّخصيّة لتلك التي يدعونها في المنزلُ الخادمة العجوز".

كان يحدث، وإن كان نادراً، أن يترك السادة بعض الوصايا التي تتراوح في مقدار كرمها للخدم. لكنْ، جزء معتبر من الثروة!

"ولم يترك شيئاً لرينونشيا؟"

"لا شيء. وهذا ما يثير الفضول. حتّى وإن كان صحيحاً أن كويريكا تعمل في منزل ديلسوربو منذُ نصف قرن، وأنهم أتوا برينونشيا بعد ذلك بمدّة طويلة، بعد الكوليرا. من جانب آخر، لن ينبغي على الفضوليّيْن الانتظار طويلاً لاكتشاف تفاصيل أخرى. سيُعلن الموثِّق وصية دون أوربانو على الملأ قبل نهاية الشهر".

فيما يخصُّ مزاج أسونتينا المكتئب، أبدت الآنسة استر قلقها عليَّ بالأخصِّ. "لقد حملتِ مسؤولية ثقيلة على كتفَيْكِ أكثر ممَّا ينبغي"، قالت لي. "كلُّ يوم يمرُّ سيكون أسوأ. هل أنتِ واثقة من أن الطفلة ليس لها قريب يُعنى بها؟"

"لم تتحدّث زيتا عن هذا قطُّ. إذا كان لديها أحد، كانت ستطلب مساعدته منذُ مدّة. مرّت أوقات خاطرا فيها بالموت جوعاً حقًّاً. لا، بعد أن قُتل زوجها ظلّتا وحيدَتَيْن".

"والطفلة تعرف هذا. هي تأمل أن تعود الأُمُّ، لكنها كبيرة بما يكفي لتفهمَ أنه عليها توقُّع الأسوأ. يا للطفلة المسكينة! لكنْ، يجب ألَّا تشعري بأنكِ مضطرّة لتحمُّل عبئها. أنتِ شابّة للغاية، ووحيدة، تعيشين من كَدِّكِ". توقَّفتْ، وتفرّستْ في وجهي، كما لو أنها تُقيِّم قدرتي على مواجهة الموقف. ثمّ أضافت: "لا تقلقي. عندما تحين اللحظة سأعاونكِ في إيجاد رعاية مقبولة لربيبتكِ. بل، إذا بدا لكِ أنكِ لا تقوين على هذا، يمكننا البدء في البحث عن شيء ما منذُ الآن".

"أشكر حضرتكِ، لكنني أُفضِّل الانتظار. إلى أن زيتا ... قد تُشفَى وتعود لتستردّها، ألّا تظنّي هذا؟"

"لا، لا أظنُّ. سأكون سعيدة بهذا، لكنني لا أؤمن بالمعجزات. لننتظر على أيّة حال، كما تريدين أنتِ. هل ستتحمّلين؟ هل تحتاجين شيئاً؟ لا، ليس منحة، لا أجرؤ، بل قرض صغير، دفعة مقدّمة لعمل مستقبلي".

"في الوقت الحالي، لا أواجه صعوبات. لديّ مدّخراتي".

وهكذا دُفن دون أوربانو في مقبرة الأسرة، وفُتحت الوصية، ومرّت أيّام زيارات المواساة. من المحتمل أن جويدو قد بدأ في الذهاب كلّ صباح إلى المكتبة. من المحتمل أنه ينتظرني.

بعد تردُّد طويل، قرّرتُ الذهاب للبحث عنه. بعد أن خَرَجَتْ أسونتينا للمدرسة ارتديتُ ثيابي بعناية، صفَّفتُ شَعْري، لم أضع الشال الثقيل من الصوف الداكن، المناسب لعجوز، لكنني اخترتُ

آخر أكثر رقَّة، به نقشٌ من الزهور على طول حافَّته وخيوط حريرية مدلَّاة، أتَتْني به الآنسة استر من روما. وضعتُ أيضاً قرط المرجان المتدلِّي الذي كان يخصُّ جَدّتي. انتعلتُ أفضل حذاء. قطفتُ بُرعُماً من اللَّقْلَقِيّ الأحمر الذي أحتفظ به على حافَّة النافذة، ومرّرتُهُ على شَفَتَيّ، لأُضفي عليهما قليلاً من اللون. كنتُ قد قرأتُ هذه الحيلة في إحدى الروايات.

خَرَجْتُ متعجِّلة، ووَصَلْتُ ميدان البلدية. ذَهَبْتُ إلى مكتبة البلدية بضع مرّات، لأستعيرَ كتاباً أو لأعيدَهُ، لكنني لم أصعد قطُّ إلى قاعة المطالعة. توقَّفتُ إلى جوار إحدى مصاطب الميدان الخشبية، خلف شجرة، لأُلاحظ الناس التي تدخل وتخرج. كان هناك أشخاص كثيرون، شباب كثيرون، ليسوا جميعاً طلَّاباً ينتمون لأُسرٍ ميسورة، أو ضبّاطاً صغاراً، بل موظَّفين، وبعض بائعي المحالِّ أيضاً، وكلُّهم يرتدون ثياباً لائقة. لا أثر لحِرَفِيٍّ واحد، أو لعامل. ولماذا التّعجُّب؟! يذهب إلى المكتبة فقط مَنْ يستطيع القراءة. كنتُ أنا استثناء بين أفراد طبقَتِي. كانت النساء، التي أراها تدخل، قليلة، تنتمي إلى شريحة عُمُريّة معيّنة، وترتدي الثياب

المتزمِّتة والرِّجاليّة قليلاً الخاصّة بالبرجوازيات اللّاتي يعملنَ خارج المنزل، معلِّمات، وموظَّفات في الإدارة العامّة والبريد والتليفونات. لا توجد مَن ترتدي كفتاة شعبية مثلي. ولا حتّى خادمة أرسلتْها سيّدتها لتُعيد رواية. بدأتُ في الشعور بالإحراج. ما الذي جال بخاطر جويدو ليضربَ لي موعداً هنا، حيثُ سألفت الأنظار أكثر من أيِّ مكان آخر.

ثمّ رأيتُهما تصلان. آنستان في نحو الثامنة عشرة، يرافقهما شابٌ يبدو كشقيق لهما، أو قريب حميم، يعاملهما بأُلفة كبيرة. آنستان ثريتان وأنيقتان، صُفِّف شَعْراهما على أحدث طراز، باللِّفَافَة المبطَّنة لرَفْع الشَّعْر كلِّه حول وجهَيْهما، ترتديان ثوب تنزُّه حديثاً للغاية مع سترة، دون بطانة خلفية أو ذيل، صُنع بالتأكيد خصِّيصاً لهما في لا سوبريما إيجانزا أو بيلى دامى، وكلٌ منهما تحمل مظلّة شمس من الجوبير الفاتح. امرأتان شابّتان توقَّفتا بالتأكيد عن ارتداء المِشَدِّ. كان مرافقهما يشبه جويدو، في ثيابه، في إيماءاته وفي طريقة حديثه، وكان يخاطبهما باهتمام كبير واحترام.

شعرتُ بغُصّة تسدُ حلقي. حَسَد؟ إدراك بمدى اختلافنا؟ بالهُوّة التي تفصلنا؟ كيف يمكنني مباراة ابنَتَي السادة تلكما؟ كيف يمكنني تقديم نَفْسي بصحبة جويدو إلى والدتَيْهما، وأسرَتَيْهما؟ كيف يمكنني التفكير بأنني سأُقبل بينهما، أنا التي أتحدّر من عالم آخر، التي وُلدت وأعيش بين الفقراء وأنتمي إليهم، التي ينبغي عليّ كسب قُوْتي يوماً بيوم، التي إن ذَهَبْتُ إلى منزلَيْهما يجب عليّ أن أدخل من باب الخَدَم، التي يمكنها أن تدخل إلى قاعاتَي الاستقبال لديهما فقط وشريط القياس في يدها، أو في زِيِّ خادمة ومعها إناء الحلوى؟ إذا ذَهَبْتُ برفقة شابٍّ من طبقتهما، ستنظران إليّ بدهشة، باحتقار، وستطردانني. لم يكن كبريائي يسمح بهذا. درتُ على عقبَيّ، وانصرفتُ، وأنا أمتلئ بالخجل من القِرْط والشّفَتَيْن الحمراوَيْن وشال الحرير وأحلامي العَبَثِيّة.

لم أكن أعرف أن جويدو أبصرني من نافذة الطابق الأوّل، وأنه في طريقه للنزول لملاقاتي. كنتُ أسير حثيثاً، وبصري تغشيه الدموع، حتّى إنني لم أنتبه إلى أن هناك مَنْ يتبعني. لحق بي وقد انعطفتُ صوب الطريق بالفعل، تجاوزَني، وَقَفَ أمامي باسطاً

ذراعَيْه، كما يفعل شرطيُو المدينة الذين يُوقِفون المرور، ليجعلوا عربة تجرُها الثيران تمرُ. " لماذا تفرِّين؟" سألني. " كنتُ أنتظر حضرتكِ منذُ يومَيْن".

"لتدعني حضرتكَ أمرُ. أَلَا ترى أن الناس تنظر إلينا؟"

في الواقع، كان الطريق في تلك الساعة يكتظُّ بالناس، لم تكن تمطر، وكانت المقاهي قد صفَّت طاولاتها على الأرصفة. كان باب الحلَّاق مفتوحاً، وكان الزبائن، المنتظرون لدَوْرهم، يراقبون المارّة بخمول. كانت الخادمات في طريق عودتهنّ من السوق مع سِلالهنّ، ومربِّيات الأطفال يدفعنَ العربات الصغيرة نحو الحدائق العامّة، والسّيِّدات يسرنَ بتُؤدة، وهنّ يتأبّطنَ أذرع بعضهنّ، وينظرنَ إلى الواجهات الزُجاجيّة، وبائعات الزهور والهليون، الجالسات القُرْفُصَاء إلى جوار سِلالهنّ، يعرضنَ بضاعتهنّ باحثات بأعينهنّ عن زبائن محتملة. لم يكن الجمهور ذاته الذي كان يشهد عند الفجر في وقت مضى عودة تومازينا المظفَّرة مع علب متاجر برينتمبس الكبيرة، لكنْ، كان يوجد ما يكفي من الفضوليّيْن الذين

يراقبون باهتمام لقاءَنا، والذين سيتحدّثون عنه بالتأكيد في كلِّ صوب.

"لينظروا إلينا، إذنْ"، قال جويدو الذي انتقل إلى جواري، وتأبّط ذراعي. رفع يدي إلى وجهه، وقَبّلها على الأصابع. شعرتُ بأنني أشتعل، وبدأتُ أرتعد.

"تشعرين حضرتكِ بالبرد. اغفري لي إبقاءَكِ هكذا في منتصف الطريق. لندخل إلى المقهى. تحتاجين لاحتساء شيء ساخن".

لم أكن قد دخلتُ إلى مقهى في حياتي. تمنّيتُ، وأنا أشعر بطَرَفَي أُذُنَيّ يشتعلان، أن نتمكّن من الاختفاء في إحدى القاعات الدّاخليّة، تلك الأكثر خصوصية. سأكون بمفردي معه، لكنني عند ذلك الحَدِّ لم أعد أخشى ممَّا يمكنه أن يقول لي، المهمُّ هو الفرار من تلك النظرات التي تنصبُّ علينا.

لكن جويدو لم يلجْ إلى فسحة كريستال بالاس، حيثُ يوجد البار والخزانة ومداخل القاعات الصغيرة، دَفَعَني إلى المقصورة الزُّجاجيّة على الرصيف، وأَجْلَسَني على أكثر الطاولات بروزاً للخارج، على مَرأى من أعين المارّة كافّة. استدعى النادل، وطَلَبَ منه اثنَيْن من مشروب الشوكولاتة الساخنة بالقشدة، وطبقاً من الحلوى بالكريمة.

"لماذا هربتِ، حضرتكِ؟" سألَني بنبرة لومٍ، "لو لم أكن أقف عند النافذة في تلك اللحظة، كنتُ سأفقدكِ".

"لا ينبغي علينا ..." بدأتُ.

"لا، لم أكن لأفقدكِ"، قاطعَني. "كنتُ سآتي للبحث عنكِ في المنزل. لكنني سعيد أن حضرتكِ قد قرّرتِ. يجب أن تقومي ببعض الخطوات نحوي أيضاً، لا يمكنني مطاردتكِ طَوَالَ الحياة".

"عندما تعود حضرتكَ إلى تورينو، لن ينبغي عليكَ مطاردتي بعد ذلك".

"أنا سعيد للغاية من أنه يمكنني التّحدُّث لحضرتكِ. يجب أن أخبركِ بأشياء كثيرة".

كنتُ لا أزال أحتفظ برأسي مَحنِيّاً على الفنجان الساخن. "آسفة جدّاً لأجل خالكَ"، قلتُ بصوت خفيض، "وأشكرُ حضرتكَ، لأنكَ أرسلتَ الطبيب ريتشي. لم يكن ينبغي عليكَ أن تُزعِج نفسكَ".

" أنا سعيد أن الطفلة بخير. لكنْ، دعينا لا نتحدّث عن هذا. لا يوجد أمامنا وقت طويل، يجب أن أرحل غداً".

أخذ يدي التي تشدُّ على الملعقة الصغيرة مجدّداً، ورَفَعَها مجدّداً إلى فمه، وقبّلها. ثمّ استمرّ في الإمساك بها بينما يحدِّثني.

"لا أريد أن أُكرِّر أن نواياي جادّة، يجب أن تكوني حضرتكِ قد أدركتِ هذا. أريد أن أعرفكِ بشكل أفضل، أن أتردّد عليكِ، وحضرتكِ أيضاً يجب أن تتعلَّمي كيف تعرفينني. بإذنٍ من عائلتكِ، بالطبع. سآتي هذا الصباح لأقدِّم نفسي".

"ليس لديّ عائلة"، قلتُ، لكنني فكَّرتُ على الفور في الآنسة استر. يمكنني أن أُعرِّفه عليها آملة أنها ستفهمني. لكنْ، ليس اليوم. تسير الأمور بسرعة أكثر ممَّا ينبغي.

"يؤسفني هذا"، قال جويدو، " وهذا دافع إضافي، كي أقوم بحمايتكِ، والاهتمام بحضرتكِ. للأسف يجب أن أرحل، لكننا سنكتب لبعضنا بعضاً. هل تعدينني بأنكِ ستجيبين إذا كتبتُ إليكِ؟ هنا يوجد عنواني في تورينو. هل تعدينني بالرّدِّ عليّ، هل تعدينني بذلك؟"

كنتُ ممتنّة له بسبب يقينه بأنني أعرف الكتابة. وعدتُ بصوت واهٍ.

"لا يمكنني العودة سريعاً. بعد غد سأُجري آخر امتحان، وبعد ذلك، وخلال أربعة أشهر، أحصل على التّخرُج. في تلك الأثناء يحتاج الأستاذ أن أذهب إلى الكُلِّيّة كلّ يوم. لكنني سأكون حُرّاً بعد ذلك. ترغب جَدّتي في أن آتيَ لأعيش هنا معها، في شارع تشيزارى باتيستي. لا أرغب أنا في ذلك، خاصّة بعد أن رأيتُ كيف عاملتْ كويريكا. لحسن الحظِّ تمتلك تلك المسكينة منزلاً، حيثُ يمكنها أن تعيش، كان الخال أوربانو كريماً، كان رجلاً طيّباً. إلى منزل ديلسوربو، لا، لن أذهب إليه. جَدّتي سيّدة عجوز، تعيش في عالم آخر. يمكنني أن أجتهد لأفهمَها. لكنْ، لأتّفق معها، لا. لن أحتمل الحياة إلى جوارها. كنتُ أفكِّر في استئجار شُقَّة صغيرة، سنقرِّر هذا معاً عندما أعود".

"شُقَّة؟ لا، لا، أنا ... أنا لن ..."

"لا تفزعي. سأعيش فيها وحدي، حتّى، حتّى حضرتكِ ... إذا رغبتِ بعد أن تعرفيني جيّداً بالزواج بي".

انفجرتُ في البكاء. كانت دموعي تسقط في فنجان الشوكولاتة. لم أكن أعبأ بالمارّة الذين يتفرّسون فينا من خارج الهيكل الزُّجاجيِّ باهتمام كبير، كما لو كانوا في مسرح أو في حديقة الحيوان. كان لديّ أثر من القشدة على وجنَتِي. أزاله لي جويدو برقَّة في قبلة خفيفة كجناح فراشة.

عندما عدتُ على المنزل كانت أسونتينا قد عادت من المدرسة. أدركتْ على الفور أنني لستُ الشخص ذاته، وأن حالتي النَّفْسية، وكياني كلَّه، قد تغيّرا. كنتُ أحاول إخفاء هذا، لكنْ، كان يبدو لي أنني أعيش في بُعْد آخر، أسبح بين السماء والأرض، أسير كما لو أنني في غمار حُلْم، أو إحدى الروايات. كان يبدو لي أن ما حَدَثَ بيني وبين جويدو ذلك الصباح هو من بنات خيالي، لا يمكنه أن يكون حقيقياً. لكن الخاتم الذي أعطاني إيّاه كان حقيقياً، ملموساً، كان يكفي أن أرفع يدي نحو صدري لألمسَهُ. وَضَعَهُ في إصبعي على طاولة البار، كان يريد أن أرتديَهُ في يدي اليسرى، بشكل عَلَنِيٍّ، أن أُظهِرَهُ للجميع، كجسر رقيق يربط ضفَّتَي الهُوّة التي تفصل بيننا. إطار من الذهب وحَجَرَيْن كريمَيْن صغيرَيْن من الزفير

والألماس، كان يخصُ والدته التي تلقَّتْهُ كهدية الاحتفال بالميرون، قطعة جديرة بفتاة صغيرة، ذات قيمة عاطفية أكثر من كونها مادِيّة بالنسبة إليه، لكنْ، بالنسبة إليّ أنا التي اعتدتُ على أن أُوفِّق ميزانية مال زهيد، كانت ضخمة. فزعتُ. لم أكن مستعدّة بعدُ على تحدّي المدينة وقوانينها بشكل صارخ هكذا. بمفردي، بينما هو يمكث بعيداً. " سأضعُهُ في إصبعي عندما تعود حضرتكَ من تورينو"، كنتُ قد أخبرتُهُ. " في هذه الأثناء، سأحتفظ به عند قلبي". وأدخلتُهُ في قلادة الجَدّة الذّهبيّة الصغيرة التي أحملها حول عنقي دائماً. هنا سيكون بمأمن، مختبئاً تحت القميص، مَحمِيّاً من نظراتٍ فضولية.

ربّما لو تمكَّنت أسونتينا من رؤية الخاتم، لأدركتْ أن بهجتي غير المعتادة لا تعود إلى تحقُّق ما كان يعتبر أغلى أمانيها. أرادت الاعتقاد أني كنتُ عائدة من المستشفى. "أُمِّي شُفِيَتْ!" علّقتْ وقد أضاء كيانها. "متى ستعود؟"

"لا يزال يلزمها قليل من الوقت"، كذبتُ عليها. "يجب أن تتحلَّي بالصبر". وأحسستُ بشعور خفيف بالذنب مقارنة بين بهجتي وأملي والهُوّة السوداء التي تنتظرها.

بعد الظَّهيرة التقيت جويدو مجدّداً. ذهبْنا للتّنزُّه في طريق أشجار الدُّلْب، كان ذلك يوم عمل، ولم يكن هناك أناس كثيرون، فقط مُربّيات أطفال، وأطفال في زِيِّ البَحْرِيّة على الزّلّاقَة، وصغيرات أنيقات يلعبنَ في دائرة. تحدّثْنا طويلاً. ما قلناه أتذكّره تماماً، لكنّني أُفضِّل الاحتفاظ به في قلبي. سأقول فقط إنه كان يداعب شَعْري بعذوبة، وإن خجلي كان يذوي شيئاً فشيئاً، ومن جانب آخر، كنتُ أزداد وعياً بجهلي الذي أحاول إخفاءه، وأزداد تصميماً على أن أُحسِّن من نفسي، وأن أدرس، لأُعوِّض ما ينقصني. لم أكن أريد له أن يخجل منّي، في أيِّ مناسبة.

في المساء اصطحبني جويدو للعشاء في مطعم صغير خارج سور المدينة بقليل. لم أكن قد تناولتُ العشاء أو الغداء في أيِّ مكان عامٍّ من قبل. عدتُ إلى المنزل في وقت متأخِّر، وأنا أشعر بالأسف

لاضطرار أسونتينا تناوُل الطعام وحدها مجدّداً. ولكي تسامحني، أريتُها الخاتم، المعلَّق في قلادة جَدّتي.

"مَن أعطاكِ إيّاه؟" سألتْني.

"شخص يحبُّني".

"ولماذا لم تضعيهِ في إصبعكِ؟"

"لأني أخشى أن يُسرَق منِّي".

"أهو غالي الثمن؟" لم تكن قادرة على التمييز بين الألماس والزفير والأحجار الزُّجاجيّة الملوّنة التي رأتْها في أصابع وأعناق صاحبات المحالِّ في حَيِّنا. "إذا ذَهَبْتِ به إلى جبل التقوى، كم سيعطونكِ من المال؟"

"لن أحملَهُ أبداً إلى جبل التقوى".

"هل تُحبِّين هذا الشخص أكثر منِّي؟"

"ماذا تقولين، أيَّتُها الحمقاء الصغيرة! هذا شيء مختلف".

تنهّدت أسونتينا. لم أكن أظنُّها عاطفية هكذا. كانت تريد تجربة الخاتم الذي كان واسعاً على إصبعها بالطبع، لكنها لم تردْ إعادته لي بعد ذلك. تعاركْنا قليلاً على سبيل المزاح، وما بين الشَّدِّ والجَذْب قُطِعَت القلادة التي كانت رقيقة للغاية حقًّا. كان هذا خطئي، لم يكن ينبغي عليّ أن أتركها تلمسها، وهكذا لم أُوبِّخ الطفلة. بل فكَّرتُ أنه ربّما كنتُ محظوظة. كان يمكن للسلسة الصغيرة أن تنقطع في الطريق، وللخاتم أن يقع دون أن أنتبه لذلك، كنتُ سأفقده للأبد. من الأفضل تعليقه في رباط متين، لكنْ، لم يكن لديّ واحد في المنزل في تلك اللحظة. وهكذا، عندما نامت أسونتينا، تسلَّقتُ على المقعد، ودَسَسْتُ الخاتم، بعد أن قبّلتُهُ، في علبة الرغبات.

في اليوم التالي، استيقظتُ مبكّراً للغاية، وذَهَبْتُ، بعد أن أنهيتُ تنظيف السُلَّم، إلى المحطَّة، لأُودِّع جويدو. كنتُ قد قرّرتُ أنه من الحكمة أن أترك الخاتم في علبة الحليب حتّى أوفِّر رباطاً قوياً بما يكفي، لكنني لن أخبرَهُ بهذا. رافقتُهُ حتّى عربة الدرجة الأولى، كانت رفقته تُشعِرُني بأمان وثقة بنفسي، لم أكن لأتخيّلهما قطُّ. كانت الناس تنظر إلينا، ربّما وبالرغم من أنني ارتديتُ أفضل ثيابي يفكِّرون أنني خادمة، رافقتْ سيِّدها الشّابّ، لتحمل له حقائبه. لكن بعضهم كان يعرفنا، ولم يُخفِ، عندما داعب هو وجهي وشَعْري وضمّني إليه، وقبّلني، وجفَّف دموعي، دهشتَهُ، وأطلق بصوت مرتفع، بعض التعليقات المقيتة.

"سيذهبون لإخبار جَدّة حضرتكَ بهذا"، قلتُ.

"ليفعلوا هذا. سينبغي عليها أن تعرف عاجلاً أو آجلاً. يجب عليها أن تقبلَ به".

كنتُ أُفضِّل أن يحدث هذا بينما كان جويدو في المدينة، وإلَّا سأضطرُ لمواجهته وحدي. لكنْ، كان الوقت متأخِّراً جدّاً على التراجع. قال لي: " بمجرّد وصولي سأكتب إليكِ. ولتجيبيني حضرتكِ في أسرع وقت ممكن". ثمّ أخذ يدي، ووَضَعَهَا عند قلبه. "أتعدينني شيئاً؟"

"ما هو؟"

"عندما أعود أريد أن نتوقَّف عن استخدام هذه الصيغة الرّسميّة في الحديث، بكلِّ هذه التورية. يجب أن نبدأ في الحديث دون كلفة. هل تعديني بهذا؟"

لن يكون الأمر سهلاً، كنتُ أعرف هذا بالفعل. لكنه كان ضرورياً. وعدتُهُ.

عندما رحل القطار توجّهتُ إلى المستشفى. لن تكون العودة إلى المنزل للبكاء مفيدة. "لا تحزني"، أوصاني جويدو. "أربعة أشهر

ستمرُ سريعاً. فكِّري في الوقت الذي سأعود فيه. فكِّري أنه لن نضطرّ لأن نفترق مجدّداً".

كانت المستشفى في الضاحية، استلزم الأمر منِّي سير مسافة معتبرة، حاولت خلالها التّأمُّل، وترتيب أفكاري التي كانت تفرُّ في شتّى الاتِّجاهات. لن يذهب الأشخاص الذين رأونا في المقهى، وطريق أشجار الدُّلْب والمحطَّة لإخبار دونّا ليتشينا فقط، بل سيقصون هذا في كلِّ مكان في المدينة. كان يزعجني أن تعرفه الآنسة استر من بعض النّمّامين، ندمتُ على أنني لم أخبرها بشيء أنا أوّلاً، ولم أُخطرها. ربّما كان الوقت لا يزال سانحاً. قرّرتُ أن أذهب للقائها بعد الظَّهيرة.

في المستشفى، بحثت عن رئيسة الممرِّضات التي أحمل باسمها بطاقة التوصية. وجدتُها وهي على وشك الانصراف إلى المنزل، فقد أنهتْ نوبة عملها. كانت امرأة في منتصف العُمُر، ودودة ومتعاونة. قبلتْ، وإن كانت متعبة، الوقوف للتّحدُث معي قليلاً، شرحتْ لي أنه حتّى لو اعتنت بزيتا باهتمام خاصٍّ كما كانت

الآنسة استر تطلب منها، فلن يعينَها هذا كثيراً. كانت صديقتي قد بلغت آنذاك المرحلة النِّهائيّة. لم تعد واعية. ستستمرُ هكذا لفترة ... لا يمكنها أن تحدِّدها بدقَّة. بالتأكيد ليس لأكثر من أسبوعَيْن، ربّما أقلّ من هذا بكثير. أريد أن أراها، أُودِّعها ربّما لآخر مرّة؟ مع بعض الحيطة، وإذا وعدتُ ألَّا أقترب منها كثيراً، وألا ألمسها، يمكنها أن تستثنيني وتدعني أدخل إلى قسم العَزْل.

"هل يمكنها أن تتعرّف عليّ؟" سألتُ.

"لا. نعطيها مهدِّئات. إنها نائمة".

"إذنْ، أُفضل ألَّا أراها".

"كما تريدين". نظرتْ مجدّداً إلى البطاقة، "أقرأ هنا أنه توجد ابنة صغيرة. وأنه يجب أن نجد لها رعاية. أفضل ما يمكننا. هنا يمكنني مساعدتكِ. نحن نعتمد، في شأن يتيمات مريضاتنا، على معهد ماريا بامبينا. إنه ملجأ جيّد للفتيات، به مدرسة داخلية،

ويمكن لمَنْ ترغب أن تدرس حتّى تصبح معلِّمة أطفال. المباني واسعة وصحِّيّة وجافَّة. توجد أيضاً حديقة وبستان تُعنى به اليتيمات. في الصيف يأخذوهنّ لقضاء أسبوع على البحر، في فرعهم في مدينة ب. صدّقيني إنه أفضل واحد في المدينة. ولديه طَلَبَات كثيرة للغاية. سيكون من المناسب أن نحجزَ الآن مكاناً لربيبتكِ. هكذا، عندما تحين اللحظة ... إذا أردتِ، أرافقكِ. فالأمور الإدارية معقَّدة قليلاً لمَنْ يتقدّم بالطَّلَب لأوّل مرّة. ثمّ إنه ينبغي أن يستطيع قراءة الاستمارات، وكتابة الإجابات. ستحتاجين مساعدة".

كانت هي أيضاً تفكِّر أنني جاهلة، أُمِّيّة. لم أُصحِّح لها. سيكون وجودها ثميناً بالنسبة إليّ على أيّة حال. شكرتُها على الوقت الذي تُكرِّسه لي. لم أكن أريد أن أتّخذ قراراً مبكِّراً هكذا، لكنني كنتُ أفهم أنه لا جدوى من الانتظار. لا جدوى من التّحدُّث عن هذا سَلَفَاً مع أسونتينا، وسؤالها عن موافقتها. أيّ اختيار آخر لديها؟ ثمّ إن فعل شيء ما سيساعدني على عدم التفكير في جويدو.

عندما صرْنا في الطريق، في ضوء الشمس، تفرّست المرأة في وجهي باهتمام. "لكنني أعرفكِ"، قالت. "أين يمكن أن أكون قد رأيتُكِ؟"

"في منزل أرتونيزي؟" تجرّأتُ، آملة ألّا تكون قد وَصَلَتْ إلى أُذنَيْها النميمة حول ما سيطلق عليه نمّامو مدينتنا – كنتُ واثقة من هذا – "نزوتي" مع جويدو.

"لا، لا. في مكان آخر ...لُفِّي قليلاً، ارفعي ذقنكِ. رأيتُ ذلك القِرطَ من قبل. آه، ها هو! في المسرح. تذهبين إلى المقصورة العلوية، صحيح؟ تروقك الأوبرا. وتروقني أنا أيضاً. جَعَلَنِي زوجي الذي ينضمُّ إلى جوقة المصفِّقين(□) أتعرّف عليها. في عيد الميلاد الماضي أهداني منظار الأوبرا. إنه شيء مختلف تماماً عندما ترين وجوه المطربين جيّداً".

تنهّدتُ ارتياحاً. تحدّثنا عن مؤلّفينا الموسيقيّيْن المفضّلين. كانت هي تعشق فيردي، بينما أُحبُّ أنا بوتشيني. كم بكيتُ لأجل

الممثِّلين الشباب في البوهيمي، كان فقرهم يُشعرني بأخوتهم لي، والآن زيتا التي تموت من السِّلِّ، كما حَدَثَ مع ميمي، التي لم تكن خَيّاطَة متواضعة بالضبط، بل مُطَرّزَة ... كان يتبقَّى في تلك العُلية المتجمِّدة، القريبة للغاية من القمر، طفلة يجب إيجاد ترتيب حياتي لها.

عند حَدٍّ معيَّن، تنهّدت مرافقتي وهي تستعرض السادة الذين يملكون شرفاتهم الخاصّة في المسرح، والذين لاحظتْهم بمنظار الأوبرا طويلاً لدرجة أنها تعتبرهم معارف قدامى: " يا للخسارة! فقدْنا العام الماضي الميس الأمريكية. لا تزال خادمتها، تلك الوقحة، تأتي، ولكنْ، في الصالة. وفي الموسم القادم لن نرى مجدّداً دون أوربانو ديلسوربو. كان لطيفاً. لكنْ، يا له من عجوز غريب الأطوار! هل سمعتِ عن الوصية؟

تجلَّدتُ. هززتُ رأسي. "لا"، قلتُ بجفاف قليلاً آملة أن تُغيّر هي الحديث. لكنها سَحَبَتْ من حقيبة اليد صحيفة مطوِيّة. "اقرئي هنا! بل، عذراً، سأقرأ لكِ أنا".

لم أُكذِّبها هذه المرّة أيضاً. أَنْصَتُ لكلماتها دون أن أُعلِّق، وأنا أشعر في البداية بالقلق، ليس لمحتوى المقالة، ولكنْ، لما يمكن أن تفكِّر فيه القارئة غداً أو في الأيّام التالية عندما تكتشف لامبالاتي بتلك الوصية، وبتلك العائلة لم تكن صادقة، وأنني كنتُ أتظاهر. كاذبة، متسلِّقة اجتماعية منافقة، متظاهرة بالطِّيبة، هكذا ستحكم عليّ باحتقار. هل ستستمرُّ في مساعدة صديقاتي؟ هل كنتُ أؤذي زيتا بصمتي، وأضرّ بمستقبل أسونتينا؟ إن الأسرار والنميمة كالحَيّات، لا تعرف أبداً أين ينتهي جسدها ويبدأ ذيلها، وإلى أيِّ نهاية ستودي بكَ، هكذا كانت جَدّتي تقول. لكنْ، عند ذلك الحَدِّ ماذا كان بمقدوري أن أفعل إلّا الإنصات؟ ثمّ إن الموضوع كان يهمُّني حقّاً.

أعلن الموثِّق أخيراً وصية دون أوربانو، التي كَتَبَهَا بيده، وأضاف فيها إلى رغباته غير المألوفة بالفعل في حَدِّ ذاتها عبارات يصعب تفسيرها، لا تشملها الصيغ القانونية المعتادة، غريبة لدرجة أن الصحيفة اعتبرتها مهمّة للغاية لفضول القُرّاء، وقرّرت نقلها حَرْفِيّاً. كان فريداً بالفعل أن الباحث العجوز عن الملذّات، هكذا كَتَبَ

الصّحَفِيُّ، قد ترك إلى إحدى الخادمَتَيْن، الأكبر سنّاً بينهما – بينما لم يترك للأخرى شيئاً –، عقاراً سَكَنِيّاً ذا طابقَيْن في قلب المدينة التّاريخيِّ، وعقاراً آخر يتألَّف من خمسة طوابق في الحَيِّ الحديث، وأرضاً زراعية جيّدة ومالاً وفيراً. وأنه أوصى ابن شقيقته، الوريث الذي غُبِنَ في ذلك الجزء من الثروة، أن يعتني بالمستحقَّة، وأن يهتمّ بمصالحها، ويساعدَها في تأجير الشّقق بشكل مناسب، ويجهّز تلك التي ستختارها هي لنفسها. أراد أيضاً أن يُبرِّر ذلك القرار الغريب. "كويريكا جريكي"، كَتَبَ، "التحقتْ بالخدمة في منزلنا وهي صغيرة السِّنّ للغاية، ولطالما فعلتْ ما كان يُطلَب منها بإخلاص تامٍّ ومحبّة، وهي صامتة وموثوق بها. تخلَّت بكرم كبير عن حياتها الخاصّة، ولم تُكوِّن أسرة لها. تحمّلت الاحتقار والجحود، ولم تتلقّ قطُّ أجراً يناسب ما كانت تفعله لأجلنا، لأجلي أنا. وفي هذا أسألها العفو. أريد أن أقدِّم هنا بعض التعويض، وليغفر لي الله أيضاً. ما أتركه لها هنا ليس إلَّا النصيب الأدنى ممَّا يحقُّ لها، وَفْقَاً للعدالة".

عادت إلى ذهني كلمات جويدو في الرواق: "كان رجلاً طيِّباً". حتّى وإن لم أكن أفهم ما الشيء الخاصّ الذي فعلتْهُ كويريكا لتستحقّ تلك الأفضلية وتلك الاعتذارات. تتخلّى كلُّ الخادمات بدوام كامل عن حياتهنّ الشّخصيّة، وفي المقابل يتلقَّيْنَ راتباً وأمان سقف يظلِّل رؤوسهن. لم أنسَ أن جَدّتي قد تخلَّت عن ذلك الراتب وذلك الأمان لتتمكّن من الاحتفاظ بي.

كانت رئيسة الممرِّضات أيضاً تجد ذلك العرفان مبالغاً فيه. "انظري كيف يُطلَب الآن من الخادمات الغفران على تكليفهنّ بالعمل!" كانت تُعلِّق. " وكلُّ ذلك الثناء! كانت مخلصة وموثوقاً بها؟ كان هذا جزءاً من واجباتها. وإذا كان المرتّب زهيداً للغاية، فهو خطأها هي التي لم تعقد اتِّفاقاً واضحاً منذُ البداية، أو لم تطلب زيادته بعد ذلك. عاملها سادة المنزل باحتقار؟ كان بمقدورها أن تستقيل، وتبحث عن عائلة أفضل، أقلّ تكبُراً. ثمّ إنه من المعروف أن السادة يتحكَّمون والخَدَم يتحمّلون. فضلاً عن هذا، لا أفهم كلّ تلك الاعتذارات والتبريرات من جانب دون أوربانو. كانت الثروة تخصُّه، ويمكنه أن يتركها لمَنْ يشاء وحسب".

ثمّ تضاحكت بقليل من الخُبث. "لكنني أفهم غضب الوالدة. في النهاية كان الابن يتّهمها بأنها لم تدفع ما يكفي قطُّ لسيّدة الخادمات تلك، يتّهمها ببُخل يجبره، وهو على شفا الموت، على تقديم تعويض عنه. أكان من الضّروريّ أن يكتب هذا في وثيقة عامّة؟ يُفضّل غسل الثياب القذرة داخل العائلة، أَلَا تظنّي هذا؟"

نظرت إليّ لتحصل على تأكيد. همهمتُ: " حضرتكِ مُحقَّة". وشكرتُ السماء أننا وَصَلْنا إلى ملجأ الأيتام، واضطرّت مرافقتي لدَسِّ الصحيفة مَطوِيّة مجدّداً في الحقيبة.

ربّما كان معهد ماريا بامبينا هو أفضل ملجأ للأيتام في المدينة، لكنه لم يكن يبدو لي مميّزاً بشكل خاصٍّ. مبنى منخفض، تحيط به أرض مقسّمة إلى حدائق صغيرة، بعض الأشجار، بعض الأَجَمَات، صفوف من البَازِلّاء والخَسِّ، ولا أثر للزهور. كان يفصل الأرض عن الطريق حاجز مرتفع، ويغطِّي كلّ نوافذ المبنى سياج معدني. في الداخل، كان مكتب الاستقبال عارياً من كلِّ زينة، الجدران صفراء مدهونة بالزيت، طاولة، فهرس بطاقات، مقعدان، تمثال العذراء

المتألِّمة والسيوف السبعة تخترق قلبها على أحد الأرفف، وفي الأسفل جرس زجاجي، ومهد بالجوبير المذهّب، حيثُ وُضعَت صورة شمعية لمريم الطفلة، وهي مُحاطَة من عنقها حتّى قَدَمَيْها باللّفائف المذهّبة هي أيضاً.

بينما أُواصِلُ التظاهر بأنني لا أعرف القراءة والكتابة، تركت رئيسة الممرِّضات تطلب المعلومات، وتملأ الاستمارات. أَعلمتْنا الأخت بصرامة أنه توجد قائمة انتظار طويلة، وأن عدد اليتيمات الفقيرات في المدينة يزيد دوماً عن الأماكن المتاحة، وأنه سيجب علينا الانضمام إلى آخر الطابور. أحسستُ بشعور من الارتياح. كان يمكنني أن أنتظر قبل إبلاغ أسونتينا بما قُرِّر لها. لكن رئيسة الممرِّضات اقتربت من المكتب، وقالت همساً بابتسامة تواطؤ: "طَلَبَتْ منِّي ابنة السّيّد أرتونيزي، الماركيزة الشّابّة استر، تحيّتكِ أيّتُها الأخت. أمر هذه الطفلة يهمُّها كثيراً".

مكتبة telegram @t_pdf

"لتنقلي لها تحيّاتي"، أجابت الأخت دون أن ترفع رأسها عن الأوراق. أخذت استماراتنا التي كانت قد دسّتْها أسفل كومة الاستمارات الأخرى، ووضعتْها في المقدِّمة.

"إذا أردتُما، يمكنكما زيارة قاعة الطعام. إنه وقت الغداء".

اصطحبتْنا إلى قاعة كبيرة تمتلئ بالطاولات، تشبه تلك التي تخصُ معهد مصابي سلِّ الغدد اللِّيمفاويّة في مدينة ب. هنا أيضاً كانت الصغيرات يرتدينَ زِيّاً رمادياً مخطَّطاً، ورؤوسهنّ حليقة.

"لماذا شُعُورهنّ قصيرة هكذا؟" سألتُ متشجِّعة الأختَ بصوت خفيض.

"بسبب القملِ"، أجابتْني. "ولإحباط الزُهُوِّ".

ودّعتُ رئيسة الممرِّضات بكثير من عبارات الشُكْر، وتوجّهتُ إلى منزل أرتونيزي وأنا ممتلئة بالريبة: أوّلاً من الخطوات التي قمتُ

بها للتّوِ، هل كنتُ متعجِّلة للغاية بشأن ترتيب أسونتينا الحياتي؟ هل تركت نفسي أُساق بدافع الخجل بغضِّ النظر عن نواياي؟ ثمّ، ماذا ينبغي عليّ أن أقصّ للآنسة استر عن جويدو؟ فقط ما رآه الجميع، وما قد يكون النّمّامون قد نقلوه إليها، أم أخبرها بواقع الحال حقًّا، وأتحدّث لها عن الخطبة، وأريها الخاتم؟ هي التي لم تعد تريد الحديث عن الحُبِّ؟ هل ستتضايق لأنني لم أسألها النُّصح منذُ البداية؟ لكننا لسنا صديقتَيْن حميمَتَيْن، متساويَتَيْن كآنسَتَيْن من أسرَتَيْن كريمَتَيْن، تبوحان لبعضهما بأسرارهما منذُ زمن المدرسة، لم أجرؤ قطُّ على التفكير في هذا. لم أنسَ قطُّ أنها سيّدة، وأنني خَيّاطَة متواضعة. لم تكن الآنسة استر تأتي أبداً على ذِكْر الماركيز ريتسالدو خلال الحديث معي، رغم أنني عرفتُهُ، وبشكل جيّد.

ولم أعرف أن والد إنريكا كان هو أيضاً في ترحال دائم، ولكنْ، في بلاد الشرق، في إيران، وتركيا، وشبه الجزيرة العربية، إلَّا من ثرثرة أهل المدينة. لكنْ، ربّما كان سيمكنها هي، العليمة بعائلات ل.

النبيلة، أن تعطيَني بعض النصائح الجيّدة منذُ الأيّام الأولى حول كيفية التّصرُّف مع جويدو.

كان بمقدوري أن أُوفِّر على نفسي كلّ تلك الشكوك لأنني عندما وَصَلْتُ إلى منزل أرتونيزي، وسألت عن سيّدته، أجابتْني المديرة أنها خَرَجَتْ مبكّراً، وأنها ذَهَبَتْ مع والدها لتتفقّد مصنع البيرة، ولن تعود قبل وقت العشاء. تركتُ لها بطاقة، كتبتُ فيها أنني مررتُ لأخبرَها بشيء مهمٍّ، شيء جميل، وأنه إذا كان شخص ما قد أخبرها بشيء سيّئ عنّي، فيجب عليها ألّا تُصدِّقه. سأشرح لها كلّ شيء في اليوم التالي.

عندما عدتُ إلى المنزل كان الوقت عصراً. كانت أسونتينا قد تناولت طعامها بمفردها مرّة أخرى، كانت تعرف آنذاك كيف توقد الشعلات، وتركت لي الغداء ساخناً إلى جوار الفحم المشتعل. لم أمتلك الشجاعة لأخبرَها بشيء عن ملجأ الأيتام، ولا عن والدتها. لم تسأل هي عن شيء. أبلغتْني أن رينونشيا جاءت تبحث عنِّي، وأنني يجب أن أذهب فوراً إلى بناية ديلسوربو.

"قالت فوراً فوراً. بمجرّد أن تعود يجب أن تأتيَ إلينا".

رغم أنني كنتُ أتوقَّع هذا إلَّا أنني فُوجئتُ للحظة. كنتُ أعرف أنني عاجلاً أم آجلاً سأضطرُ لمواجهة دونّا ليتشينا، لكنني أملتُ أن أحظى بمزيد من الوقت. كم تسري الشائعات سريعاً في مدينتنا!

"حالاً لا. أنا مُتعَبَة للغاية"، قلتُ بينما أجلس إلى طاولة المطبخ. كنتُ أكدُّ من قبل بزوغ الفجر. خلعتُ حذائي. خلعتُ قرطي الذي وضعتُهُ، لأرافق جويدو إلى المحطَّة، ثمّ نسيتُهُ. شكرتُ أسونتينا لأجل الغداء الساخن، وهي، مسرعة، أَتَتْني بالطبق مغطّى بآخر، ووضعتْهُ أمامي، وجاءتْني بكوب وشوكة. كان يوجد بعض القرنبيط مع الزيتون المتبقِّي من اليوم السابق، وبدأتُ آكل باستمتاع.

لم أكن قد انتهيتُ بعد عندما طُرِقَ الباب. كانت رينونشيا مجدّداً. "ألم تقولي لها إن الأمر مُلِحٌ؟" هاجمت الطفلةَ. شعرتُ بالسُّخط يتملّكني. لكنْ، ماذا يظنُّون، أنني ليلاً ونهاراً في خدمتهم؟

"مُلِحٌ؟ هل توجد حاجة مُلِحّة لخِيَاطَة بساط جنائزي آخر؟" سألتُ باستهزاء. "لمَنْ اليوم؟ لسيّدتكِ أم أنها تتعجّل إعادة النقود التي نسيتُها ذلك اليوم لديكم إليّ؟"

"لا تتصنّعي المرح. لا يوجد ما يُضحك، أيّتُها الغبية. دونّا ليتشينا تشتعل غضباً. هَيّا. أسرعي".

وضعتُ الشوكة بهدوء متعمّد، ذَهَبْتُ إلى الحوض لأغسلَ يدي، حَلَلْتُ عِقْصَة شَعْري، وعقدتُ الضفائر بعناية مجدّداً، بحثتُ أسفل صندوق الملابس عن حذاء مريح أكثر. نفضتُ الشال الثقيل، الداكن، وارتديتُهُ. كانت رينونشيا ترتعد لشدّة نفاد صبرها.

"هل أنهيتِ واجباتكِ؟" سألت أسونتينا. "هل تريدين المجيء معي؟"

"لا، لا. تريد أن تتحدّث لكِ وحدكِ. وتحرّكي. هَيّا!" انفجرتْ رينونشيا.

أعطيتُ للطفلة إذناً باللعب مع صديقاتها على الرصيف لمدّة ساعة، بشرط ألّا تقفز الحبل، وألّا تعرق، وفي النهاية تبعتُ "الخادمة الشّابّة". كانت تثير تعاطفي قليلاً في اضطرابها. في النهاية لا ذنبَ لها في شيء، بل كانت تستحقُّ الشفقة لاستبعادها من الوصية، ولأنها مكثت بمفردها لتؤدِّي كلّ المهامِّ في ذلك المنزل الضخم، وحيدة مع تلك السَّيِّدة المتكبِّرة والمتجبِّرة.

"لكنْ، الآن مع عدم وجود كويريكا، أَلَا تنوي دونّا ليتشينا أن تتّخذ خادمة أخرى؟ ربّما أحدث سنّاً؟" سألتُها ونحن في الطريق.

"وعن هذا أيضاً تريد أن تتحدّث معكِ".

"معي؟ وما شأني أنا؟"

"وما أدراني؟ سيسرُّني أن أعرف ماذا فعلتِ ذلك اليوم لدينا لتجعليها تغضب هكذا. إنها منذُ ذلك الحين، وقبل أن تقرأ الوصية حتّى، غاضبة بشدّة. ومنذ ليلة أمس في حال أسوأ".

إذنْ، لم يُضِعِ المبلِّغون وقتاً لإعلامها بما استجدّ. قرّرتُ أنني لن أقبل الخضوع لتحقيق، ولن أقصّ عليها روايتي للأحداث، ولن أعتذر إذا كان هذا ما تريد. لن أرضيَها.

كنتُ فقط خَيّاطَة متواضعة، وهي سيّدة عظيمة. لكنها ليست سيّدتي.

() ذُكِرَت في النّصِّ بالفرنسية: claque.

مكتبة telegram @t_pdf

علَّمتْني جَدّتي أن أحترم كبار السِّنّ. لم يكن هناك حاجة لأن تُخبرني هذا بالكلمات، كان سلوكها ومُثُلها هما اللَّذَيْن علَّماني أن كبار السِّنِّ، بكلِّ ما يملكونه من خبرة وشجاعة ومعرفة وقوّة أفادت في تجاوُز كثير من المشكلات، والآلام، والعقبات، وفي البقاء على قيد الحياة حتّى ذلك الحَدِّ، هو شيء يستحقُّ الإعجاب، ويثير الرغبة في التقليد، وينبغي تقديره عَلَنَاً.

علَّمتْني الحياة أن أكون لبقة مع الأثرياء، أيّاً كان عُمُرهم وطبعهم وأفعالهم. إن كونهم أثرياء يجعلهم ذوي سطوة، يجعلهم أقوى منّا، قادرين على سَحْقنا، على تدميرنا بإشارة من إصابعهم. لم يكن الأغنياء بالضرورة موضع إعجاب، فحُكمنا عليهم قد يتضمّن نَقْداً لهم، أو احتقاراً حتّى. لكنْ لا ينبغي علينا أبداً التعبير عنه، خاصّة في حضورهم. معهم ينبغي علينا دائماً أن نكون محترمين.

كانت دونّا ليتشينا عجوزاً، وثريّة، ولم أكن لأجرؤ قطُّ على نسيان هذا.

لم أتوقع أن أجدها هادئة ومتماسكة هكذا، تجلس مستقيمة على الأريكة من المُخْمَل الأحمر إلى جوار النافذة.

"لقد جَعَلْتِنِي أنتظر. أين كنتِ؟" سألتْ دون أن تُحيّيني بمجرّد وقوفي أمامها.

"في العمل"، أجبتُ دون مزيد من التفسير. كان الجوُّ حارّاً في قاعة الاستقبال، خَلَعْتُ الشال، ووضعتُهُ على أحد المقاعد، حتّى لو لم تدعُني هي للقيام بذلك. لكنني ظللتُ واقفة، بحسب ما يجب فعله أمام السادة. صرفت هي رينونشيا من الغرفة آمرة إيّاها أن تُغلقَ الباب. صرْنا الآن وحدنا.

"رأيتُكِ، ذلك اليوم في الممرِّ"، بدأت الحديث.

"أعرف".

"أنتِ ماكرة. لقد أغويتِ حفيدي جيّداً، ذلك الساذج. ربّما لديك بعض الأفكار الجنونية في رأسكِ؟"

لم أجبْ، لكنني واجهتُ نظرتها.

"لا، لا أعتقد ذلك"، تابعتْ، "أنتِ فتاة عاقلة. تعلمين أنه مهما احتلت عليه، فلن تتمكّني من الحصول منه على شيء".

أنا صامتة.

"أتعرفين هذا أم لا؟ لم تكن جَدّتكِ حمقاء. علّمتْكِ بالتأكيد أن الناس أمثالكم يجب أن يظلُّوا في موقعهم".

كنتُ أواصل الصمت.

"لكنكِ طموحة، أجل، مثل كلِّ فتيات الأزقَّة السَّيِّئات، أنتنَّ الشَّحّاذات المرتديات أسمالاً اللَّاتي ترغبنَ في ارتداء ثياب السادة، ووَضْع القُبَّعة، واستخدام المروحة، والتَّمَسْكُن مع أبنائنا بغية الاحتيال عليهم، وحَمْلهم على إهدائكنّ مجوهرات العائلة. لحَمْلهم على الزواج منكنّ، يا حبّذا. أتكوني قد انتزعتِ من حفيدي وعداً بالزواج؟ ذاك، يكفيه أن يرى تنُّورة ... أسوأ من خاله. ضعيف، أبله. لكنْ، لا تُصدِّقي، لا تتوهّمي: يعرف جويدو جيِّداً مَنْ هو ومَنْ أنتِ".

"سيادتُكِ مُحقَّة. أعتقد أنه يعرف هذا، وأنه لا يعبأ به".

"آه، حقّاً؟ أَلَا يعبأ به؟ لكنني أعبأ بذلك. أَلَا تعرفين أنني أستطيع تدميركِ؟ أنه يمكنني اتِّهامكِ بالإغواء؟ لا أعدم الشهود. كنتُ أظنُّكِ أكثر مكراً. تجرِّينه من أُذنه هكذا أمام الجميع. أكان هناك حاجة لسَحْبه إلى مقصورة كريستال بالاس الزُجاجيّة؟ لتؤدِّيها عَلَنَاً، كلّ أغانيجكِ؟ ماذا كنتِ تريدين أن تُظهِري؟"

"لتسمعي سيادتكِ، لماذا لا تطرحين هذه الأسئلة على حفيدكِ؟ لماذا لا تسألينه عندما يعود؟ لماذا لا تكتبين له؟"

"لأن جويدو هَشٌ. لأنه يجب أن يدرس في هدوء دون أن يشغل فكره بتُرّهَات. لأنه من الأفضل أن نتّفق فيما بيننا. أنا واثقة أننا سنتفاهم في النهاية".

"نتّفق على ماذا؟"

"لديّ اقتراح لكِ. أَنصِتِي لي جيّداً".

"تفضلي".

"تعرفين أن كويريكا قد رحلت. ولا يمكن لرينونشيا الاستمرار وحدها، أحتاج خادمة أخرى".

"سيادتُكِ مُحقَّة. لن يُكلِّفكِ العثور على واحدة جهداً".

"لقد وجدتُها بالفعل. أحتاج فتاة شابّة وتامّة العافية. أريد أن تأتيَ أنتِ".

"أنا خَيّاطَة".

"أوف، الخَيّاطَة(□) العظيمة! لأجل بعض الرّتْق. كانت جَدُتك خادمة ممتازة. أنتِ تعلمين أنها كانت هنا لدينا لبضعة أشهر، عندما كانت فيتوريا طفلة. لم أفهم لماذا أرادت المغادرة. لكنها بالتأكيد علَّمتْكِ".

"علَّمتْني الخِيَاطَة".

"أيّتُها العنيدة، إذا كنتِ شديدة الحرص على هذا، سأُعطيكِ ما تخيطينه. ليس هذا ما يهمُّني. وسأدفع لكِ راتباً جيّداً. كم تكسبين الآن شهرياً؟"

"معذرة، لكن اقتراح سيادتكِ لا يهمُّني".

"أوه، بل أنتِ مهتمّة. جويدو يروقكِ، لاحظتُ ذلك، وهو أيضاً معجبٌ بكِ. وأنتِ تعلمين أنه بمجرّد تخرُّجه سيأتي ليعيش هنا معي. سيكون هذا هو الحلّ المثالي".

لم أفهم. كانت قد قالت لتوِّها إنها تريد اتِّهامي بالإغواء.

"لا تمثِّلي دور المحتشمة الغبية. لقد فهمتِ جيّداً جدّاً. بالطبع، سيكون عليكِ الخضوع لفَحْص طِبّيٍّ أوّلاً. بتعقُّل. سيقوم الطبيب ريتشي بذلك. لكنه قال لي إنك بدوتِ بصحّة جيّدة، وإنه لن يكون لديكِ مرض مخجل، وإنكِ لن تنقلي العدوى له".

مرض مخجِل؟ أنقل العدوى له؟ بدأتُ أفهم، وتملَّكتني قُشَعْرِيْرَة. سمعتُ عن قصص كتلك. خادمات متواضعات شابّات تُوظِّفهنّ سيِّدة المنزل، لِيَكُنّ تنفيساً لشهوة السادة الشباب. فتيات ريفيات يُخترنَ بعناية من بين أكثرهنّ سذاجة وأقلِّهنّ خبرة. عذراوات، ليتأكَّدوا من عدم حَمْلِهِنّ لذلك النوع من الأمراض. كنتُ قد بدأت أفهم كلمات دون أوربانو في الوصية. كويريكا المسكينة! لم

تكن قد تجاوزت الخمسة عشر عاماً عندما ذهبوا لإحضارها من الريف. وقد وقعتْ في حُبِّ السَّيِّد الشاب. كم بَكَتْ لأجله، بعد نصف قرن! خمسون عاماً كَعَبْدَة، "كخادمة عجوز"، تتحمّل إهانة وغطرسة سيّدة المنزل. وقد تحمّلت أن يذهب دون أوربانو، بعد أن أجبرَ القانون نزيلات منازل المتعة على الخضوع لفحوص طبِّيّة، ولم يعدنَ خطيراتٍ للغاية، للبحث عن مَنْفَس له في مكان آخر، وبإذن الوالدة. شريطة ألّا يتزوّج. ها هو المكان، حيثُ كان السَّيِّد النبيل يقضي لياليه عندما لم يكن يمكث في المنزل، حتّى الآنسة إستر كانت تعرف ذلك. معجزة أنهم لم يطردوها عند ذلك الحَدِّ، كويريكا المسكينة، لأنها لم تعد ضرورية لهم. الآن أفهم لماذا لم ترد جَدّتي البقاء في العمل في ذلك المنزل. كانت امرأة شريفة، لم تكن ستحتمل أن ترى بنفسها ذلك العار كلّ يوم. ورينونشيا؟ مَنْ يدري إذا كانت رينونشيا تعرف؟ وُظِّفَتْ بعد ذلك بوقت طويل، بعد الوباء، ربّما عندما كان كلُّ شيء قد انتهى بالفعل بين الاثنَيْن. ولكنْ، هل حدست شيئاً؟ هل صرّحتْ لها كويريكا بشيء؟

و □و □لم أكن أريد لذلك التفكير، ذلك الشّكِّ، أن يشغل عقلي. لكنني لم أستطع تجنُّبه. هل كان جويدو يعرف هذا؟ هل كان يرتاب فيه؟

بدا لي أن الجدران المَكسوّة بالدِّمشقيِّ الأحمر قد بدأت تلفُّ من حولي. ترنّحتُ. اضطررتُ للتّشبُّث بظَهْر المقعد، كي لا أقع. لا، جويدو لا. لم يكبر في ذلك المنزل. تشاجر والده مع الحماة، لم يسمح لها بأن تُنشِئه. وفَّر له تربية مختلفة، قِيَماً مختلفة. يتمتّع جويدو بالاحترام. لم يكن ليعطيَني خاتم والدته، لو ظنّ أنه يمكن له أن يشتري جسدي براتب كخادمة.

مرّت كلُّ هذه الأفكار في رأسي على الفور، بسرعة البرق. كانت دونّا ليتشينا تنظر إليّ، منتظرة الرّدّ.

"إذنْ؟ أَلَا تعتقدين أنه حلٌ جيّد؟ سنكون جميعاً أكثر هدوءاً".

التقطتُ الشال. " سيادتكِ تُروِّعينني"، أردتُ أن أخبرَها، لكن الخجل وتربية جَدّتي منعاني.

كرّرتُ: "لا يهمُّني، أخبرتُ سيادتكِ بالفعل. عمتِ مساء".

"هل تعتقدين أنه بمقدوركِ الاختيار، أيّتُها الفتاة الغبية؟ ألم تفهمي أنه يمكنني تدميركِ؟"

لم أجبْ، ارتديتُ الشال، واتّجهتُ صوب الباب.

"انتظري! قبل أن تغادري، أَنصِتِي لما لديّ".

توقَّفتُ ويدي على المقبض.

"أنتِ لا تقبلين عرضي للسلام، تريدين الحرب. ولكنْ، مَن تظنِّين نفسكِ؟ ستخسرينها. أَلَا تفهمين أنني أقوى منكِ؟ لديّ معارف كثيرون. في المُحافظة، في الشرطة، في المحكمة. كلُّ الناس

الذين يحكمون هذه المدينة. كوني حذرة. تكفي كلمة واحدة مِنّي، وستنتهين".

"لم أرتكب أيّ خطأ".

"اذهبي لتقولي هذا على شرطيّي الأمن العامّ عندما يأتون لأخذكِ، لأنني سأشكوكِ بوصفكِ عاهرة. يكفي خطاب من مجهول، هل تعرفين هذا؟ لكنني لن أنحدر لهذا المستوى. سأقول إنكِ حاولتِ إغواء حفيدي عدّة مرّات، ولديّ شهود. وسأجد رجالاً آخرين يقولون إنكِ تبعتِهم في الطريق، وتلقَّوا منكِ عروضاً غير لائقة".

"العرض غير اللّائق هو ما قدّمتِهِ سيادتكِ لي توّاً، دونّا ليتشينا، أَلَا تخجلين؟"

"اصمتي. كان عرضاً ممتازاً. لا يزال الوقت متاحاً أمامكِ لقبوله. لا تريدين؟ حسناً، أيّتُها المحتشمة. سيكون عليكِ شرح بأيِّ موارد

تعيشين؟ كيف تتيحين لنفسكِ رفاهيات بعينها؟ وأين تجنين المال؟".

"عن أيِّ رفاهيات تتحدّثين سيادتكِ؟ يعلم الجميع أنني أعيش من كَدِّي".

"خيّاطَة متواضعة بتلك الثياب الجميلة من القماش الإنجليزي، وشُقَّة كلُّها لكِ، وابنة غير شَرْعيّة، ترسلينها إلى المدرسة بدلاً من العمل، وربّما بعض الحلي القيّمة ... رأيتُ أن جويدو كان يأخذ مجوهرات والدته من الخزانة، مَنْ يدري ماذا فعل بها؟! ... لكنني لا أريد المكوث هنا لأُضيّع الوقت. ستتولِّين أنتِ شؤونكِ مع رجال الشرطة. تعرفين القانون، أليس كذلك؟ يجب أن تخضعي لفَحْص طِبِّيٍّ، لا يمكنكِ الرّفْض، لأنه سيكون بمنزلة اعتراف بأنكِ مصابة بالعدوى، وسيتمّ تسجيلك على أيّة حال. سأتحدّث أنا بنفسي مع طبيب قسم الأخلاق العامّة. سترين إذا لم يجد لديكِ في الأسفل التهاباً في الغدد اللِّيمفاويّة. سينتهي بكِ الأمر مسجّلة في قوائم الشرطة. ثمّ مع صحيفتكِ الجميلة كعاهرة، في أحد

منازل البِغَاء. وبعد خمسة عشر يوماً سيأخذونكِ إلى مدينة أخرى، مع الفاسقات الأخريات، للتسلية مع تنوُّع زبائن جدد. لن يستغرق الأمر طويلاً لأتخلَّص منكِ.

عندما يعود حفيدي لن يعرف أين يذهب للبحث عنكِ".

كنتُ أختنق تقريباً من الاستياء، وكنتُ مندهشة أيضاً من استخدامها لكلمات مبتذَلَة كهذه. لم أُصدِّق أيّاً من التهديدات التي وجّهتْها لي. كانت تريد إفزاعي فحسب. مَنْ يدري إذا كانت حقيقيّةً تلك القوانينُ التي ذكرَتْها. وعلى أيّة حال أنا لم أرتكب سوءاً. "لا تفعل السوء، لا يأتيكَ الخوف"، كانت جَدّتي تقول.

فَتَحْتُ الباب بصمت، وخَرَجْتُ.

كانت رينونشيا في الخارج تحاول الإنصات. "لم تتّفقا؟" سألتْني، "لقد أخطأتِ، سوف تجعلكِ تندمين".

"وما شأنكِ أنتِ؟"

"أقوله لصالحكِ".

"لتذهبا إلى الجحيم، أنتِ وسيّدتكِ!" انفجرتُ. قطعتُ الرواق سريعاً، وخَرَجْتُ من باب الخَدَم صافقةً إيّاه بقوّة خلفي.

كنتُ في قمّة الغضب. لو لم يكن الوقت متأخِّراً هكذا، لكنت هُرعتُ إلى الآنسة استر لأبوحَ لها. كنتُ سأفعل هذا في اليوم التالي. وفي تلك الأثناء، بينما كنتُ أسير إلى المنزل، كنتُ أستعرض في ذهني كلّ التهديدات التي تلقَّيتُها، واحدة تلو الأخرى، الصريحة منها والمبطَّنة، لأُطمئِنَ نفسي، لأقول لنفسي إنها تُرّهَات، ولن يصدِّقها أحد. أسونتينا ابنة غير شَرعِيّة لي! لكنْ، إن لم يكن الجميع في الحَيِّ يعرفون والدتها، بمقدور المعلِّمة أيضاً أن تشهد. وبمقدور الجارات أن يقلنَ إن قماش أفضل ثيابي يعود إلى ثياب الآنسة إستر المستغنى عنها، وقد فُكَّتْ وأُعيد تصميمها على يدي، في هيئة أكثر تواضعاً، كما فعلت جَدّتي قبل ذلك بأعوام

طوَالَ. كنتُ قد واءمتُ بعضاً منها لهنّ أيضاً، مقابل قليل من المال، عندما لم تكن بذات فائدة لي.

لكنْ، كان هناك شيء يطنٌ بداخلي، كصوت بعوضة واهٍ، يطرح أمام ذاكرتي أمراً آخر، اسماً آخر ... لم أستطع أن أتذكَّر ماذا، كيف، لكنْ كانت هناك ذكرى مبهمة للغاية. مرتبكة تماماً. أم ربّما كنتُ، بعد ذلك النهار الذي لاقيتُ فيه من كلِّ الصنوف، مرتبكة تماماً، ومتعبة للغاية، كي يمكنني إدراك تلك الصلة.

كانت أسونتينا قد جهّزت الطاولة، وتُسخِّن العشاء. كانت تلوي وجهها، كما لو أنها قد فهمت أني اتّخذتُ بالفعل الخطوات الأولى للتّخلِّي عنها. وَقَعَ نظري على ضفائرها، الرفيعة كذيل الفأر، والتي تعلَّمت هي مؤخّراً أن تعقدها بمفردها كلّ صباح، وكانت فخورة بها للغاية، وفكَّرتُ في اللحظة التي سيقصُّونها لها فيها. أكلْنا في صمت، وذهبْنا مباشرة إلى الفراش. وكالعادة غرقتْ هي فوراً في النوم، وكنتُ أنا أتقلَّب قلقة بين الأغطية. اضطررتُ لمواجهة أشياء زائدة عن الحَدِّ في يوم واحد فقط، واحدة تلو الأخرى، اكتشافات

مريرة مفرطة، مشاعر مفرطة، اختيارات مفرطة، ولم أكن أستطيع طَمأنَةَ نفسي. كان يبدو لي أن جويدو لم يرحل في ذلك الصباح ذاته، بل منذُ فترة طويلة. وأنه قد اختفى من حياتي إلى الأبد تاركاً إيّاي وحدي لمواجهة كلِّ ذلك الألم، كلِّ ذلك الندم، تلك الصعوبات، وذلك الغضب العاجز. لا بدّ أنه قد وَصَلَ بالفعل إلى تورينو. ربّما كان يتناول العشاء في مطعم جميل، برفقة أصدقائه الطُّلَّاب، أو في أحد منازل السادة، جالساً إلى جوار فتياتهم الأنيقات، المهذّبات، ذوات الأيدي الناعمة، صاحبات المهر المعتبر، المَرضِيّات لجَدّته. ربّما اكتفى منِّي بالفعل، ومن المشكلات التي يمكنني أن أُسبِّبها له، والتي سبّبتُها له بالفعل. ربّما ندم على وعوده لي. ولن يعود أبداً. بكيتُ حتّى بلّلتُ الوسادة، ودخلت أخيراً في نوم واهٍ. حلمتُ أن جَدّتي تحاول أن تُخبرَني شيئاً، كما حَدَثَ في الليلة التي ماتت فيها الميس الأمريكية، لكنْ، قبل أن أتمكَّن من فَهْم معنى كلماتها لي، استيقظتُ لاهثة. رأيتُها أخيراً تخلع من رقبتها القلادة الصغيرة، وتلفُّها عدّة مرّات حول إصبعها. شعرتُ براحة كبيرة. لقد جاءت لتُذكِّرني بالخاتم، وأن جويدو أهداني خاتم والدته، وأن نواياه شريفة، وأنه يحبُّني

وسيحميني من أيِّ خطر. بعد أن واساني هذا التفكير، نجحتُ في النوم لبضع ساعات، نوم عميق وبدون أحلام. لكنْ، قبل الفجر بقليل عادت جَدّتي. كانت تحمل في يدها شيئاً من الذهب المصمت، علبة سيجار. ونطقت كلمة واحدة "أوفيليا"، ثمّ اختفت.

استيقظتُ على الفور. ها هي تلك الذكري المبهمة، طنين البعوضة الواهي. أوفيليا، ابنة عمِّ جَدّتي التي اتّهمها ربُّ المنزل بالسرقة. تلميح دونّا ليتشينا حول مجوهرات ابنتها. الخاتم. إذا جاؤوا حقّاً، فسيجدونه في المنزل. لن يُصدِّقوا أنني حَصَلْتُ عليه كهدية من جويدو، وهو ليس موجوداً ليُؤكِّد ذلك. سوف يحملوني إلى السجن. ينبغي أن أُخفيَهُ. فوراً. وثبتُ خارج الفراش. دون أن أقلق لإيقاظ أسونتينا، أو كشف مخبئي لها، أخذتُ المقعد، صَعِدْتُ أعلاه، بحثتُ متلمِّسة التجويف. لم تكن علبة الحليب في المكان المعتاد. وَثَبَ قلبي في صدري، وكأنه سيخرج من فمي.

استيقظتِ الفتاة على هذا الضجيج، وكانت تنظر إليّ بفضول كبير من فراشها.

"هل دخل أحد إلى المنزل أمس عندما كنتُ بالخارج؟" سألتُها بفم جافٍّ من القلق.

"لا. لماذا؟"

"عندما خَرَجْتِ لِلَّعب، هل أغلقتِ جيّداً، بالمفتاح؟"

"أنا أغلق دائماً".

"وبعد ذلك، عندما عدتِ، هل تبعكِ أحدهم؟"

"لا. لا أحد".

أخذتُ نَفَساً عميقاً لتهدئة نفسي، وقفتُ على أطراف أصابعي، مددتُ ذراعي، ودفعتُ يدي إلى الأمام ها هو! كانت علبة الحليب خلف تمثال العذراء الصغير. كانت فقط أبعد قليلاً عن مكانها المعتاد. مَنْ نَقَلَهَا؟ ربّما أنا بنفسي، عندما وضعتُ بداخلها

الخاتم منذُ ليلَتَيْن. تناولتُها براحة عظيمة، نزعتُ الغطاء، بحثتُ بين الأوراق النّقْدِيّة والعملات المعدنية. بحثت وبحثتُ قبل أن أستسلم. لم يكن الخاتم موجوداً.

كانت أسونتينا قد نهضتْ وتنظر إليّ، واقفة على العتبة، وهي تضمُّ إليها ثوب النوم بسبب البرد. لم يكن يبدو عليها القلق. لم تكن حتّى مندهشة لاكتشافها سرِّي. كانت تحدِّق بي، وتظهر على وجنتها اليمنى ارتعاده خفيفة للغاية، قريبة من فمها، كما لو أنها تمنع تعبيراً بـ ... استهزاء؟ ثأر؟

"هل أخذتِهِ أنتِ؟!" صَرَخْتُ. لكنْ، كيف وَصَلْتِ إلى هناك في الأعلى؟ وعلى الفور حَصَلْتُ على الجواب. لم ألاحظ ذلك الليلة السابقة. كنتُ متعبة ومضطربة للغاية. كان المقعد الخشبي الصغير الذي يقبع عادة في الفناء إلى جانب المنشر موجوداً بجوار فراشها. وبينما كنتُ أنا في بناية ديلسوربو، وبالرغم من مخاطرة السقوط وكَسْر رأسها، وضعتْهُ أسونتينا أعلى المقعد، للتّسلُّق. لولا ذلك لما استطاعت أبداً بلوغ التجويف.

"أين الخاتم؟ أين وضعتِهِ؟ أعطِهِ لي".

"لم يعد موجوداً".

أوه، يا إلهي، أتوسّل إليكَ، أتوسّلُ إليكَ ألَّا تكون قد أخذتَهُ لتلعب به لعبة الحجارة الخمس أو العالم على الرصيف، وفَقَدْتَهُ. أو أن تكون حَمَلَتْهُ إلى جبل التقوى. لكنْ، لا، لن يقبلوا بأشياء ثمينة من طفل. ماذا لو كانت قطعة مجوهرات!

"أين وضعتِهِ؟"

نظرتْ إليّ بتحَدٍّ. "أنتِ تحبّين ذلك الشخص الذي أعطاكِ إيّاه أكثر منّي".

شقيّة لعينة! سأخنقها. قفزتُ من فوق المقعد، أمسكتُها من كتفَيْها. "إذنْ؟ إذنْ؟ هل أنتِ وَليّةُ أمري؟ أين وضعتِهِ؟"

انفجرتْ بالبكاء، لكنها كانت لا تزال تهزُّ رأسها لتتحدّاني: "لن أخبرَكِ."

ولم تخبرْني. بحثتُ عنه طَوَالَ الصباح على أمل أنه لا يزال في المنزل. "المنزل لا يُسرَق، بل يُخفي" كانت جَدّتي تقول، وكانت تنجح بأداء صلاة للقدِّيس أنطونيو في العثور على أيِّ شيء مفقود. لكنني لم أكن أعلم إذا كان الخاتم لا يزال في المنزل، أو إذا كانت أسونتينا في عصر اليوم السابق، بينما كنتُ عند دونّا ليتشينا، ولتهينني، قد حَمَلَتْهُ خارج المنزل. ربّما فَقَدَتْهُ في غطاء بالوعة، أو بادلتْهُ ببلية، أو ألقتْهُ في قاع فتحة الصّرْف المغطَّاة بغطاء رخامي مستدير، والتي كانت تستخدمها هي ووالدتها في مسكنهما الأرضي، لقضاء حاجتهما. ربّما سحقتْهُ بحجر. ربّما ابتلعتْهُ، لتُغضبني.

لكنّ شيئاً كان يقول لي لا، الخاتم لا يزال في المنزل في مكان ما. لما كانت جَدّتي ستأتي لتحذيري من خطر أن يعثروا عليه إذا كان قد اختفى فعلاً؟

كانت أسونتينا صامتة، متدثِّرة بثوب النوم. كانت تنتظر أن أضربَها، لأحملَها على الحديث، وتتأهّب لمقاومتي. لكنني لم أضربها. كنتُ أشعر بغضب بارد يختلف عن الثورة الحارقة لتلك الليلة التي أخرجتُها فيها من البحر المظلم ممسكةً بها من شَعْرها.

"لن تخرجي من هنا إذا لم يظهر الخاتم"، قلتُ لها دون أن ألمسَها.

"يجب أن أذهب إلى المدرسة"

"انسي ذلك. لن تخرجي ولن ترتدي ثيابكِ".

بل إني جرّدتُها أوّلاً من ملابسها دون أن أقلقَ لإصابتها بالبرد، وفتّشتُ في جميع أنحاء جسدها، فَكَكْتُ حتّى ضفائر شَعْرها، على الرغم من أنها كانت هزيلة للغاية لتُخفي ما كنتُ أبحث عنه. أوقفتُها على مقعدٍ آمرة إيّاها بعدم النزول، وقلبتُ فراشها، المُلَاءَة، الوسادة، الأغطية، سريرها. مررتُ بالمكنسة أسفل منه، وتمدّدتُ

على الأرض للتّحقُّق من أنه لا يوجد شيء على الأرض. ثمّ حملتُها، عارية كما هي، ووضعتُها على الفراش، وغطَّيتُها بالمُلَاءَة التي عقدتُها على سارِيَتَي الحافَّتَيْن، بحيث لا يمكنها التّحرُّك. كانت هي، باستثناء البرد، تبدو مستمتعة تقريباً، كما لو كانت تشهد لعبة. كانت تتبعني بعينَيْها بينما أنا أفحص ببطء الغرفَتَيْن والمطبخ شبراً بشبر. كانت الشُّقَّة صغيرة، لكنها تمتلئ بالأثاث والأشياء؛ آرائك جَدّتي الصغيرة الخاصّة بالزبونات، المرآة الطويلة، أدوات الخِيَاطَة، الماكينة ذات المقبض، خزائن أدراج الخيط والأزرار، صناديق القُصَاصَات، وتلك الخاصّة بأوراق التفصيل، وفي المطبخ الطناجر، أدوات الطهو، دلو الفحم، زجاجات المنظِّف، جوال البقول الجافَّة، وآخر للبطاطس.

الخاتم هو شيء صغير، يمكن إخفاؤه في أيِّ مكان، لكنّني كنتُ عازمة على تكريس كلِّ الوقت اللّازم للبحث عنه، دون أَكْل، أو شرب، جاثية على رُكبَتَيّ على الأرض، وواقفةً على أطراف أصابعي لفَتْح الشبابيك العالية، متوسِلة باستمرار لجَدّتي وللقدّيس أنطونيو.

جاء منتصف النهار، وكانت أسونتينا صائمة مثلي، لا بدّ أنها كانت تشعر بالجوع والعطش، لكنها لم تفتح فمها لتطلب.

"قولي لي أين هو! إذا لم تتحدّثي، سآخذكِ إلى دار الأيتام"، أردتُ تهديدها. لكنْ، لم يكن لديّ الشجاعة. كنتُ سأحملها إليها على أيّة حال، حتّى لو تحدّثتْ. لكنْ، في تلك اللحظة لم أكن أشعر بأيِّ ذنبٍ تجاهها، بل كانت نظرتها التي تتعقّب كلّ حركاتي تستفزُّني حتّى إنني أخذتُ ثوبها من فوق المقعد، نفضتُهُ، مرّرتُ أصابعي في جميع الطَّيّات، بطول الخِياطَة، وتحت الياقة، لأتأكّد من أنها لا تُخفي شيئاً، ورميتُهُ لها على الفراش، ثمّ فَكَكْتُ عقدتَي المُلَاءَة، كي تتمكّن من النهوض. "ارتدي ثوبكِ، وانتظري في الشارع". لم أعطِها ثيابها الدّاخليّة، ولا حذاءها. "اخرجي!"

"الجوُّ بارد" احتجّتْ. سَمَحْتُ لها بأَخْذ الشال بعد أن نفضتُهُ، وأغلقتُ الباب خلفها. استأنفتُ بحثي مفتِّشة الزوايا بفرشاة. كنتُ ذات مرّة أُسلِّم عملاً في منزل عائلة من اليهود خلال أحد أعيادهم، ورأيتُ النساء جاثيات على ركبهنّ ينظِّفنَ الأرضية في

محاولة لإخراج أيِّ كسرة خبز مخبّأة مستعينات بريشة. أوضحنَ لي أنه يجب عليهنّ تطهير المنزل للاحتفال بما لا أدري كُنهه. ما كنتُ أبحث أنا عنه كان أكبر من كسرة الخبز، لكنني لا أراه في أيِّ مكان. واصلتُ البحث في كلِّ سنتيمتر تلوَ الآخر.

بعد حوالي ساعة، سمعتُ طَرْقاً على الباب. "اخرجي!" صرختُ، ظنّاً منّي أنها أسونتينا التي تريد الدخول. لكن الدّقّات تضاعفت، وصاح صوت ذُكُوريٌّ: "افتحوا! الأمن العامُّ!"

استقمتُ، وقفتُ، ووَجِلَ قلبي. لم تضع العجوز الشمطاء وقتاً، وأبلغتْ عنّي حقّاً. أرسلتْ لي رجال الشرطة. ماذا يمكنني أن أفعل؟ ارتديتُ تنُّورةً فوق قميص النوم، وذَهَبْتُ لأفتحَ، وأنا أرتِّب شَعْري. عندما رأيتُهم أدركتُ أنني لم أعد خائفة، وأن في داخلي هدوءاً عظيماً، نوعاً من الاستسلام للقَدَر. ليحدث ما سيحدث. نحن أوراق جافَّة في مهبِّ الريح.

جاء اثنان منهم. كنتُ أعرف كليْهما، لأنهما كانا هما مَن استجوباني عندما ماتت الميس. أحدهما أكبر سنّاً من الآخر بكثير، لديه قليل من الشّعْر وبطن كبير مشدود بحزام الزّيّ الرّسميّ. والآخر شابٌّ، مُهندَم، أنيق تقريباً. كنتُ أذكر الأوّل لطريقته الحليمة، الصبورة والمازحة بين الحين والآخر، بينما كان الثاني بارداً، محتقراً، قاسياً وعدوانياً بشَفَتَيْه الرّفيعَتَيْن كجرح يمتدُّ غالباً في ابتسامة قاسية. كان شخص ما قد قصّ عليّ أن القانون يُجبر رجال الشرطة على العمل في أزواج، وأنهم يُوزِّعون أدوار الخير والشّرِّ بينهم كما لو كانوا في مسرحية. لكنْ، بدا لي، آنذاك، أن الأكبر سنّاً كان حقّاً رجلاً هادئاً وعطوفاً، وأنه يمارس الشِّدّة على مَضَض عند الضرورة. لقد واساني بطريقة أبوية عندما رآني أبكي يائسة لموت الميس. كان الأصغر سنّاً هو مَن أرادني أن أفهم أن عادة قراءة الروايات تجعل مني شابّة يُشتبه في عاداتها السّيّئة، تجعلني "مصدر خطورة"، كما تصف القوانين وسيّدات الإحسان، وبالتالي شاهدة يصعب الوثوق بها.

خلفهما كانت تقف أسونتينا، التي سرعان ما تسلَّلت إلى الداخل، وذَهَبْتْ مباشرة إلى المطبخ، لتأخذ قطعة من الخبز، ثمّ مكثتْ تلوكها إلى جوار الحوض متابعة بنظراتها بانتباه ما يحدث. أدركتُ أنني بين يَدَيْهَا. إذا أظهرت لرجال الشرطة أين أخفت الخاتم، فقد ضعتُ.

"هل كنتِ تقومين بأعمال تنظيف شامل؟" سألَني الرجل الأكبر سنّاً وهو يرى الأثاث مقلوباً رأساً على عقب. ولفتت انتباهه ماكينة الخِيَاطَة. من الواضح أنه لم يرَ قطُّ ذلك النوع ذا المقبض. اقترب منها، ولمسها، وحاول أن يدير العجلة التي كانت مثبتة في مكانها. نظر الشّابٌ حوله بعينَيْن متفحِّصَتَيْن. عدّل وَضْع إحدى آرائك جَدّتي الصغيرة التي كنتُ قد قلبتُها. رفع إصيص اللَّقْلَقِيّ من الصحن الصغير، ونظر تحته.

في هذه الأثناء جلس الكهل إلى طاولة المطبخ، وأخرج بعض الأوراق. "إذنْ، يا فتاة، توجد شكوى بحقّكِ". قالها كما لو أن الأمر يؤسفه.

لن أقصّ تفاصيل الاستجواب وما أعقبه. لا تزال الذكرى تحمل لي، بعد أعوام طوَالَ، إحراجاً كبيراً، خجلاً عنيفاً، كما لو أنني قد فعلتُ آنذاك حقّاً شيئاً أخجل منه.

باختصار، كما هدّدتْني دونّا ليتشينا، كانت تتّهمني بأنني بَغِيٌّ تمارس مهنتها سرّاً، مُخفيةً إيّاها تحت ستار حِرْفَة الخِيَاطَة. وأنني قمتُ باستغلال الخصوصية التي انتزعتُها بحيل مشينة من طالب ينتمي لعائلة ميسورة، لأسرق منه مجوهرات وأشياء قيّمة غير محدّدة بالضبط.

بشأن الاتِّهام الأوّل - " المعروف عموماً"، كما هو مكتوب في الشكوى - أخبرني الشّرطيّ الأكبر سنّاً على الفور أنه لا يُصدّق، بل إنه وجده سخيفاً، لأنه كان يعرف جَدّتي، ولأنه كان يُبقيني تحت الملاحظة لأعوام كما يفعل مع جميع سُكّان الأزقّة الفقراء الذين يعيشون ملاصقين للأثرياء، ويتعرّضون لجميع أنواع الإغراءات. ولأنه كان يعرف العائلات التي أعمل لحسابها، وأنني لم أبقَ خاملة قطُّ، وكيف كانت عاداتي. لم يكن ذلك الشّابُّ، الذي وفد إلى

مخفر منطقتنا في وقت لاحق، مكتفياً بسُمعتي الجيّدة، أراد التّحقُّق، الاستماع إلى الشهود المذكورين في الشكوى. وبالأخصّ، كان يطالب بأن أخضع لفحص طبِّيٍّ. لا أعرف إذا كان لأجل متعة خبيثة في تخيُّله، حتّى وإن لم يكن بمقدوره حضوره، أم إذا كان ذلك لإذلالي، "ليجعلَني أتخلَّى عن كبريائي" كما كان يقول لي، ليُخيفَني بعد أن قرأ في عينَيّ الفزع والرعب أمام تلك الفكرة.

"لماذا تبكين؟ إذا لم يكن لديكِ ما تخافين منه؟!" قال لي ساخراً. أن يُنتهكَ حيائي كان أمراً غير مهمٍّ بالنسبة إليه. بل، ربّما كان هذا ما يُمتّعِه، ويثير أسوأ غرائزه الذُكوريّة. كما استمتع فيما بعد بالإمساك بي، ولمس كلّ جسدي، بحجّة البحث عن المجوهرات المسروقة.

كان ما أنقذني من الفحص الطِّبِّيِّ ومن الاتِّهام الأوّل تماماً هو وجود ماكينة الخِيَاطَة. كان الشّرطيّ الكهل يشعر بالإحراج أكثر منِّي تقريباً من أساليب زميله، وكان يبحث عن أيّة ذريعة للدفاع

عنِّي، سارداً كثيراً من النقاط التي تُبرِّئني، والتي كان الآخر يطعن فيها على الفور بشكوكه. عند نقطة ما، وبعد نفاد كلِّ الحجج، استشهد الشّرطيّ الكهل بنصٍ حُكْم، حُكْم محكمة قديم يعود إلى أولى سنوات خدمته، □□ فبراير□□□□. كيف أتذكَّر هذا التاريخ والتفاصيل الأخرى بمثل هذه الدِّقَّة؟ لأن ذلك الحُكْم أنقذني من العار. أتذكَّره، لأنه بفضله لم أضطرّ لكشف أعضاء جسدي الدّاخليّة، وتركها يُعبَث بها هناك في الداخل على يد شخص غريب، رجل وإن كان طبيباً، ربّما دَفَعَت له دونّا ليتشينا لكي يكذب. لم تكن تلك أزمان يمكن فيها لشابّة شريفة وذات سلوكيات حميدة أن تعانيَ تعدِّياً كهذا دون أن تُوصَمَ به إلى الأبد، في أعماق نفسها وفي نظر الآخرين، مهما كانت نتيجة الفَحْص.

المادة□□ من قانون كافور الساري آنذاك، قال الشّرطيّ الكهل لزميله، تنصُّ على: "إذا أبدت أيُّ عاهرة نِيّة التّخلِّي عن البِغَاء، ينبغي أن يُبلِّغ الماخور على الفور مدير مكتب الصِّحّة، الذي سيقوم بتشجيع تنفيذ هذا القرار المتّخذ". إضافة إلى تشجيعها على إنقاذ نفسها، كان ينبغي على العاهرة أن تُظهِر قدرتها، منذُ تلك

اللحظة فصاعداً، على الحياة بشرف، إمّا بالزواج أو العودة إلى منزل الوالدَيْن أو بممارسة عمل تقتات منه. من بين هذه الأعمال، اعترض الزميل الشّابُ ساخراً، لا يمكن الاعتداد بذلك الخاصّ بالخِيَاطَة، نظراً لأن غالبية "المرخَص لهنّ" - كانا يعرفان ذلك من خبرتهما -، ينتمينَ إلى جموع العاملات، والخادمات أو الخَيّاطَات، وهي حِرَفُ كلُّها لم تكن توفِّر لهنّ بجلاء موارد كافية لحياة كريمة. لخِيَاطَة يدوية بسيطة ربّما لا، أجاب منتصراً المدافع عنّي، لكنْ، في نصِّ الحُكْم الذي ذَكَرَهُ، أجازت سلطات منطقتنا للعاهرة فلانة حَذْف اسمها من سجلّات الشرطة، لتوقُّفها عن النشاط، بفضل، وفقط لأجل ذلك، امتلاكها ماكينة خِيَاطَة.

كان واثقاً للغاية في الاستشهاد بالوقائع والقانون ونصّ الحُكْم، بالتواريخ والكلمات الدقيقة، وفي إبراز حداثة سنِّ وقلّة خبرة الزميل، حتّى إن الأخير لم يتمكّن من الرّدِّ عليه. فيما يخصُّني، أعترف لكم أنني كنتُ أجد الفكرة مبهَمَة إلى حَدٍّ ما. فحتّى قبل أن أُظِهرَ اشتغالي بالبِغَاء، كنتُ أُعلن عن جدارتي لتَرْكه. لم أسجّل قطُّ في تلك السِّجلّات، لكن الأمر كان يبدو وكأنني قد حُذفت

منها آنذاك. وكلُّ ذلك لأنه كانت توجد في منزلي أداة العمل التي أهدتْني إيّاها الآنسة إستر. لم يكن المنطق سليماً، لكنْ، لأنه كان يصبُّ في صالحي، كنتُ حريصة على عدم حَمْلِهِ على ملاحظة هذا.

للأسف لم يكن التّخلُّص من الاتِّهام الثاني يسيراً كهذا. في الصباح، قبل أن يطرقوا بابي، ذَهَبَ كلا الشّرطيّيْن إلى جبل التقوى للتّحقُّق من أنني لم أتخلَّص بالرّهْن من المجوهرات المسروقة. بعد أن حَصَلَا على إجابة بالنّفْي، ذَهَبَا لاستجواب جميع مخبري الشرطة والمتاجرين بالمسروقات في المدينة. لم يكن يعرفني أحد منهم، لم يشترِ أحد منِّي أيّ شيء في الأيّام القليلة الماضية، كما لم يحدث في الماضي. لا بدّ أنني لا أزال أرتدي المسروقات أو أُخبِّئها في المنزل. فتّشني الشّرطيّ الأصغر سنّاً، كما قلتُ من قبل. وقام الآخر بتفتيش أسونتينا، وعلى الرغم من أنني كنتُ متيقِّنة أنا نفسي من أنني لا أرتدي الخاتم، إلَّا أن تلك كانت بالنسبة إليّ لحظة خوف عظيم.

سألا الطفلة منذُ كم من الوقت تمكث معي في المنزل، ولأيِّ سبب. كانا يعرفان مَنْ هي، وكانا يعرفان زيتا، لكنْ، كان دخولها المستشفى حديثاً للغاية، ليعلما به. سألاها إذ كانت قد رأتْني أُخفي شيئاً، ولكنها نَفَتْ، بأكثر تعبيرات الوجه براءة في العالم.

استمرّ الكهل في الدوران حول ماكينة الخِيَاطَة.

"هل تساوي الكثير؟" سألَني. " أودُّ أن أُهدي واحدة مثلها لزوجتي".

"لا أعرف. أنا أيضاً حَصَلْتُ عليها كهدية".

"من أحد العُشّاق؟" ألمحَ الشّرطيّ الشّابُّ، "مَنْ يقدِّم لكِ هدايا غالية هكذا. ثمّ في مقابل ماذا؟"

"أعطتْني إيّاها الماركيزة الشّابّة استر أرتونيزي. ويمكنكما أن تسألاها".

رأيتُهُ يلوي فمه، ويُعلِّق بصوت خفيض: "تلك لا تُنذِر بخير". ثمّ طَلَبَ منِّي أن أفتح كلّ أبواب الآلة، ودسّ أصابعه داخلها، وأن أقلبها لأُبيِّن التروس، التي كانت مكشوفة، ليكون من الممكن تشحيمها. كان الآخر يتابع هذه العمليات باهتمام.

"ترى أنه لا يوجد شيء بالداخل. ولن يكون هناك متّسع لوضع قلادة أو سوار".

"ربّما يوجد، ها؟". قال الشّابُّ الخبيث. "هكذا يمكننا الاستيلاء عليها كجسم الجريمة، ثمّ ستختفي، كما هي، من المخفر، وينتهي بها الحال في غرفة جلوس زوجتكَ".

ثمّ توجّه إليّ بنبرة تهديد: " إذا لم تخبرينا أين وضعتِ المجوهرات ستواجهين وقتاً عصيباً. سنجدها في نهاية المطاف، ماذا تظنِّين؟ من الأفضل لكِ ألّا تجعلينا نُضيّع الوقت".

"لم أسرقْ شيئاً. لم أُخفِ شيئاً".

"إذنْ، عليك أن تصحبينا إلى المخفر. سنضع الأختام على الشُّقَّة، وسنرسل زملاءنا للتفتيش كما يجب أن يكون. لسنا في عجلة، ولكنْ، يجب أن نجدها بالطبع".

أدركتُ أنهما كانا خائفَيْن من العودة إلى رؤسائهما في العمل بأيدٍ خاوية. لا بدّ أن دونّا ليتشينا قد حرّكت حقّاً أكثر الأشخاص أهمِّيّة في مدينتنا.

سَمَحَا لي بارتداء ثيابي، في وجودهما، وأن أحملَ معي غياراً داخلياً. "أحضري معكِ السترة الصوف والشال الثقيل، فالجوُّ بارد في نقطة الإيقاف"، قال لي الشّرطيّ الأكبر سنّاً. سألتُ إذا كان بمقدوري أيضاً أن آخذ ما أخيطه معي، لتمضية الوقت. فقالا لي إن الإبر والمقصّات غير مسموح بها في زِنْزَانَةِ التّحفُّظ. " إذنْ، كتاب ..." أوشكتُ أن أسأل، لكنني تذكَّرتُ على الفور ما قاله لي الشّرطيّ الأصغر سنّاً وقت حادثة الميس، فَصَمَتُّ.
في هذه الأثناء، ارتدت أسونتينا الجوربَ والحذاء، نزعتْ غطاء الوسادة، وبدأت في إعداد صُرّتها.

"ماذا تفعلين؟ أتنوين مرافقتنا أنتِ أيضاً إلى نقطة الإيقاف؟ لا نريد مزعجين"، قال لها الشّرطيّ الأصغر سنّاً بضحكة قاسية. وجّه له الكهل نظرة لوم. "لا يمكن للطفلة أن تبقى هنا، ولا يمكنها العودة إلى منزلها. الوالدة في المستشفى، ألم تسمع؟" ثمّ سألني. "هل هناك جارة يمكنها الاعتناء بها؟"

"احملاها إلى ماريا بامبينا"، أجبتُ. "إنهم في انتظارها. لقد أعددتُ الأوراق بالفعل".

وجّهتْ لي أسونتينا نظرة مندهشة، نظرة اتِّهام ولوم لخيانتي، وأسى عميق في الآن ذاته حتّى إنني شعرتُ بالألم باتِّجاهها، وذاب كلُّ الاستياء الذي كنتُ أشعر به نحوها بسبب الخاتم في صدري.

مكثتُ في زِنْزَانِةِ تحفُّظ المخفر لثلاثة أيّام، قام خلالها فريق مكوّن من خمسة شرطيّيْن بتفتيش شُقَّتي شبراً بشبر، مستكملين بمنهجية البحث الذي كنتُ قد بدأتُهُ. مع فارق، ونقيصة، أنهم

كانوا لا يعرفون بالضبط ما الذي يبحثون عنه. تحدّثت دونّا ليتشينا في الشكوى عن مجوهرات بشكل عامٍّ دون سَرْدها أو وَصْفها. كانت تعلم أن جويدو قد أخذ من الخزانة الصندوق الحديدي الذي كان يخصُّ والدته، لكنها بعد أعوام طوَالَ لم تكن تتذكَّر محتواه، وكانت تجهل، بالأخصِّ، أن حفيدها قد أهداني فقط ذلك الخاتم، الأكثر تواضعاً، ذا القيمة العاطفية أكثر من الاقتصادية. على العكس من ذلك، كانت هي على يقين من أنني جَعَلْتُهُ يعطيني - إن لم يكن كلّ شيء - القِطَعَ الأكثر أهمِّيّة وقيمة، تلك الموروثة من جَدّات ديلسوربو، وكانت تُصرُّ، كي يعثروا عليها.

عندما وَصَلْتُ إلى المخفر، كانت زِنْزَانَةُ التّحفُّظ، حيثُ يوجد فراشان قابلان للطَّيِّ، مشغولة بالفعل. وجدتُ رفيقة غريبة جالسة مع كتاب في يدها إلى جوار النافذة ذات القضبان، امرأة ثلاثينية، شقراء للغاية، ذات ثياب جيّدة وأساليب مهذّبة، تتحدّث بلُكْنَة أجنبية. تساءلت كيف توجد هنا، كنتُ أتوقَّع أن تعاملَني بازدراء، وعلى النقيض كانت لطيفة معي، ساعدتْني على ترتيب حالي،

ووَصَفَتْ لي قواعد وعادات المكان. لم تكن المرّة الأولى التي تقضي فيه بضعة أيّام. وزادتْ دهشتي عندما قصّت عليّ بأُلفة كبيرة، مفسِّرة لي ذلك التّعوُّد، بدون أدنى إحراج أو خجل أنها عاهرة، "مرخّص لها" تمارس المهنة في الماخور المتميّز، أي ذلك الأنيق، في مدينتنا، وأنها بسبب ذهابها لزيارة ابنها في الريف، ابتعدت عن مكان العمل ليومَيْن أكثر ممَّا أذنتْ لها به القوّادة. هذا هو سبب اعتقالها الحالي. في مرّات أخرى، انتهى بها الأمر في التّحفُّظ لأسباب مختلفة، كانتهاك واحدة أو أخرى من القواعد الثلاث والعشرين التي سُجِّلت في صحيفتها، كما يُفعَل مع كلِّ صحيفة صحِّيّة، تخصُّ زميلاتها. "قواعد مكتوبة"، علَّقت بسخرية، "إذا لم تكن أيٌّ منهنّ تستطيع القراءة، فأنا الذبابة البيضاء وسطهنّ، ستدركين ذلك". كان أصلها يعود إلى شَمال إيطاليا، وقد جاءت إلى ناحيتنا لأجل "العمل" باسم زائف، لتُجنِّب عائلتها الأصلية العار. شَرَحَتْ لي، بعد أن رأت أني أنظر بفضول إلى الكتاب الذي تحمله، وأحاول قراءة عنوانه، أنها درست لتصبح معلِّمة، وبدأت التدريس في مقرٍّ في الجبل، لكن الراتب كان زهيداً للغاية، ثمّ أغواها المدير، الذي كان متزوِّجاً، ويغازل كلّ

المعلِّمات الشّابّات، وصارت حُبْلَى ... بعد الوَضْع تقدّمتْ بطَلَب طوعيٍّ للتسجيل في سجلّات الأمن العامِّ، وتسليمها لأحد دُوْر البِغَاء.

"وبهذا أصبح لديّ سقف آمن يُظلِّلني، ويمكنني إعالة ولدي"، قالت بسخرية هادئة، وأضافت بضحكة ساخرة: "ثمّ أنا الآن أيضاً موظَّفة في الدولة، تماماً كما كنتُ من قبل. يصلُني من الرسوم التي يدفعها الزبون، والتي يحدِّدها القانون الربع فقط. تذهب البقية إلى الضرائب، والإدارة العامّة، وحصّة القوّادة، والنفقات. لكنني أدفع للفحوص الإلزامية من جيبي. لحسن الحظِّ يكثر الطَّلَب عليّ. أقوم بذلك أكثر من عشر مرّات في اليوم، أتعلمين؟ الشقراوات مطلوبات هنا".

كانت تبدو مستمتعة بدهشتي أمام كلِّ هذه التفاصيل التي لم أكن لأتخيّلها قطُّ، أمام الرعب الذي لم أتمكّن من إخفائه وأنا أسمعها تذكر الزبائن، والرسوم، والأداء.

"أتعلمين ماذا؟" اختتمتْ. "إنها حياة بالغة المَلَل. لا أعرف كيف يمكنني التّحمُّل بدون رواياتي". ومدّتْ نحوي تلك التي كانت في يدها، "إنها جميلة للغاية، لقد انتهيتُ للتّوِ من قراءتها. إذا أردتِ أُعيركِ إيّاها، لاحظتُ أنكِ تعرفين القراءة أنتِ أيضاً. أو الأفضل، عندما نعود للمنزل بعد ثلاثة أيّام، سأتركها لكِ، سأهديكِ إيّاها".

تَرَكَني هذا اللقاء في حَيْرة. مثل كلِّ الشّابّات اللّاتي تربّين في أُسر فاضلة، كبرتُ وأنا أشعر بالرعب من النساء اللّاتي يبعنَ أنفسهنّ. فيما بعد، بعد أن رَوَتْ لي جَدّتي قصّة أوفيليا، تحوّل الرعب إلى ألم. كان يبدو أن هذه المرأة الأنيقة والمتعلِّمة، التي لا تخجل من نفسها، غير آبهة بشفقتي.

قَضَتْ عصر اليوم الثاني معنا عجوز سِكّيرة، كانت قد انفجرت في نوبة غضب عنيف، وضربت حُوذيّاً، وأُطلق سراحها قبل حلول الليل. وفي اليوم الثالث، جاءت متشرِّدة، يصعب تحديد عُمُرها، تمتلئ بالقمل، وترتدي أسمالاً تخشّبت من القذارة، حافية

القَدَمَيْن. كان جِلْد قَدَمَيْها سميكاً، لدرجة أنها تبدو وكأنها ترتدي حذاء عمل ضخماً. بقيتْ لقضاء الليل معنا أيضاً، واضطررتُ لاستضافتها في فراشي. عندما أُطلق سراحنا جميعاً في اليوم التالي، عدتُ إلى منزلي وأنا أحمل معي الرواية، التي كنتُ قد بدأتُ قراءتها بالفعل، هدية من الغريبة الشقراء، وأحكُّ رأسي المليئة بالقمل، هدية المتشرِّدة، التي بذلتُ جهداً كبيراً في الأيّام التالية لأتخلَّص منها.

الرواية، كما كنتُ أقول، بدأتُ في قراءتها منذُ اليوم الأوّل، لأتجنّب أيضاً ثرثرة مهديتي إيّاها المفرِطة، والتي كانت تُشعرني بالحرج بتفاصيلها البذيئة. كانت المؤلِّفة إنجليزية، لكن لغة الترجمة الإيطالية كانت بسيطة إلى حَدٍّ ما، ويمكنني قراءتها دون صعوبة. كانت شيّقة، تحكي عن قصّة حُبٍّ، تشبه إلى حَدٍّ ما قصّتي، قصّة رجل ثري للغاية، وَقَعَ في حُبِّ فتاة فقيرة فاضلة، كانت تبادله الشعور، لكنها كانت، لوعيها بحالها، تخشى أن تعترف بذلك حتّى لنفسها. بخلاف جويدو، كان الرجل أكبر سنّاً منها بكثير، ولديه ابنة. كانت القراءة تساعدني على الابتعاد عن الأفكار المؤلمة، والأسئلة

التي تطاردني باستمرار. أوّلها، أين ذَهَبَ الخاتم؟ كنتُ آمل بالطبع ألَّا تعثر عليه الشرطة، لكنْ، أينبغي عليّ أن أُصدِّق أنني فقدتُهُ إلى الأبد؟ كيف سأتمكَّن من إقناع أسونتينا فيما بعد، بعد أن خُنتُها الآن، بالاعتراف بمخبئه؟ وإذا لم أجده، ماذا سأقول لجويدو، الذي يتوقَّع رؤيته في إصبعي قريباً؟ ثمّ تساءلتُ إذا كان خبر الشكوى قد نُشِرَ في الصحيفة، وإذا كان أحد الخبثاء قد أبلغَهُ به، ربّما مرسلاً له قُصَاصَة الصحيفة في مظروف مجهول، يسافر في تلك اللحظة إلى تورينو. وإذا كانت قد قرأتْهُ الآنسة إستر أيضاً، وما ظنُّها بي.

كنتُ أعلم أنه في الأيّام الثلاثة الأولى من الإيقاف، لا يمكن لأحد أن يأتيَ للحديث معي، لذلك لم أَفاجَأ بأنها لم تحاول البحث عنّي، ولكنْ، بعد ذلك؟

كان هناك أيضاً خطر أن يدمِّر الخبر، وهو ينتقل بين الأفواه، سُمعتي إلى الأبد. حتّى لو أُعلنَت براءتي في النهاية، سيبقى الشّكُّ، وأيّ عائلة ستقبل بعد ذلك بأن تعمل في غرفها لصّة مشتبه

بها؟ تفكير آخر مؤلم، ذلك الخاصّ بمالكة العقار التي لا بدّ أنها تعلم الآن باعتقالي. هل ستستمرُ في اعتباري شخصاً شريفاً كَجَدّتي؟ هل ستتحمّل الفوضى التي أثارتْها الشرطة في الطابق السُّفليِّ من بنايتها، ومجيء وذهاب الشّرطيّيْن، وحقيقة أنه لا أحد يغسل السُّلَّم والمدخل منذُ أخذوني؟ للأسف لم تعد زيتا موجودة لتعمل بدلاً منّي.

نهاراً كانت القراءة تساعدني على إبقاء هذه المخاوف بعيدة عنِّي، لكنْ، ليلاً، عندما يُطفأ المصباح، لم أكن أستطع تجنُّب عودة الأفكار السّيّئة، وقد تضخّمت بفعل الظلام. كنتُ أتمدّد مستيقظة على الفراش متظاهرة بالنوم، لأتجنّب أسئلة رفيقتي. كنتُ أتوسّل مجيء النوم، لكنْ، عندما كان النوم يأتي أخيراً، كان قَلِقاً، مُضطَرِباً، تتخلّله أحلام غريبة. في الليلة الأخيرة حلمتُ أنه لديّ يوم واحد فقط لخِياطَة ثوب زفافي، وأنني رغم ذلك لم أكن في عجلة، كنتُ أريد إعداده بالفنِّيّات الصحيحة، كما تعلّمتُ من الآنسة جيمّا في منزل بروفيرا. بسطتُ على طاولة عمل كبيرة قطعة الشانتونج الحريرية، اللّيّنة والمتماسكة في الآن ذاته، ذات النقوش

البارزة، واللون الأبيض الكثيف غير الشّفّاف، الذي كان يكتسب في الضوء بريق اللؤلؤ. كنتُ أقصُّها بيد حُرّة، دون الحاجة إلى ورق التفصيل المقوّى، وَفْقَاً لموديل كان في ذهني، يشبه ثوب زفاف الآنسة استر. كنتُ أُجعِّد الكُمّيْن، أُسرِّجُهُما إلى الصِّدَار، أُرتِّب ثَنْيَات التّنُّورة في وَضْع مائل، وأُثبّتُها، لأطويَ القماشَ باستدارة على الجانبَيْن، أُوصلَ مجموعَ القِطَع بخيط السّرّاجَة، أقيسُهُ، يناسبني تماماً. كنتُ أخيط القِطَعَ معاً بماكينتي، يدور المقبض من تلقاء نفسه كما لو كان سِحْرَاً، ليتركَ كلتا يَدَيّ حُرّتَيْن، ويجري القماش سريعاً أسفل الإبرة. ها هو الثوب جاهز، مبطّن بالفعل، ومشطّب من الداخل، والأزرار الصغيرة في مكانها بطول الظَّهْر، والحوافُ مُحاكة ومنبسطة، كنتُ أرفعُهُ، أهزُّهُ، ينتفخ الكُمّان والتّنُّورة، يزدهرون بين يَدَيّ كزهرة تتفتّح لأوّل ضوء. ها أنا قد ارتديتُهُ، ثوبٌ جديرٌ بسيّدة، بأميرة أساطير، سيكون جويدو فخوراً بأناقتي. بقيت الطَّرْحَة. مَدَدْتُ يَدِي نحو قطعة التُّول المؤطَّرة بالدانتيل الفالنسي ... واستيقظتُ على مَرْفِق المتشرِّدة الذي كان يضغط على ظَهْري.

في صباح اليوم التالي، بعد أن ودّعتُ رفيقَتَي السجنِ، ووقَّعتُ كلّ الأوراق الضّروريّة، عبرتُ باب المخفر، ووجدتُ السّيّد أرتونيزي ينتظرني برفقة سيّد يرتدي ثياباً داكنة، قدّمه لي بوصفه محاميه. "في منزلكِ لم يجدوا شيئاً"، أَعلَمَني هذا الأخير، "طَلَبْتُ منذُ البداية أن يشهد البحث موظَّف من قِبَلي. لن تكون المرّة الأولى التي يدسُّ فيها شرطي غير أمين ما أراد العثور عليه بأيِّ ثمن، في الموقع، مدفوعاً من قاضي الادِّعاء. كانت مُتّهِمَتُكِ تُصرُّ على أن يستمرُّوا في البحث، ويُجدِّدوا إيقافكِ، لكنني تمكَّنتُ من مَنْع هذا. وَجَبَ عليّ محاربة المُحافظ، مَنْ يريد بكِ شرّاً نافذ للغاية. لكن الرقيب ذاته الذي قاد البحث كان قد استسلم بالفعل: تمّ تفتيش شُقَّتَكِ من أسفلها لأعلاها. استجوبوا كلّ مَنْ يعرفكِ، وخَضَعَ أولئك المشتبه بهم بينهنّ على الفور لعمليات تفتيش دقيقة. أين يمكنهم الاستمرار في البحث؟"

بفعل الارتياح الكبير انفجرتُ بالبكاء. قدّم لي السّيّد أرتونيزي، الذي شَعَرَ بالإحراج، منديله. لقد جاء ليصحبَني بعربته. أَركَبَني، وأخذني إلى منزلي. في ساحة العقار، كانت تنتظرنا استر والمالكة،

التي نجحتْ صديقتي في تهدئتها وإقناعها بعدم طَرْدي. لا أزال غير قادرة على فَهْم كيف نَجَحَتْ في ذلك، مرّة أخرى استخدمتِ الماركيزة الشّابّة سِحْرَها وبلاغتها. كما أنفقتْ مالاً أيضاً عندما أرسلتْ منذُ اليوم الأوّل فريقاً من ثلاث نساء يحلُّ محلِّي في أعمال التنظيف، وكانت تتابع رجالَ الشرطة دون هَوَادَة لإصلاح الأضرار، والأوساخ والفوضى التي كانوا يُسبِّبونها في أنحاء المبنى العامّة.

لم يتمكّنوا، بالطبع، من إنقاذ شُقَّتي. كانت كما لو أن إعصاراً قد مرّ عليها. "ستعود النسوة بعد الظَّهيرة لمساعدتكِ"، قالت لي الآنسة استر، "لنتحقَّق في هذه الأثناء من عدم اختفاء أيِّ شيء".

تبعتْني خطوة بخطوة في غرفة الخِيَاطَة وغرفة النوم والمطبخ. كان هناك شيئان يُقلقاني أكثر من غيرهما: علبة الحليب، وماكينة الخِيَاطَة. وجدتُ الأولى على أرضية المطبخ، في كومة من الحطام. سُحِقَت، كما لو أنهم داسوا عليها بالأحذية. أبسبب غضبهم من أنهم قد وجدوا فيها فَكَّة زهيدة فقط، وليس

المجوهرات التي كانوا يبحثون عنها؟ لكنهم لم يأخذوا المال. وجدتُهُ في مظروفٍ على إفريز النافذة. أغلقَهُ مساعد المحامي بخَتْم الشّمْعِ الخاصِّ به، وطَلَبَ من الرقيب أن يُوقِّع عليه. انتهى الأمر بماكينة الخِيَاطَة – ولا أدري كيف – في غرفة النوم، موضوعةً على شبكة الفراش المعدنية إلى جوار مَرتَبة مَطوِيّة، لكنها لم تُمَسّ. الضرر الوحيد هو بعض بصمات الأصابع الدّهنيّة على سطحها اللّامع الجميل والإبرة الملتوية. تسلّى شخص ما، فكّرتُ، بإدارة المقبض دون أن يضبط قَدَم الدّوّاس جيّداً.

عدّلت الآنسة استر وَضْع إحدى أريكتَي جَدّتي، وأفسحتِ المكان حولها قليلاً، ودَعَتْني للجلوس أمامها.

"كنتُ ممتلئة بالفضول من بطاقتكِ"، بدأتْ تشرح، "كتبتِ أنكِ ينبغي أن تقضِّي عليّ شيئاً جميلاً، وانتظرتُكِ صباح اليوم التالي بفارغ الصبر. وعندما وجدتُ بعد الغداء أنكِ لم تأتي، شعرتُ بالقلق، أخذتُ عربة الخيل، وجئتُ إليكِ. كانوا قد أخذوكِ قبل أقلّ من ساعة، في الزُّقاق كانت الجارات لا يزلنَ يتحدّثنَ عن

الأمر. ستجدينَ مواساة في معرفة أنهنّ كنّ جميعاً إلى جانبكِ، غاضباتٍ من رجال الشرطة، خائفاتٍ من أن ذلك قد يحدث لهنّ هنّ أيضاً. هُرعتُ على الفور إلى مكتب والدي، لأطلبَ منه أن يفعل شيئاً، واستدعى هو محامينا، الذي قدّم على الفور طَلَبَ حضور التفتيش، ثمّ نَصَحَنا بمَنْع النشر. أنا بمفردي لم أكن لأفكّر في هذا. يعرف والدي مدير الصحيفة الذي يدين له ببعض الخدمات. كان قد تلقّى بالفعل بطاقة مجهولة، كُتِبَت بها قصّة السرقة وممارسة البِغَاء. في وقت لاحق علمْنا أن مَنْ تتّهمكِ هي دونّا ليتشينا ديلسوربو، ومن المحتمل أيضاً أن البطاقة المرسَلَة للصحيفة تعود إليها. قصّة لا رأس لها ولا جسد. يظنُّ المحامي أن فضيحة وصيّة دون أوربانو قد أَفْقَدَتْها رُشْدَها، ومن ناحية أخرى، هي تبلغ مئة عام تقريباً. على أيّة حال، ستحكين لي. أخبرْنا مدير الصحيفة أنه إذا كان مَن اتُّهم بالسرقة شخصاً مهمّاً، لكان لزاماً عليه نَشْر الخبر. ولكنْ، في شأن خَيّاطَة متواضعة – يجب أن تعذريه – ولأجل مجرّد شكٍّ، فلا يوجد مجال لإهدار الحبر. وهكذا لحسن الحظِّ، لم يتسرّب الخبر. نعرفه نحن فقط".

لم تردْ منِّي أن أشكرَها. أَلَا أعرفها؟ أَلَا أعلم أنها أمام الظلم لا يمكنها التهاون؟ وعندما يتعرّض له شخص تحبُّه، يكون الأمر أسوأ. أمسكتُ بيدها، وقبّلتُها.

"هَيّا، هَيّا، لا تتأثّري. أنا لستُ الأمير رودولفو في أسرار باريس"، قالت لي ضاحكة، "لو لم يكن معي والدي لمساندتي، لم أكن لأفعل الكثير. سأذهب الى المنزل الآن، وحاولي أنتِ أن تستريحي. غدا تعالي إليّ بعد الغداء لاحتساء القهوة. أريدكِ أن تقصِّي عليّ كلّ شيء جيّداً، لكنْ، اليوم أنتِ مُتعَبَة للغاية".

وبينما هي تخرج، نبّهَتْني أنها رأت في صندوق بريدي، في مدخل البناية، خطابات. " شخص ما كَتَبَ لكِ. إذا كان بها ما يُزعِج، فلا تقلقي. ضَعيها جانباً، وسنعطيها للمحامي".

لكنه لم يكن شيئاً مزعجاً، بل على النقيض. مظروف جاء من البنك، يحتوي على مبلغ الشهر الثاني عشر من معاش الميس الذي كان يصل بانتظام منذُ يناير آنذاك. والآخر يحمل خَتْم تورينو. قبل

أن أفتحَهُ، قبّلتُهُ. ثمّ أغلقتُ الباب بالمفتاح لدورَتَيْن، جلستُ على حافَّة الفراش، وبدأتُ أقرأ بنبضات قلب متسارعة. الرسالة الأولى من جويدو! رسالة تشبهه، لطيفة، ودودة، ومخلصة. لن أقول ما كان مكتوباً فيها. ما زلتُ أحتفظ بها بين أشيائي الثمينة. أَشعرتْني تفصيلة واحدة فقط بقليل من الضِّيق، وإن كانت إيماءة جديدة على اهتمامه وكرمه. وَضَعَ داخل الظرف زوجاً من الملصقات الملوّنة لأسونتينا. "من رفيق رحلتكِ في القطار" كَتَبَ على شريط الملصق الرقيق الذي لا يبتلُّ. "أنا واثق أنها ستروقكِ. تُجنُّ بها صغيرات تورينو".

كان يجب أن أكتب له في ردِّي أن أسونتينا لم تعد موجودة. وأنني يجب أن أحمل لها الملصقات الملوّنة إلى دار الأيتام، حيثُ ربّما لا يسمحنَ لها بتلقِّي الهدايا. أمّا إخباره بكلِّ ما حَدَثَ لي في هذه الأثناء، وما فعلتْهُ جَدّتُهُ بي ويجهله هو ... فكان لا يزال عليّ أن أقرِّره.

استلقيتُ على الفراش وأنا أضمُّ الخطاب إلى قلبي، وحاولتُ أن أنام قليلاً، وإن كان الوقت صباحاً.

أيقظتْني نساء التنظيف الثلاث اللَّاتي استدعتهنّ الآنسة استر، وقد أرسلتْ لي معهنّ الغداء، وقليلاً من المفروشات النظيفة. أكلتُ، ثمّ شرعْنا بهمّة في التنظيف، جَمْع الحطام، والترتيب. ولأنني كنتُ أعمل في رفقة نجحتُ في إبقاء أفكاري بعيدة، وإن كان الخطاب الذي دَسَسْتُهُ تحت القميص، تفكيراً مستمرّاً، تفكيراً عذباً، يُدفئ قلبي.

قبل الليل، كانت الشُّقَّة الصغيرة قد استعادت مظهراً طبيعياً تقريباً. كان فراشي مرتّباً، وعليه مُلَاءَات نظيفة، أرسلتْها الآنسة استر. انصرفت النساء، تناولتُ كأساً من الحليب كعشاء، ثمّ وضعتُ ماء أسخِّنه في وعاء الزنك، لأغتسل.

ثلاثة أيّام في زِنْزَانَة التّحفُّظ، ثلاثة أيّام من القلق، من العَرَق البارد، من المراحيض القَذِرَة، من فراش دون مُلَاءَة، وحوض دون

ماء، تركتْ أثرها عليّ. قمتُ بِبَلِّ شَعْرِي بالجاز، ولَفِّ رأسي بإحكام في منشفة. سيستغرق الأمر عدّة أيّام من العمل بالطريقة ذاتها لطَرْد الضيوف الذين أخذتُهم من المتشرِّدة، نظراً لأنني لم أكن أنوى قصّ شَعْري. في الأشهر الأربعة المتبقِّية على عودة جويدو، لن ينموَ مجدّداً بما يكفي لتلقِّي مداعباته.

وأخيراً ذَهَبْتُ للفراش، منهَكَة، بيد مدسوسة تحت الوسادة، لتمسكَ بالخطاب الأغلى عندي من أيِّ جوهرة.

في اليوم التالي، كما وعدتُ، ذَهَبْتُ إلى الآنسة إستر. أخبرتُها كلّ شيء عن جويدو، باستثناء حقيقة الخاتم، الذي أهداني إيّاه، وأخفتُهُ أسونتينا. لا أعرف كيف، لكنني كنتُ أخجل منه أكثر من أيِّ شيء آخر. أكثر حتّى من العرض المشين الذي قدّمتْهُ لي دونّا ليتشينا.

ظننتُ أن راعيتي، بعقليّتها المنفتحة والحديثة، ستتحمّس لسماع قصّة حُبِّي، وستُشجِّعني على القتال دفاعاً عنها. ولكنها على

النقيض، نظرت إليّ بقلق. "هل أنتِ واثقة ممَّا تفعلينه؟ في النهاية، لقد رأيتِهِ مرّتَيْن فقط، ولساعات قليلة، أنتِ لا تعرفينه بما يكفي. كلُّهم يتصرّفون بنفس الطريقة عندما يريدون الوصول إلى غرضهم".

"لم يُقلِّل أبداً من احترامي. قال إنه يريد الزواج بي".

"وهذا يفسِّر غضب جَدّته، وقرارها منعه بأيّة وسيلة. ولكنْ، هل سيتزوّجكِ حقًّاً؟ هل يمتلك هذه الشجاعة؟ أم سيتراجع في اللحظة الأخيرة بعُذر ما؟ احذري من أن تتورّطي، لو فعلتِ ستتحطَّمين إلى الأبد. ثمّ حتّى لو تزوّجكِ ... هل أنتِ واثقة أنه بمرور الحماس الأوّليِّ لن يخجل منكِ؟"

ذكَّرتْني بأنه من عائلة ديلسوربو قبل كلِّ شيء، وأنه ربّما يشبه دون أورباتو، وأنني يجب ألّا أنسى ما فعلوه بكويريكا. وأنه ربّما لو كنتُ قد قبلتُ باقتراح جَدّته، لكان سعيداً.

"هذا لا"، تمرّدتُ. "حضرتُكِ لا تعرفينه".

"بالفعل، أنتِ مُحقَّة. لكنْ، ولا أنتِ أيضاً يمكنكِ القول بأنكِ تعرفينه تماماً".

لم أعلم ماذا أقول. كان نصحها، وقلقها، وارتيابها منطقياً. لكنني لم أستطع سوى التفكير في أن تجربتها مع الماركيز ريتسالدو قد مَحَتْ من روحها إلى الأبد أيّ وَهْم تجاه الحُبِّ والزواج، وكلّ ثقة في إخلاص الرجال.

لكني صدّقتُ في إخلاص جويدو بكلِّ روحي. وعدتُها إذنْ بأن أتصرّف بحكمة، كي لا أخاطر أيضاً بالتّعرُّض لمضايقات جديدة من قِبَل الأمن العامِّ، لكنني داخل قلبي كنتُ مُصرّة على انتظار عودة حُبِّي بثقة، وفي الوقت ذاته تحسين نفسي، كي أصبح جديرة به، لأنه لا ينبغي تحت أيِّ ظرف أن يخجلَ منِّي.

حاولتُ في الأيّام التالية العودة إلى الحياة المعتادة. طَلَبَتْ منِّي صاحبة محلِّ البقالة أن أخيط لابنتها التي ستذهب إلى المعهد الدِّينيِّ الثياب الدّاخليّة وقِطَع الزِّيِّ الذي تتطلَّبه اللّائحة. أَتَتْنِي بالموديلات والأقمشة التي يجب أن تكون الثياب عليها، وليس ما عداها، كما هو محدّد في القائمة. أقمشة جودتها ممتازة، ولا يوجد منها لدينا، وقد طَلَبْتُ إحضارها من ج. ولأنه لم يتبقّ سوى وقت قليل على دخول الصَّبِيّة للنُّزُل الطُّلّابيِّ، كنتُ أذهب كلّ صباح للعمل في منزلهم، حيثُ توجد ماكينة جميلة بمِدْوَس، تُتيح لي الخِيَاطَة بطريقة أسرع، وقياس قِطَع الثياب عدّة مرّات على تلميذة المستقبل. كنتُ أقوم بالتشطيب اليدوي في منزلي بعد الظَّهيرة. لم أعد أستخدم ماكينة خِيَاطَتِي. لم أحاول حتّى تغيير الإبرة، ومعرفة سبب التوائها، وإذا ما كنتُ أستطيع إصلاح الضَّرَر وحدي. كان يبدو لي أن أيدي رجال الشرطة قد دنّستْها بشكل أو بآخر. أَشعَرَني تنظيف آثار أصابعهم الدّهنيّة بالكحول وحده باشمئزاز غريب. عاجلاً أم آجلاً كان سينبغي عليّ إصلاحها، كنتُ أعرف هذا. لكنْ، في غضون ذلك، كنتُ أستخدم الماكينة ذات المِدْوَسِ الخاصّة بزبونتي.

بينما كنتُ أقصُ وأخيط، لم يكن بمقدوري ألَّا أفكِّر في الزِّيِّ المخطَّط غير الأنيق الذي ترتديه أسونتينا في ذلك الوقت. ذات يوم ذَهَبْتُ لزيارتها في دار الأيتام، حاملةً معي زوج الملصقات الملوّنة، ولكنْ، في اللحظة الأخيرة لم أمتلك الشجاعة للدخول. توقَّفتُ في المساحة الكبيرة أمام المعهد، مختبئة خلف تمثال جاريبالدي، لأشاهد اليتيمات وهنّ يلعبنَ في الحديقة المَحميّة بالحاجز المرتفع. كنّ يطاردنَ بعضهنّ، ويقفزنَ الحبل، ويتشاجرنَ، ويصرخنَ. اجتهدتُ لأتعرّف على أسونتينا، الآن وعندما لم يعد لديها ضفائر، بل رأس عارية، مستديرة كبلية، حليقة، بها خُصْلَة قصيرة جدّاً على الجبين، في قصّة شَعْر، كانت تخصُّ الصِّبْيَة، وتُدعى "قصّة أومبرتو".

كانت الأصغر بينهنّ، ولم تكن تلعب مع الأخريات، كانت تجلس في ركنٍ وحدها، تنظر إلى الأسفل، بينما تنبش الأرض بحذائها ككلب صغير مُقيّد. بدت لي أكثر هشاشة ونحافة من وقت أن أخذتُها على ركبتي في القطار، وعيناها، في المقابل، أوسع، مستغرقتان بشكل ما، ومتوحِّشتان أيضاً.

لم أمتلك الشجاعة للدخول وطَلَبِ مقابلتها، ولا للذهاب إلى السِّكرتارية وتَرْك هدية جويدو لها. عدتُ إلى المنزل مع شعور عميق بالمرارة حتّى إنني لم أستطع الخِيَاطَة في ذلك اليوم، ولم أتمكَّن حتّى من مواصلة قراءة الرواية الإنجليزية. لأنه هناك أيضاً تطوّرت الأحداث بطريقة حزينة، تبيّن أن الحبيب كاذب، والزواج خدعة، وهربت الفتاة المسكينة لإنقاذ شرفها، وخاطرت بالموت جوعاً. هل في ذلك تحذير لي؟ لتنبيهي كما فعلت السِّيّدة استر بشكل أكثر وضوحاً؟

كان يعذِّبني أيضاً التفكير في زيتا، التي لم أجرؤ على سؤال رئيسة الممرِّضات عنها. هل كانت لا تزال على قيد الحياة؟ وعندما تموت ماذا سيفعلون بها؟ هل سيحملونها إلى المقبرة دون مرافق، ويلقونها في مقبرة جماعية؟ أو، الأسوأ، هل سيُسلِّمونها إلى الجامعة، كي يمزِّقها الأساتذة أمام طُلَّاب الطَّبِّ لتعليمهم كيف نتكوّن من الداخل؟ كنتُ أعرف أن هذا هو مصير الفقراء بلا ذوي، الذين ليس لديهم أيُّ قريب يتقدّم للمطالبة بالجثمان.

كان قضاء الصباح في منزل الزبونة، ومتابعة ثرثرة الصَّبِيّة التي تتخيّل، وهي موزّعة بين الخوف والرغبة، الحياة المستقبلية في المعهد، والصداقات الجديدة، والموادّ التي ستدرسها، يساعدني على إبعاد أفكاري الكئيبة. لكنْ، عندما حان الوقت لحجز مقاعد المقصورة العلوية في عروض الأوبرا الغنائية القادمة، قرّرتُ أنني لن أذهب ذلك العام. كلُّ مال المعاش الذي أحتفظ به الآن مع المدّخرات الأخرى في مظروف من القماش أُخفيه خلفَ إطار إحدى اللوحات، كنتُ أنفقه لشراء الكُتُب: الكُتُب المدرسيّة في الأعمِّ: اللُّغويّات والجغرافيا، والرِّياضيّات. ولأجل التوفير، كنتُ أستعير بعضاً منها أيضاً من المكتبة. وهنا وجدتُ كتاباً عن آداب السلوك، وآخر يُعلِّم كتابة الخطابات من كلِّ نوع، وخاصّة خطابات الحُبِّ. كان عنوان الكتاب هو رسول الغرام، وبه نموذج لخطابات كلِّ موقف. لكن العبارات بدت لي سخيفة، وزائفة، مَنْ سيفكِّر أبداً في كتابة مثل هذا الهُرَاء؟ الخطابات التي كنتُ أتلقَّاها من جويدو كانت مختلفة تماماً، تعكس شخصيّته العفوية، وتصف لي حياته اليومية حتّى إنه كان يبدو لي أنني هناك، معه، أقاسمه إيّاها. من ناحيتي كنتُ أجتهد للإجابة بنفس النبرة، وإن لم يكن لديّ الكثير

لأقصّه، وكان هو يشجِّعني، ويهنِّئني على تقدُّمي، وينصحني بقراءة هذه الرواية أو تلك التي راقتْهُ هو بشكل خاصٍّ، وينقل لي أشعاره المفضّلة. كان يُحبُّ بالأخصِّ شاعراً يروي عن الناس الفقراء، جيوفاني باسكولي. تعلَّمتُ أن أُحبّه أنا أيضاً.

كان الوقت يمرُّ بطيئاً. أكملتُ المستلزمات المدرسية، وغادرت صاحبتها إلى المعهد، وهي تشعر بإثارة عظيمة. في عصر أحد الأيّام، بينما كنتُ أُوشِّي حافَّة إحدى مُلَاءَات جهازي بالمربّعات الصغيرة المفرّغة، طَرَقَ البابَ أحد عُمّال نظافة المستشفى، أرسلتْهُ رئيسة الممرِّضات. أبلغني أن زيتا ماتت، وسيحملونها في اليوم التالي للمقبرة. واحتراماً للآنسة إستر، لم يُسلِّموها لمعهد التشريح.

قرّرتُ أن أُرافقَها. كانت صديقة جيّدة، وأنا مدينة لها. لكن قلبي كان مقبوضاً حتّى إنني في الليل، وعلى الرغم من أنني كنتُ مُنهَكَة للغاية، وجدتُ صعوبة في النوم. أضأتُ الشمعةَ، والتقطتُ الرواية الإنجليزية. كنتُ قد وَصَلْتُ تقريباً إلى النهاية، استقرّت الأمور، ماتت زوجة الرجل الكاذب المجنونة، ويمكنه الآن أن

يتزوّج مجدّداً حقّاً، دون احتيال، الفتاة الفقيرة التي حَصَلَتْ على ميراث، ولم تعد فقيرة. لحسن الحظِّ، فلم تكن الروايات ذات النهايات السِّيّئة ترقني قطُّ. على خلاف كتيب البوهيمي، هنا أيضاً، كما في حياتي خلال الشهر الماضي، توجد طفلة، يتيمة صغيرة يجب رعايتها. ولكنْ، مع وصول الميراث والزواج لم يكن لديّ شكٌّ في أن أديل الصغيرة أيضاً ستحظى بنهاية سعيدة، منزل، ووالد، وزوجة والد محبّبْن تعيش معهما. شعرتُ بالسوء الشديد عندما قرأتُ أنها تخلَّصت من الفتاة المسكينة مُرسلةً إيّاها الى المعهد الدِّينيِّ. أنا لا أعرف لماذا، شعرتُ بالغضب. في النهاية كانت مجرّد رواية، قصّة مؤلَّفة.

استيقظتُ مبكِّراً، قمتُ بأعمال النظافة، وتدثّرتُ بالشال، وذَهَبْتُ مباشرة إلى المقبرة. لم يكن نعش زيتا قد وَصَلَ بعد. جاء بعد قليل على عربة ذات مظهر محايد؛ لا أزهار، ولا تيجان، ولا مرافقون، لا أحد سوى عامل نظافة المستشفى الذي سلَّمها للحادي مع بعض الأوراق. لم يكن يوجد حتّى كاهن يباركها. كنتُ أنا مَن تلوتُ الصلاة عليها، وتحسّستُ الخشب بعطف.

ثمّ وضعوها في حفرة مجهّزة بالفعل في ساحة الفقراء. لأتمكّن من العثور عليه، حفظتُ الموقع، والرّقْم المكتوب إلى جوار الاسم على الصليب الخشبي. لم أستطع البكاء، كنتُ كما لو أنني قد تجمّدتُ من الداخل، ولو وخزتُ نفسي، خطأً، بإبرة أو بمِقَصّ التطريز الصغير، لم أكن لأشعر بالألم.

ذَهَبْتُ كالمعتاد لإلقاء تحيّة عابرة على جَدّتي والميس، اللَّتَيْن لم تكونا بعيدَتَيْن للغاية. لكنني قمتُ بهذا بطريقة آلية، على سبيل العادة. كانت أفكاري في مكان آخر.

عند المخرج، بدلاً من العودة إلى المنزل، توجّهتُ باندفاع، ودون حساب للعواقب، إلى معهد ماريا بامبينا. كنّا في وقت متأخِّر من الصباح آنذاك، وكانت البوّابة مفتوحة. سألتُ في السكرتارية عن أسونتينا. قلنَ لي إنهنّ أعطينَها عطلة من المدرسة، وأنها في المُصلَّى، حيثُ يؤدِّي القسُّ طقساً جنائزياً وجيزاً لأجل والدتها. إذنْ، لستُ أنا مَنْ ينبغي أن أبلغها، وكانت هذه راحة لي بالفعل.

كانت أسونتينا تجلس في المقعد الأوّل، وحدها. وخلفها دزِّينة من الأخوات اللّاتي كنّ ينشدنَ، بصوت رقيق وأنفي، باللّاتينيّة ما يجب أن يكون دعاء بالرحمة للمتوفّاة. انتظرتُ حتّى انتهينَ، كنتُ ممتنّة للراهبات والقسِّ لأجل باقة الزهور الصغيرة على المذبح، والبخور، والترتيل الجريجوري. لكنني كنتُ أشعر بأن أسونتينا لا يمكنها البقاء في ذلك المكان.

عندما استدارت ورأتْني جالسة في المقعد الأخير، نَظَرَتْ لي بارتياب. اضطرّت الأخت التي كانت إلى جوارها لِوَكْزِها، كي تأتي وتُحييني. بحثتُ في عجلة عن عذر، لأتمكَّن من إخراجها. "أريد اصطحابها إلى المقبرة، لتُودِّع والدتها لآخر مرّة"، قلتُ. أعطينني الإذن، وأوكلنها إليّ، مُوصيات إيّايَ بإعادتها على الفور لتناول الغداء.

اضطررتُ لجَرِّها، وأنا أشدُّ على يدها المتعرِّقة التي تحاول سَحْبها من يدي. كانت تجرُّ قَدَمَيْها، وتتبعني على مَضَض. حتّى في المقبرة استمرّت في لَيِّ وجهها. قطفتُ على طول المسير، من

حافَّة الطريق، بعضَ الأزهار البرِّيّة، منتزعةً إيّاها من الأَجَمَات. أعطيتُها إيّاها، لتضعها على كومة الثّرى المبتلَّة. تلوتُ معها صلاة قصيرة. كان يبدو لي دعاء الملاك الحارس لأجل الابنة الآن أكثر ملاءمة من قدّاس الوالدة. "أَنِرْ، احرسْ، ادعَمْ، ووَجِّه هذه الطفلة التي لم يعد لديها أيُّ شخص في العالم". خَرَجْنا من المقبرة. عند البوّابة أمسكتُها من ذقنها، ورفعتُ وجهها الغاضب. "أتعرفين ماذا سنفعل؟ لن أعود بكِ إلى دار للأيتام. أنتِ وأنا سنعود الآن إلى المنزل".

سأُنهي أوراقَ إخراجها بعد الظَّهيرة. لم أشكّ في أنهنّ سيكنّ سعداء بإخلاء أحد الأماكن.

عندما عبرت أسونتينا عتبة شُقَّتي تطلّعت حولها. شيئاً فشيئاً انبسطت ملامحها المعقودة. لم تكن تعرف شيئاً عن التفتيش، دُهِشَتْ من أن بعض قِطَع الأثاث قد تحرّكت من مكانها، ومن أن بعض الأشياء لم تعد موجودة. لم أسألها عن الخاتم. أعترف أنني في تلك اللحظة لم أكن حتّى أفكِّر فيه. كنتُ متأثِّرة، وقلقة أيضاً

من المسؤولية التي سينبغي عليّ تحمُّلها من الآن فصاعداً. لن تكون الآنسة إستر سعيدة. كانت طيّبة للغاية معي، وأنا لا أتبع نصائحها، لا أفعل سوى إحباطها. وجويدو، كيف ستكون ردّة فعله أمام قراري المتسرِّع؟ هل كان يجب أن أسأله عن رأيه أم لا؟

تجوّلت الفتاة ببطء في الشُّقَّة، متحسِّسةً الأشياء واحداً تلو الآخر، وكأنها تتعرّفهم باللمس، كالعمياء. فتحتِ الدرج، حيثُ كنتُ أحتفظ بصُحُف الرسوم المتحرِّكة، لتتحقَّق ممَّا إذا كانت لا تزال في مكانها. رأت زوج الملصقات الذي وضعتُهُ هناك، لم تكن تعرف ما هو، لكنْ، جَذَبَتْها ألوان الأشكال الزاهية. "إنه لكِ"، قلتُ لها. "اقرئي ما هو مكتوب". تهجّت بالكاد إهداء جويدو. "يجب أن تشكريه لأجل الهدية"، أضفتُ.

"هل هو مَنْ أهداك الخاتم؟" سألتْني.

"أجل. ألن تخبريني أين وضعتِهِ؟"

لم تجبْ. أمام فراشها، الذي دُفع في مواجهة الجدار، ولا توجد عليه أغطية أو مُلَاءَات، بل فقط الفراش المَطوِيّ، توقَّفت في حَيْرة، منزعجة.

"سنُرتِّبه فيما بعد. لم يكن لديّ متّسع هذا الصباح. ستساعدينني في بسط المُلَاءَات"، قلتُ لها. " هل تريدين النوم بالفعل؟ أَلَا تريدين تناول شيء؟ لقد انقضى وقت الغداء منذُ فترة. لا بدّ أنكِ جائعة. سأُدفئ الآن بعض الحَساء، نأكل، ثمّ ننام. أنا أيضاً مُتعَبَة للغاية".

"هل يمكنني البقاء إذنْ؟"

"أجل."

"ولن ترسليني بعيداً مرّة أخرى؟"

"لا".

لم تُعلِّق، ولأنني أعرفها، لم أكن أتوقَّع هذا، ولم أكن أنتظر منها أن تشكرَني. لم أتوقَّع حتّى ما قامت به على الفور بعد ذلك.

مُبعِدَةً نظرَها عنِّي، ذَهَبَتْ أسونتينا في حَسْم إلى غرفة الجلوس، اقتربت من ماكينة الخِيَاطَة، وبمهارة لم أكن أعرفها فيها، فَتَحَتْ باب البكرة الخلفية، دسّت فيه أصابعَها، خَلَعَتْ علبة المكُّوك، وأرتْها لي على راحة يدها. في الداخل، بدلاً من بكرة الخيط، كان يوجد الخاتم.

كان دائماً هناك. خلال عمليات البحث الأولى، لم أنظر جيّداً، لأنني كنتُ أجهل أن أسونتينا قد راقبتْني طويلاً وأنا أستخدم ماكينة الخِيَاطَة، وأنها تدرّبت في أثناء مكوثها وحيدة في المنزل على فَكِّها.

أمّا رجال الشرطة الذين قاموا بفَحْصها منذُ البداية بعناية كبيرة، فلم يكن لديهم خبرة بها، لم يعتقد أيٌّ منهم أن هذا الجزء مجوّف، وأنه يمكن نَزْعه من مستقرِّه. ربّما حاولوا، ولكنْ، دون إزالة الرافعة

التي تُغلِقُهُ، والتي، إذا لم تكن تعرف الماكينة، تبدو كجزء غير منفصل عنه، أو ملتحم به.

ربّما كان هذا ما أرادت جَدّتي أن تُبيِّنَهُ لي في الحُلْم، بِلَفِّ القلادة الصغيرة حول إصبعها. عندما ينتهي الخيط ينبغي إعادة ملء البكرة بإخراجها من العلبة، ولكنْ، كان من الضّروريِّ إخراج البكرة أوّلاً من تجويفها. ينبغي وَضْع البكرة على الملفِّ، وملئها بخيطٍ جديد. كانت الجَدّة تعرف أن أسونتينا قد استبدلت بالبكرة الخاتمَ.

جَدّتي، أنتِ تعرفين أن أوقاتاً صعبة تنتظرني. جَدّتي، كوني أنتِ ملاكي الحارس: أَنيريْني، احرُسيني، ادعَمِيني ووَجِّهيني.

() ذُكِرَتْ في النّصِّ الأصلي بالفرنسية: couturière.

الخاتمة

مرّت خمسون سنة منذُ ذلك الحين. شهدت مرور حربَيْن. لقد تغيّر العالم، ولكنْ، بفضلٍ من الله، لا أزال على قيد الحياة، أرى جيّداً، وأستمرُ في الخِيَاطَة، وإن كان لأجل العائلة فقط. تريد، أيُّها القارئ، أن تعرف ما حَدَثَ لي بعد الوقائع التي قرأتَها للتّوِ، ولماذا قصصتُها عليكَ، هذه القصص التي تنتمي إلى وقت بعيد مضى، والتي تبدو لي أنا أيضاً وكأنها تنتمي إلى حياة شخص آخر، وليس لي؟!

بمجرّد تخرُّجه، في نهاية شهر يوليو، عاد جويدو إلى ل. فقط عندما صرْنا معاً، واستطعتُ الإمساك بيده، والنظر إلى عينَيْه، امتلكتُ شجاعة أن أُخبرَه بما فعلتْهُ بي جَدّتُهُ، وبما فعلتْهُ سابقاً بكويريكا، لتحتفظ بدون أوربانو في المنزل. كان هو، كما كنتُ واثقة دائماً، يجهل ذلك. لم أره قبل ذلك منزعجاً، وغاضباً للغاية هكذا. قَطَعَ أيّ علاقة له مع دونّا ليتشينا، وذَهَبَ للعيش في شُقَّة مستأجرة. اختارها من بين تلك التي ورثَتْها كويريكا، وأثّثها بما

يُمكِّننا من أن نعيش فيها بعد الزفاف، نحن الاثنَيْن ومعنا أسونتينا، التي وافق على وجودها على الفور. عندما يأتي الأبناء، سننتقل إلى أخرى أكبر. خُصِّصَت غرفتان لمَشغَلي، لم يطلب منِّي التَّخلِّي عن العمل، فقد كان يعرف كبريائي. ووَجَدَ هو، بمساعدة والد كلارا، عملاً في إنشاءات مصرف المياه.

عرّفتُ جويدو على آنستي، أُعجبَت به، وجَعَلَها تُصدِّق جدِّيّة نواياه. اقترحتْ علينا استر أن ننتقل إلى ج. حيثُ لا يعرفنا أحد، وسيكون كلُّ شيء أسهل كثيراً. لكن جويدو أيضاً كان لديه كبرياؤه. لا يوجد داعٍ للاختباء، كان يقول. كان، منذُ البداية، فخوراً دائماً بالظهور إلى جواري.

كان خطؤنا أننا لم نتزوّج على الفور. كان يريد خطوبة تقليدية، يريد أن نتعلَّم كيف نتعرّف على بعضنا بعضاً، يريد أن يعدّ بهدوء حفل زفاف كبيراً، وأن يُظهِرَ لجَدّته وأكبر العائلات في المدينة أنه لا يهتمُّ بأحكامهم المُسبّقة، وأن المرأة التي اختارها تُعادِل بناتهم.

ومع أنني واصلتُ العيش في غرفتي مع أسونتينا، كنّا نلتقي كلّ يوم. كنّا شباباً، نتبادل الحُبّ. كان يرغب بي، وتعلّمتُ أنا أيضاً أن أرغب به بتلك الطريقة التي لم تكن الروايات تتحدّث عنها قطُّ. سأُخطئ بحقّه، إذا قلت لكم إنني اضطررتُ للاستسلام لإلحاحه، أن الشّغف قد عَصَفَ بي رغماً عن إرادتي. لقد عَصَفَ بنا شَغَفُنا المشترك، ورغبتُنا المتبادلة، ومن جانب آخر، كان الزواج يدنو. حِكْتُ لنفسي ثوباً أبيض بسيطاً للغاية، يختلف عن ذلك الذي حلمتُ به في السجن، لم أكن قد اعتدتُ بعدُ على الارتداء مثل السّيّدات.

قبل الزفاف بيومَيْن، بينما كان جويدو يذهب إلى العمل، صدمتْهُ سيّارة، لم يستطع مالكها التّحكُّم فيها. مات بعد ساعات قليلة من غيابه عن الوعي. لم نتمكّن من وداع بعضنا، لم يتمكّن من القلق على مستقبلي. من ناحية أخرى، لم نكن نعلم بعد، لا أنا ولا هو، أنني أنتظر طفلاً. أدركتُ ذلك بعد بضعة أشهر فقط، عندما كنتُ أعيش بالفعل مع أسونتينا في الشُّقّة التي استأجرها جويدو، والتي قدّمتْها لي كويريكا بكرم، وبسعر زهيد للغاية، يكاد يكون رمزياً.

وكان حظًّاً جيّداً، لأنه عندما صار عاري ظاهراً، لم يكن لديّ بين الألف مشكلة التي أعاني منها مشكلة الإيجار على الأقلِّ. لو كان جويدو قد تُوفِّي متأخِّراً ثلاثة أيّام، لكنتُ ورثتُ ممتلكاته، ولم يصبح ابني غير شَرْعيٍّ. ولكنْ، بموجب القانون كنّا اثنَيْن من الغرباء عنه، وكلُّ شيء كان جويدو يملكه ذَهَبَ إلى دونّا ليتشينا، قريبته الوحيدة. قدّمت لي الآنسة استر، التي ظلَّت إلى جانبي بمودّة كبيرة، بالرغم من انتقادات أهل المدينة، بالإضافة إلى تفهُّمها، مساعدةَ محاميهم. في النهاية كان جويدو قد أبدى، بطَلَبه أوراق الزواج وتحديده لتاريخه، نِيَّتَهُ للزواج مِنّي. كانت تنصُّ على ذلك الإعلانات المعلَّقة على باب الكنيسة.

لن تصدِّقوا ذلك، لكنْ، على الرغم من أن دونّا ليتشينا كانت على وشك إتمام مئة عام، إلّا أنها قاتلت كالوحش، كي لا أحصل على قرش واحد. لم تكن توجد وصيّة لصالحي، واستمر التقاضي لأعوام، حتّى إنني تعبتُ من القتال، إضافة الى أن كويريكا قد ماتت في غضون ذلك، وبما أنها لم يكن لديها أحد في هذا العالم، فقد تركت لي ولابني كلَّ ما تملك. لم يكن هذا يُقارَن بثروة عائلة

ديلسوربو، لكنه كان كافياً بالنسبة إلينا. أكثر ما كان يؤسفني هو أن الصّبيّ لم يحصل على لقب جويدو. كان طفلاً جميلاً، يشبه والده تماماً، "وجنتا الورد وعينا الغزال"، فكَّرتُ عندما تطلَّعتُ في وجهه وقت ولادته، وأَسْمَيْتُهُ جويدو. لقد نجح في دراسته، ويعيش الآن في أمريكا، لأن النظام هنا جَعَلَ حياته صعبة، ثمّ لم يعد قطُّ. أعطيتُهُ خاتم الألماس والزفير، حَمَلَهُ لبعض الوقت في خنصره، ثمّ وَجَدَ زوجة، وأهداها إيّاه. ليس لديهما أطفال.

ماتت دونّا ليشينيا في عُمُر مئة وأربعة أعوام، وهي محتفظة بكامل إدراكها الذِّهنيِّ. لم يعد لديها هي أيضاً أحد، لكنها لم تفكِّر فينا، لم تفكِّر أن ابني هو الوريث الوحيد من نسلها. تركت كلّ شيء للأقارب البعيدين تماماً الذين يعيشون في ف.، ويظهرون كلّ ربع قرن فقط، والذين هُرعوا كالنسور إلى فراش موت دون أوربانو.

فيما يخصُّني، في الأيّام الأولى، اعتقدتُ أنني لن أجد عزاء أبداً. وأنني لن أنسى أبداً حُبِّي الكبير ومأساة فقدانه. كنتُ أُواصِلُ الدراسة، لأصبح جديرة بجويدو، كما لو كان لا يزال بمقدوري

إحراجه أمام أقرانه. كنتُ أَواصِلُ القراءة، لأجل متعتي، ولأنه كلَّما تقدّمتُ بدت لي أسهل. كنتُ أساعد ابني في واجبات المدرسة، وأتعلَّم معه أشياء جديدة كثيرة.

لكن الوقت، وإن لم يمحُ كلّ ذكرى، فإنه يجعلها باهتة. الألم الذي ظننتَ أنه سيُمزِّق قلبكَ يصبح أقلّ حِدّة، والحسرة تصبح أكثرَ عذوبة. بعد اثنَي عشر عاماً من وفاة جويدو عرفتُ رجلاً أَشعَرَني بالمودّة والثقة، واحترمني رغم سُمعتي السِّيِّئة. كان يعمل نجّاراً، ولديه ورشته في الطابق الأرضي من منزلنا. كان حَسَن المزاج دائماً، على الرغم من أنه فَقَدَ هو أيضاً زوجته التي أحبّها كثيراً، والتي ماتت في أثناء الوَضْع مع طفلهما الأوّل. بعد بعض الوقت طَلَبَ منِّي أن أتزوّجه، واهتمّ ليس بابني فقط، ولكنْ، بأسونتينا أيضاً، التي استمرّت في العيش معي، وكنتُ أعلِّمها حِرْفَتِي. أراد أن يُنفقَ المال ويصارع البيروقراطية لأجل إعطاء كلٍّ منهما لقبه. كان والداً ممتازاً لهما حتّى وإن لم يكونا من دمه. ربّما لأنه، بالإضافة إلى كونه نجّاراً، كان يُدعى جوزيبي(□□)؟ نحن نعيش معاً، وحدنا الآن، وفي رفقته راحة كبيرة لي. لا يزال يعمل،

على الرغم من عُمُره. الحِرَفِيُون، يقول، لا يتقاعدون أبداً، بل يسقطون موتى وأدواتهم في أيديهم. لكني لا أعتقد أنه على وشك الموت. لا يزال قوياً وممتلئاً بالطاقة، يرفع مصراعاً بيد واحدة. لقد تعلَّمتُ أن أُحبّ رائحة نشارة الخشب، خاصّة إذا كانت من الدُّلْب أو الصَّنَوْبَر. أعطاني هو، كهدية زفاف، ماكينة خِيَاطَة بالمِدْوَس لا تزال تعمل بشكل رائع. لا أعرف ماذا أفعل بواحدة كهربائية. يروق لنا الذهاب إلى المسرح، يمكننا أن نُوفِّر لأنفسنا مقعدَيْن في الصالة، لكنْ، لدينا الآن جهاز راديو، ونستمع إلى الأوبرا في المنزل أيضاً.

ربّما ترغب في أن تعرف، أيُّها القارئ، ما حَدَثَ لصديقتي وراعيتي، الآنسة استر. التقت هي أيضاً، بعد ثماني سنوات من زواجها الأوّل والتعيس، رجلاً فاضلاً تأتمنه على حياتها وحياة إنريكا أيضاً.

في القسطنطينية، تعثّر الماركيز ريتسالدو، الذي استمرّ كلّ ذلك الوقت في الترحال في الشرق، للمرّة الثانية في حياته، بوباء

الكوليرا الذي لم يدعهُ يفلت هذه المرّة. أرملة وحُرّة، تزوّجت استر في السابعة والعشرين من عُمُرها من مهندس إنجليزي شابٍّ، جاء للتّدرُّب في مصنع البيرة، ونال احترام وصداقة السّيّد أرتونيزي. تزوّجتْهُ بشرط ألّا يعود إلى وطنه، ويبقى للعيش في مدينتنا، ويساعد والدها في العمل. عندما مات والدها بعد ذلك ببضعة أعوام، وعلى الرغم من الرعاية التي يستلزمها تعليم إنريكا التي كانت تبلغ آنذاك أحد عشر عاماً (والتي كان يؤول إليها الآن لقب الماركيزة الصغيرة، لكنّ أحداً لم يكن يدعوها به) والأطفال الثلاثة الذين أنجبتْهُم من المهندس، لم تعهد إستر بإدارة كلِّ ثروتها لزوجها، كما كانت خالاتها تتوقّعنَ، بل ساعدتْهُ في ادارة المطحنة ومصنع البيرة.

كنتُ أنا، إذا استلزم الأمر، أذهب للخِيَاطَة في منزلهما، وأتناول طعام الغداء على طاولتهما، وأراهما يتصرّفان كرفيقَيْن جيّدَيْن، بدون تغنُّج أو عواطف مفرِطة. " تخلَّت آنستي عن الحُبِّ مرّة واحدة وإلى الأبد"، كنتُ أفكِّر بين الحين والآخر. لكنْ، في مرّات أخرى، عندما كنتُ أراهما يضحكان معاً أو مُنحنيَيْن على أحد

الكتالوجات لمناقشة شراء آلة جديدة، كان ينتابني الشّكُّ في أن ذلك التفاهم العميق، ذلك التوافق في الاهتمامات وتلك الثقة الكاملة المتبادلة كان شكلاً من الحُبِّ أكثر صِدْقاً وعمقاً من ذلك الذي ترويه الروايات العاطفية.

لماذا أردتُ كتابة قصص شبابي هذه؟ طَلَبَتْ مِنّي ذلك إنريكا ريتسالدو، الابنة الكبرى للآنسة استر. إنها تُدرِّس الآن في الجامعة، وتقوم بأبحاث حول تغيُّر طريقة حياتنا وعملنا. يشتري الناس الآن، حتّى محدودي الموارد منهم، الملابس جاهزة تماماً من المتاجر بسعر جيّد. ملابس قبيحة للغاية، إذا أردتُم رأيي، وهي دائماً واسعة جدّاً أو ضيّقة جدّاً أو قصيرة جدّاً أو طويلة جدّاً، تشدُّ عند الذراعَيْن، وتمتلئ بالتجاعيد على الكتفَيْن والجانبَيْن. لا يزال أشخاص قليلون يلجؤون إلى خيّاطَة، ولم يعد أحد يستدعيها للعمل في المنزل.

وجدتْ أسونتينا، التي صارت خيّاطَة ماهرة، في العشرين من عُمُرها، وظيفةَ منفِّذة تصميمات لدى لا سوبريما إليجانزا. كانت

تُفضِّل الراتب الثابت على عدم ثبات العمل المنزلي. وقد تزوّجت هي أيضاً، من موظَّف في البلدية، ولديهما ثلاثة أطفال. لقد تقاعدت الآن، ولم تعد تخيط. تُمضي الوقت جالسة أمام جهاز جديد تماماً، يجمع بين الراديو والسينما، لكنه صغير، كصندوق يمكن الاحتفاظ به في المنزل. ترغب ابنتها زيتا، التي تعمل بائعة في محلِّ ثياب، في أن تترك لها طفلَيْها عندما لا يكون لديهما مدرسة في فترة ما بعد الظَّهيرة، لكن أسونتينا لا تريد. تقول إنهما يزعجانها، ولا يتركانها تشاهد بسلام برامجها المفضّلة. قالت إنها ستُحضرهما لي، لأن لديّ متّسع من الوقت، وأعرف كيف أُسلّيهما. وأنا أُعلّمهما، الولد كالفتاة، استخدام ماكينة الخِيَاطَة ذات المِدْوَس، وهما يستمتعان حقّاً. وقد تعلّما أيضاً تثبيت الأزرار، وإذا فَقَدَا بالمصادفة أحدها، لا يطلبان مساعدة، بل يصلحان الضرر وحدهما. لا تتحلّى الفتاة بالصبر، لكنْ، يروق لشقيقها الخِيَاطَة بيده أيضاً. لم أتمكّن من إقناعه باستخدام الكشتبان، لكنْ، حتّى بدونه كان يستطيع تَوْشِيَةَ حافّة منديل بالغُرَز الصغيرة والدقيقة كما علَّمَتْني جَدّتي عندما كنتُ في مثل عُمُره. لقد وعدتُهُ أنني سأساعده في إعداد زِيِّ الهندي الأحمر لأجل الكرنفال. حَصَلْنا

على الموديل من بطل فيلم أمريكي، لا يبيعونه في المتاجر جميلاً هكذا. شعرت شقيقته بالغَيْرة، لذا أخبرتُها أنني سأصنع لها مِئْزَراً من الباتيستا البيضاء بجناحَيْن صغيرَيْن على الذِّراعَيْن، وثَنْيات طولية صغيرة على الصدر، وطَيّات على طول الحافّة. "مثل بيث في نساء صغيرات!" قالت هي. مطابق لتلك التي كنتُ أخيطها لإنريكا وهي صغيرة، فكَّرتُ أنا. فكَّرتُ أيضاً كم كانت ستصبح سعيدة صديقتي المسكينة، الكاوية، لو كان بمقدورها أن تعرف أن أسونتينا قد أطلقت اسمها على ابنتها.

كان أبناء زيتا الجديدة هذه طفلَيْن حنونَيْن، يحبّانني ويدعوانني بجَدّتي. أحاول جاهدة في الليل أن أمكث دائماً هادئة في فراشي إلى جوار جوزيبى، وألّا أذهب أبداً لزيارتهما في أحلامهما.

( ) في إشارة إلى يوسف النّجّار خطيب مريم ومُربّي عيسى عليه السلام.

شُكْر

إلى جوليا إيكينو، التي بمجرّد أن عرفت بقصّة الخَيّاطَة المتواضعة، وقعتْ في حُبِها، ودفعتْني لتنميتها.

وإلى فرانشيسكا لازاراتو، التي شجّعتْني، وانتقدَتْني، وقدّمت لي نصائح ممتازة، واقترحتْ عليّ أفكاراً رائعة، حتّى لو لم أستطع تتبُّعها جميعاً. كان هذا سيحتاج ثلاث روايات أخرى على الأقلِّ. لكنْ، مَن يدري؟! ...

مكتبة telegram @t_pdf

بيانكا بيتسورنو

وُلِدَت في مدينة ساساري عام□□□□، وتعيش وتعمل حاليّاً في مدينة ميلانو. تخرّجتْ في الآداب في جامعة كاليَري، وواصلت دراستها في ميلانو، حيثُ تخصّصت في السينما والتليفزيون. عملت لأعوام لحساب راي ميلانو في إعداد برامج ثقافية، وأُخرى للأطفال. ألَّفتْ نُصُوصاً مسرحية وتليفزيونية عدّة، وأصدرتْ بين عامَي□□□□ و□□□□ ما يقرب من الخمسين عملاً، تتنوّع بين المقالات وقصص الأطفال والبالغين، حازت شهرة كبيرة في إيطاليا وخارجها.

مكتبة
t.me/t_pdf